

تأليف

أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكنانى الأندلسى البلنسى

تغمده الله برحمته



ملتزم الطبع والنشر

عبد الحميد احمد حنفى

بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧

إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية

رحلة ابن جبير

تأليف

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكناني الأندلسي البلنسي

تغمده الله برحمته

الطبعة الاولى

ملتزم الطبع والنشر

عبد الحميد احمد حنفي

بشارع المشهد الحسيني رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٢٧



ترجمة المصنف

من كتاب الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة للوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى الواصل إلى الأندلس

أوليته دخله جده عبد السلام بن جبير الأندلسى فى طالعة بلج بن بشر ابن عياض القشيرى فى محرم سنة ١٢٣ وكان نزوله بكورة شذونة وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بلنسى الأصل ثم غرناطى الاستيطان شرق وغرب وعاد إلى غرناطة (حاله) كان أديباً بارعا شاعراً مجيداً سنيا فاضلا نزيه الهمة سرى النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة كتب بسبتة عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته وله فيهم أمداح كثيرة ثم نزع عن ذلك وتوجه إلى المشرق وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته ونظمه فائق ونثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن وأغراضه جليلة ومحاسنه ضخمة وذكره شهير ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار رحمه الله (رحلته) قال من عنى بخبره رحل ثلاثا من الأندلس الى المشرق وحج فى كل واحدة منها فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ صحبة أبى جعفر بن حسان ثم عاد إلى

وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ولقى بها أعلاما يأتى التعريف بهم فى مشيخته وصنف الرحلة المشهورة وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن النفوس إلى تلك المعالم

ولما شاع الخبر المبهج بفتح (بيت) المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥ ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٨٧ وسكن غرناطة ثم مالقه ثم سبتة ثم فارس منقطعا إلى إسماع الحديث والتصوف وتروية ما عنده وفضله بديع وورعه يتحقق وأعماله الصالحة تذكر ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقشى وكان كلفه بها جمعاً فعظم وجده عليها فوصل مكة وجاور بها طويلا ثم بيت المقدس ثم تحول لمصر واسكندرية فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه (مشيخته) روى بالأندلس عن أبيه وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش وأبى عبد الله بن أحمد بن عروس وابن الاصيلى وأخذ العربية عن أبى الحجاج ابن يسعون وبسبتة عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السبتى وأجازله أبو الوليد ابن سبكة وأبو إبراهيم اسحاق بن إبراهيم الغسانى التونسى وأبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عيسى التميمى السبتى وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشى الميانشى نزيل مكة وأبو جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد البغدادى وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندى رئيس الشافعية بأصبهان وببغداد العالم الواعظ المستبحر نادرة الفلك أبو الفرج وكناه أبا الفضائل ابن الجوزى وحضر بعض مجالسه الوعظية فشاهد رجلا ليس من عمرو وزيد وفى جوف الفراء كل الصيد وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السلمى

الجوارى وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون وأبو الطاهر بركات الخشوعى وسمع عليه وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الاصبهانى من أئمة الكتاب وأخذ عنه بعض كلامه وغيره وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الاحضر بن على بن عساكر وسمع عليه وأبو الوليد إسماعيل بن على بن إبراهيم والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعى وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبى سعيد الصوفى وأجازوا له وبحران المتكلم الصوفى العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز وابنه الحاذى حذوه

(من أخذ عنه) قال ابن عبد الملك أخذ عنه أبو اسحاق بن مهيب وابن الواعظ وأبو تمام بن إسماعيل وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائى وأبو الحسن الشارى وأبو سليمان بن حوط الله وأبو زكريا وأبو بكر يحى بن محمد بن أبى الغمر وأبو عبد الله بن حسن بن مجبر وأبو العباس بن عبد المؤمن البنانى وأبو محمد بن الحسن اللوانى بن تامتيت وابن محمد الموروري وأبو عمرو بن سالم وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمى التونسىّ وممن روى عنه بالإسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم ابن عطاء الله وبمصر رشيد الدين بن عطار وفخر القضاة بن الجباب وابنه جمال القضاة (تصانيفه) منها نظمه قال ابن عبد الملك وقفت منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس وجزء سماه نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح فى مرائى زوجه أم المجد وجزء سماه نظم الجمان فى التشكى من اخوان الزمان وله ترسيل بديع وحكم مستجادة وكتاب رحلته وكان أبو الحسن عشارى يقول إنها ليست من تصانيفه وإنما قيد معانى ما تضمنته فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه والله أعلم

﴿ شعره ﴾ من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة على ساكنها من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليم

أقول وآنست بالليل ناراً   لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى   كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل فى حندس   فما باله قد تجلى نهارا
وهذا نسيم شذا المسك قد   أعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكى   وجاها فقد سبقتنا ابتدارا
وكنا شكونا عناء السرى   فعدنا نبارى سراع المهارا
أظن النفوس قد استشعرت   بلوغ هوى تخذته شعارا
بشائر صبح السدى آذنت   بأن الحبيب تدانى مزارا
جرى ذكر طيبة ما بيننا   فلا قلب فى الركب إلا وطارا
حنينا إلى أحمد المصطفى   وشوقا يهيج الضلوع استعارا
ولاح لنا أحد مشرقا   بنور من الشهداء استنارا
فمن أجل ذلك ظل الدجى   يحل عقود النجوم انتثارا
ومن ذلك الترب طار النسيم   نشرا وعم الجهات انتشارا
ومن طرب الركب حث الخطى   إليها ونادا البدار البدارا
ولما حللنا فناء الرسول   نزلنا بأكرم خلق جوارا
وحين دنونا لفرض السلام   قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا   ولا نرفع الطرف إلا انكسارا
ولا نظهر الوجد إلا اكتتاما   ولا نلفظ القول إلا سرارا
سوى إننا لم نطق أعينا   بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام   نعيد السلام عليها مرارا
ولولا مهابته فى النفوس   لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
قضينا بزورته حجنا   وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
إليك إليك نبى الهدى   ركبت البحارا وجبت القفارا
وفارقت أهلى ولا منة   ورب كلام يجر اعتذارا

وكيف نمن على من به | نؤمل للسيئات اغتفارا
دعانى إليك هوى كامن | أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديت لبيك داعى الهدى | وما كنت عنك أطيق اصطبارا
ووطنت نفسى بحكم الهوى | على وقلت رضيت اختيارا
أخوض الدجى وأروض السـ | ـرى ولا أطعم النوم إلا غرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل | لطرت ولو لم أصادق مطارا
وأجدر من نال منك الرضى | محب تراك على البعد نارا
عسى لحظة منك لى فى غد | تمهد لى فى الجنان القرارا
فما ضل من بسراك اهتدى | ولا ذل من بذراك استجارا

وفى غيطة من من الله عليه بحج بيته وزيارة قبر نبيه ﷺ يقول

هنيئا لمن حج بيت الهدى | وحط عن النفس أو زارها
وان السعادة مضمونة | لمن حج طيبة أو زارها

وفى مثل ذلك يقول

إذا بلغ امرء أرض الحجاز | فقد نال أفضل ما أم له
وإن زار قبر نبى الهدى | فقد أكمل الله ما أمله

وقال فى تفضيل المشرق

لا يستوى شرق البلاد وغربها | الشرق حاز الفضل باستحقاق
أنظر ترى الشمس عند طلوعها | زهواً بعجب بهجة الأشواق
وانظر لها عند الغروب كهيئة | صفراء تعقب ظلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها | أن تأذن الدنيا بعزم فراق

وقال فى الوصايا

عليك بكتمان المصائب واصطبر | عليها فما أبقى الزمان شقيقا
كفاك بشكوى الناس إذ ذاك انها | تسر عدواً أو تسوء صديقا

وقال :

ومصانع المعروف فلتة غافل | ان لم تضعها فى محل عاقل
كالنفس فى شهواتها إن لم تكن | وقفا لها عادت بضر عاجل

(نثره) من حكمة قوله أن شرف الانسان فبشرف وأحسان وإن فاق فبفضل وإرفاق ينبغي أن يحفظ الانسان لسانه كما يحفظ الجفن إنسانه فرب كلمة تقال تحدث عثرة لاتقال كم كست فلتات الألسنة الجداد من ورائها إملابس الحداد نحن فى زمان لايحظى فيه بنفاق إلامن عامل بنفاق شغل الناس عن الطريق بزخارف الاعراض فمخوا الصدور عنها والاعراض آثروا دنيا هى أضغاث أحلام وكم هفت فى حبها من أحلام أطالوا فيها آمالهم وقصروا أعمالهم ما بالهم لم يتفرغوا لغيرها مالهم فى غير ميدانها استباق ولا لسوى هداها اشتياق تالله لو كشف الاسرار لماكان هذا الاسرار لسهرت العيون وتفجرت من شؤنها الجفون فلو أن عين البصيرة من سنتها هابة لرأت جميع مافى الدنيا ريحاها به ولكن استولى العمى على البصائر ولا يعلم الانسان ماإليه صائر أسئل الله هداية سبيله ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله إنه الحنان المنان لارب سواه (ومنها) فلتات الهبات أشبه شيء بفلتات الشهوات منها نافع لايعقب ندما ومنها ضار لا يبقى فى النفس ألما فضرر الهبة وقوعها عند من لايعتقد لحقها أداء وربما أثرت عنده اعتداء وضرر الشهوات ان لم تواقف ابتداء فتصير لمتبعها داء مثلها كمثل المسكر يلتذصاحبه بحلاوة جناه فإذا صحا يعرف ماقد خناه وعكس هذه القضية هى الحالة المرضية

(مولده) ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل بشاطية سنة ٥٤٠ (وفاته) توفى بالاسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤

ترجمة المصنف

من تاريخ مصر الكبير المقفى للشيخ تقى الدين أحمد المقريزى رحمه الله

محمد بن أحمد بن جبير بن محمد جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الداخل إلى الأندلس من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة

ابن كنانة أبو الحسن بن أبي جعفر الكنانى الأندلسى البلنسى مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ ببلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله الأصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش وأخذ عنه القراءات وعنى بالآداب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمى السبتى عن القاضى عياض وتوجه إلى الحج ودخل بغداد والشام وسمع بهما وقدم مصر فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى والحافظ أبو الحسين يحيي بن على القرشى وتوفى فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤

ترجمة المصنف

من الباب الخامس من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد المقرى رحمه الله

ومنهم (يعنى من الراحلين إلى المشرق من الأندلس) (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير) الكنانى صاحب الرحلة وهو من ولد ضمرة بن بكر بن مناه بن عبد كنانة أندلسى شاطبى بلنسى مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ ببلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبى عبد الله الأصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش وأخذ عنه القراءات وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض والكتابة ومن شعره قوله وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى فى يده

لاتغترب عن وطن   واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا   ما فارق الأصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب الصدر الخجندى

يامن حواه الدين فى عصره ... صدرا يحل العلم فيه فؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى ... فى زائر يخطب منه الوداد
لايبتغى منه سوى أحرف ... يعتدها أشرف زخر يفاد
ترسمها أنمله مثل ماتمق ... زهر الروض كف العهاد
فى رقعة كالصبح أهدى لها ... يد المعالى مسك ليل المداد
أجازة يورثنيها العلى ... جائزة تبقى وتفنى البلاد
يصحب الشكر خديما لها ... والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجاب الصدر الخجندى

لك الله من خاطب خلتى ... ومن قابس يجتدى سقط زندى
اجزت له ما أجازه لى ... وما حدثوه وما صح عندى
وكاتب هذى السطور التى ... تراهن عبد اللطيف الخجندى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية رحل معه فأديا الفريضة وسمعا بدمشق من ابن أبى الطاهر الخشوعى وأجازهما أبو سعيد بن أبى عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ودخلا بغداد وتجولا مدة ثم قفلا جميعاً إلى المغرب فسمع منها به بعض ما كان عندهما وكان أبو جعفر هذا متحققاً بعلم الطب وله فيه تقعيد مفيد مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم وكتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن وجده لامه القاضى أبو محمد عبد الحق ابن عطية وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ٥٩٨ أو ٥٩٩ ولم يبلغ الخمسين سنة رحمه الله ﴿ رجع ﴾ إلى جبير ﴿ قال لسان الدين ﴾ فى حقه أنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب وله الرحلة المشهورة واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان إحداهما أولها

أطلعت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

ومنها قوله

رفعت مغارم مكس الحجاز بأنعامك الشامل الغامر
وآمنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك بالغرب من شاكر

والأخرى منها فى الشكوى بابن شكر الذى كان آخذ المكس من الناس فى الحجاز

وما نال الحجاز بكم صلاحا وقد نالته مصر والشام

ومن شعره

أخلاء هذا الزمان الخئون توالت عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم فصرت أطالع باب البدل

وقوله

غريب تذكر أوطانه فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالأسى ويعقد بالنجم أجفانه

وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا

بدت لى أعلام بيت الهدى بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى وأهديت قلبى هدياً إليه

وقوله يخاطب من أهدى له موزا

يامهدى الموز تبقى وميمه لك فاء
وزايه عن قريب لمن يعاديك تاء

وقال رحمه الله

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما سن بن سينا وأبو نصر

وقال

ياوحشة الاسلام من فرقه شاغله أنفسها بالسفه
قدنبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفة

وقال

ضلت بأفعالها الشنيعه طائفة عن هدى الشريعه
ليست ترى فاعلا حكيما يفعل شيئا سوى الطبيعه

وكان انفصاله رحمه الله من غرناطة قصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ووصل الاسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة فكانت إقامته على متن البحر عن الأندلس الى الإسكندرية ثلاثين يوما ونزل البر الإسكندرانى فى الحادى والثلاثين وحج رحمه الله وتجول فى البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها وكان رحمها الله كما (قال ابن الرقيق) من أعلام العلماء العارفين بالله كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمد يده اليه بكاس فأظهر لانقباض وقال يا سيدى ما شربتها قط فقال والله لتشربن منها سبعا فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس فملأ له السيد الكاس من دنانير سبع مرات وصب ذلك فى حجره فحمله الى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أن يحج فى تلك السنة فأسعفه وباع ملكا له تزود به وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر ومن شعره فى جارية تركها بغرناطة

طول اغتراب وبرح شوق لا صبر والله لى عليه
اليك أشكو الذى ألاقى ياخير من يشتكى اليه
ولى بغرناطة حبيب قد غلق الرهن فى يديه

دوعته وهو بارتحاض يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه يتهل فى ورد وجنتيه
أبصرت در على عقيق من دمعه فوق صفحته

وله رحلة مشهورة بأيدى الناس ولما وصل بغداد تذكر بلده

سق الله باب الطاق صوب غمامة ورد الى الأوطان كل غريب

(انتهى) وقال فى رحلته فى حق دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق الخ (وقال العلامة بن جابر) الوادى آشى بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ما نصه ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد هذا ولم تكن له بها إقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا أزمان فصولها المنوعات ولا أوقات سروها المنهات وقد اختصر من قال ألفيتها كما تصف الألسن وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين (انتهى رجع) إلى كلام ابن جبير فنقول ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الإسلام حسنا والاتقان بناء وغرابة صنعه واحتفال تنميق وتزيين الخ ثم مد النفس وما من عجائب ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير الخ (وحكى ابن سعيد) وغيره ان غرناطة تسمى دمشق الأندلس لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار وقد أطل عليها جبل الثلج وفى ذلك يقول بن جبير صاحب الرحلة

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجرى وهى تنصب اليها

(قال بن سعيد) أشار ابن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف غوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار ودمشق فى وهدة تنصب إليها الأنهار وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة تجرى من تحتها الانهار (انتهى) . . . رجع إلى ابن جبير رحمه الله ومن شعره قوله

إياك والشهوة فى ملس والبس من الاثواب أسمالها
تواضع الانسان فى نفسه أشرف للنفس واسمى لها

وقال

تنزه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس فهو بالحر أشبه
إذا أنت جاوبت السفيه مشاتما فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال

أقول وقد حان الوداع وأسلمت قلوب إلى حكم الأسى ومدامع
أيا رب أهلى فى يديك وديعة وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور

لابى الحسين مكارم لو أنها عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت عن بعض نعماها عظام الابحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها

يا وفد الله فزتم بالمنا فهنيئا لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برح الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هنا

ومنها

فيناديه على شحط النوى من لنا يوما فقلت ملنا
سر بنا يا حادى الركب عسى ان تلاقى يوم جمع سر بنا
ما دعى داعى النوى لما دعى غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق إذ لاح وقل جمع الله يجمع شملنا
علنا نلقى خيالا منكم بلذيذ الذكر وهنا علنا
لوحنا الدهر علينا لقضى باجتماع بكم بالمنحنا
لاح برق موهنا من نحوكم فلعمرى ما هنا العيش هنا

أنتم الاحباب لنشكو بعدكم هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها

لعل بشير الرضى والقبول يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشد عند استقباله المدينة المشرفة على صاحبها الصلاة وأتم السلام وهى ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر أولها

أقول وآنست بالليل ناراً الأبيات الثلاثة ✡

وكان أبو الحسين بن الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها (وقال صاحب الملتمس) فى حقه الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيراً ورويت عنه وأصله من شاطبة وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ذكره ابن اليسع فى تاريخه ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه وتولع بغرناطة فسكن بها قال ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية

أبا عمران قد خلفت قلبى لديك وأنت أهل للوديعة

صحبت بك الزمان أخا وفاء فها هو قد تنمر للقطيعة

قال وكان من أهل المروءات عاشقاً فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الاخوان والمبادرة لإيناس الغرباء وفى ذلك يقول :

يحسب الناس بأنى متعب فى الشفاعات وتكليف الورى

والذى يتعبهم من ذلك لى راحة فى غيرها لن أفكرى

وبودى لو أقضى العمر فى خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال ومن أبدع ما أنشده رحمه الله أول رحلته

طال شوقى إلى بقاء ثلاث لا تشد الرحال إلا إليها

ان للنفس فى سماء الأمانى طائر لا يحوم إلا عليها

قص منه الجناح فهو مهيض كل يوم يرجوا الوقوع لديها

إذا بلغ العبد أرض الحجاز البيتين :

وعاد رحمه الله إلى الاندلس بعد رحلته الاولى التى حل فيها دمشق والموصل وبغداد وركب إلى المغرب من عكا مع الافرنج فعطب فى خليج صقلية الضيق وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١ ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالاسكندرية كما تقدم ومن شعره أيضا

لى صديق خسرت فيه ودادى — حين صارت سلامتى منه ربحا

حسن القول سيء الفعل كالجز — ار سمى واتبع القول ذبحا

وحدث رحمه الله بكتاب الشفاء عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى عن القاضى عياض ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى وتوفى ابن جبير بالاسكندرية يوم الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ والدعاء عند قبره مستجاب قاله ابن الرقيق رحمه الله وقال ابن الرقيق فى السنة بعدها وقال (أبو الربيع بن سالم) أنشدنى أبو محمد عبدالله بن التيمى البجائى ويعرف بابن الخطيب لأبى الحسين بن جبير وقال وهو مما كتب به إلى من الديار المصرية فى رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتى قضاء سبتة وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك وتوفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوقشى فدفنتها بها

بسبتة لى سكن فى الثرى — وخل كريم إليها أتى

فلو أستطع ركبت الهوى — فزرت بها الحى والميتا

وأنشد ابن جبير رحمه الله لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة أو فى طريقها قوله :

إلى نحو أرض المنى من شرق أندلس — شوق يؤلف بين الماء والقبس

إلى آخرها ومن شعره قوله :

يا خير مولى دعاه عبد — أعمل فى الباطل اجتهاده

هب لى ما قد علمت منى — يا عالم الغيب والشهادة

وقال رحمه الله

وإنى لأوثر من اصطفى　　وأغضى على زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب　　لأعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله

عجبت للمرء فى نياه تطمعه　　من العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخطبها　　أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته　　وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه　　وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه بشفقه من تضييع درهمه　　وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوء الناس تدبيراً لعاقبة　　من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال

صبرت على غدر الزمان وجعد　　وشاب لى السم الذعاف بشهده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد　　صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته　　فما دام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم　　يضىء لى على طول اقتداحى لزنده
وأغرب من عنقاء فى الدهر مغرب　　أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده　　فليس مضاء السيف إلا بحده
وعزمك جرد عند كل مهمة　　فما نافع مكث الحسام بغمده
وشاهدت فى الأسفار كل عجيبة　　فلم أر من قد نال جداً بجده
فكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها　　فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الإنسان رزقا لعجزه　　كما لا ينال الرزق يوما بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة　　جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال

الناس مثل ظروف حشوها صبر وفوق أفواهها شيء من العسل
تغر ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل

وقال

تغير إخوان هـذا الزمان وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديماً على صحة فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البـدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله :

تكلت اخلاء هـذا الزمان فعنـــدى مما جنوه خلل
قضيت التعجب من شأنهم فصرت أطالع باب البـــدل

انتهى ولابن جبير رحمه الله تعالى :

من الله فاسأل كل أمر تريده فما يملك الإنسان نفعاً ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فإنهم من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
وإياك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيل عنها أنها السجدة الصغرا

وهو نحو قول القائل

أيها المستطيل بالبغى أقصر ربمـا طأطأ القوم الرؤسا
وتذكـر قول الإله تعـالى إن قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندتة من قرى مصر :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بمدمع فليس لنا إلا المدامع قربان

وقال ابن جبير

قد أحدث الناس أموراً فلا تعمل بهـا إنى امرء ناصح
فمـا جماع الخير إلا الذى كان عليـــه السلف الصالح

وقال

رب إن لم تؤتنى سـعة فأطو عنى فضلة العمر
لا أحب اللبث فى زمن حاجتى فيـه إلى البشر
فهم كسر لمنجبر ما هم جـبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير رحمه الله مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التى أولها :

بلغت المنى وحللت الحرم فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمـكة أهلا بها وشكراً لمن شكره يلتزم

وهى طويلة وسيأتى بعضها وقال رحمه الله عند تحركه للرحلة الحجازية

أقول وداعا للخير وداعا حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذ لى اغتماض ولم أرحل إلى البيت الحرام
ولا طافت بى الآمال إن لم أطف مابين زمزم والمقام
ولا طابت حياة لى إذا لم أزر فى طيبة خير الانام
وأهديه السلام وأقتضيه رضى يدنى إلى دار السلام

ولنختم ترجمته بقوله

وأحب النبى المصطفى وابن عمه علياً وسبطيه وفاطمة الزهرا
هم أهل بيت أذهب الرجس عنهم وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم وحبهم أسنى الذخائر للاخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض فإنى أرى البغضاء فى حقهم كفرا
هم جاهدوا فى الله حق جهاده وهم نصروا دين الهدى بالظبى نصرا
عليهم سلام الله مادام ذكرهم لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله فى آخر الميمية

فى شفاعته عصـمة فهو يوم التنادى به يعتصم

عسى أن تجاب لنا دعوة لديه فنكفى بها ماأهم
ويرعى لزواره فى غد زماما فما زال يرعى الذمم
عليه السلام وطوبى لمن ألم بتربته فاستلم
أخى كم تتابع أهوائنا ونخبط عشواءها فى الظلم
رويدك جرت فعج واقتصد أمامك نهج الطريق الاعم
وبت قبل عض بنان الأسى ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها:

وقل رب هب رحمة فى غد لعبد بسيم العصاة اتسم
جرى فى مبادينا عصيانه مسيئا ودان بكفر النعم
فيارب صفحك عما جنى ويارب عفوك عما اجترم

وقال المقرى رحمة الله عليه فى الباب السابع من كتابه ما نصه ومن الحكايات فى مروءة أهل الأندلس ماذكره صاحب الملتمس فى ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبى الحسين بن جبير صاحب الرحلة وقد قدما ترجمته فى الباب الخامس من هذا الكتاب وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقا فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الاخوان وأنشدنا هنالك قوله (يحسب الناس بانى متعب الخ) وقد ذكر لك كله صاحب الملتمس ثم قال أعنى صاحب الملتمس ومن أغرب مايحكى أنى كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم ابن الفرس لجعلته يعنى ابن جبير الواسطة حتى تيسر ذلك فلم يوفق الله ما بينى وبين الزوجة لجئته وشكوت له ذلك فقال أنا ماكان القصد لى فى اجتماعكما ولكن سعيت جهدى فى غرضك وهاأنا أسعى أيضاً فى افتراقكما إذ هو من غرضك وخرج فى الحين ففصل القضية ولم أر فى وجهه أولا ولا أخيرا عنوانا لامتنان تصعيب ثم انه طرق بابى ففتحت له ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية فقال يا ابن أخى إعلم أنى كنت السبب فى هذا القضية ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك فبالله إلا ما سررتنى بقبوله

فقلت له أنا ماأستحي منك فى هذا الأمر والله إن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب ولايحل لك أن تمكنني به بعد أن شرحت لك أمرى فتبسم وقال لقد احتلت فى الخروج عن المنة بحيلة وانصرف بماله انتهى ثم قال صاحب الملتمس وتذاكرنا يوما معه حالة الزاهد أبو عمران المارتلى فقال صحبته مدة فما رأيت مثله وأنشدنى شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت فالأول قوله

إلى كم أقول فلا أفعل — وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوى — وأنصح نفسى فلا تقبل
وكم تعلل لى ويحها — بعل وسوق كم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا — وأغفل والموت لا يغفل
وفى كل يوم ينادى بنا م — نادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجوا البقا — وسبع أتت بعدها تعجل
كأن بى وشيكا إلى مصرعى — يساق بنعشى ولا أمهل
فياليت شعرى بعد السؤ — ال وطول المقام لما أنقل

والثانى قوله

اسمع أخى نصيحتى — والنصح من محصل الديانه
لا تقربن إلى الشهادة — والوساطة والأمانه
تسلم من أن تعزى لزور — أو فضول أو خنانه

قال فقلت له أراك لم تعمل بوصية فى الوساطة فقال ما ساعدتنى رقة وجهى على ذلك انتهى .

وفى كتاب رحلة العبدرى ما صورته قال وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضا قال أنشدنى أبو عمرو بن الشقر قال أنشدنى الفقيه الزاهد المنقطع إلى الله بمهجته أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى بالاسكندرية لنفسه :

تأن فى الأمر لا تكن عجلا ... فمن تأنى أصاب أو كادا
وكن بحبل الإله معتصما ... تأمن به بغي كل من كادا
فمن رجاه فنال بغيته ... عبد مسيء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له ... يلق خطوبا به وأنكادا

وبنحوه له

من العقل عن لحظة فى هوى ... فان البصيرة طوع البصر
وغض جفونك عن عفة ... فان زناء العيون النظر

وأنشدنى أيضاً بمثله

أما فى الدهر معتبر ... ففيه الصفو والكدر
فسلنى عن تقلبه ... فعندى جهينة الخبر
صحبناه إلى أجل ... نراقبه ونحتذر
فيا عجبا لمرتحل ... ولا يدرى متى السفر

وقال العبدرى أيضا بعد وصفه الاسكندرية وعجائبها ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم (يعنى أهل الاسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الاهانة والملح الأجاج ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ليبحثوا عما بأيديهم من مال ويأمرون بتفتيش النساء والرجال وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي وجعل الانفصال عنهم غاية أربى وذلك لما وصل اليها الركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله فهجتهم الخسيسة ولا أعدم منهم لاسد الآفات فريسة فمدوا فى الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم وأذاقوهم ألوانا من الهوان ثم استخلفوهم وراء ذلك كله وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة فى بلد من البلاد ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبا ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر إعراضا عن الله سبحانه وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد نعوذ بالله من الخذلان فلو شاء لاعتدل المائل وانتبه الوسنان وكنت إذ رأيت فعل المذكورين ظننت أن ذلك أمر أحدثوه حتى حدثنى

نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحي بن الشيخ وجيه الدين أبي على منصور بن عبد العزيز بن حباسة الاسكندرى بمدرسة جده المذكور حكاية اقتضت ان لهم فى هذه الفضائح سلفا غير صالح وذلك أنه حدثنى املاء من كتابه قال حدثنى الشيخ الصالح أبو العباس احمد بن عمر بن محمد السبتى الحميرى بثغر الاسكندرية سنة ٦٦٢ قال حدثنى الشيخ الإمام المحدث ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكنانى الأندلسى سنة ٦١١ أنه ورد إلى الاسكندرية فى ركب عظيم عن المغاربة برسم الحج فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم ففتش الرجال والنساء وهتكت حرمة الحرم ولم يكن فيهم إبقاء على أحد قال فلما جاءتنى النوبة وكانت معى حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم فلم يعرجوا على قولى ولا التفتوا إلى كلامى وفتشونى كما فتشوا غيرى فاستخرت الله تعالى ونظمت هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ومذكرا بالله فى حقوق المسلمين ومادحا له فقلت :

أطلت على أفقك الزاهر ... سعود من الفلك الدائر
فأبشر فان رقاب العدى ... تمد إلى سيفك الباتر
وعما قليل يحل الردى ... بكيدهم الناكث القادر
وخصب الورى يوم يسقى ... الثرى سحائب من مها الهامر
فكم لك من فتكة فيهم ... حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها ... فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك فى غزوهم ... فتعسا لجدهم العاثر
فأدبر ملكهم بالشآم ... وولى كأمسهم الدابر
جنود بالرعب منصورة ... فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غارق هالك ... بتيار عسكرك الزاخر

ثارت لدين الهدى فى العدى   فأثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى   فسماك بالملك الناصر
وتسهر جفنك فى حق من   سير ضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه   فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى   فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى   وأحييت من وسمه الدائر
لكم زخر الله هذى الفتوح   من الزمن الأول الغابر
وخص من بعد ماذرته   بها لاصطناعك فى الآخر
محبتكم ألقيت فى النفوس   بذكر لكم فى الورى طاهر
فكم لهم عند ذكر الملوك   بمثلك من مثل سائر
رفعت مغارم أرض الحجاز   بأنعامك الشامل الغامر
وآمنت أكناف تلك البلاد   فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة   على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد   وكم لك فى الغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عام   بمكة من معلن جاهر
وكم بقيت حبسه بالظلام   وتلك الذخيرة فى الذاخر
يعنت حجاج بيت الإله   ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم   وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا   كأنهم فى يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا   وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة   فليس لها عنه من ساتر
أليس يخاف غدا عرضه   على الملك القادر القاهر
وليس على حرم المسلمين   بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره   فيا ذلة الحاضر الزاجر
إلا ناصح مبلغ نصحه   إلى الملك الناصر الظافر

ظلوما تضمن مال الزكاة لقد نفست صفقة الخاسر
يسر الخيانة فى باطن ويبدى النصيحة فى الظاهر
فأوقع به حادث انه بقبح أحدوثة الذاكر
فما للمناكر من زاجر سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها فما لك فى الناس من عاذر
ورفعك أمثالها موسعا رداء فخارك من ناشر
وآثرك العز تبغى بها وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة فى حقكم وحق الوفاء على الناذر
وحبك ألطفنى بالقريض وما ابتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبى وبئس البضاعة للتاجر
إذا الشعر صار شعار الفتى فناهيك من لقب شاهر
وإن كان نظمى له نادر فقيد قيل لا حكم للنادر
ولكنها خطرات الهوى تعز فتغلب بالخاطر
وأما وقد زار تلك العلى فقد فاز بالشرف الباهر
وإن كان منك قبول له فتلك الكرامة للزائر
ويكفيك سمعك من سامع ويكفيك لحظك للناظر
ويزهى على الروض غب الحيا بما حاذ من ذلك العاطر

قلت هكذا حدثنى أبو عبد الله بهذه الحكاية وقد وقعت فى كتابه مشهورة لم يذكر فيه إلا ما أثبته وبالله التوفيق وأنشدنى أبو عبد الله أيضا عن أبى العباس المذكور عن ابن جبير قصيدة نظمها ارتجالا حين تراءت له مدينة رسول الله ﷺ وهى هذه

أقول وآنست الأبيات

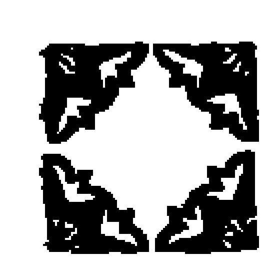
وقال على بن ظافر فى بدائع البداية أنبأنى المسكى نزلت من الفراق لوداع الأجل أبى الحسين بن جبير فقال كنت على المجيء إليك فقلت وهمة سيدى

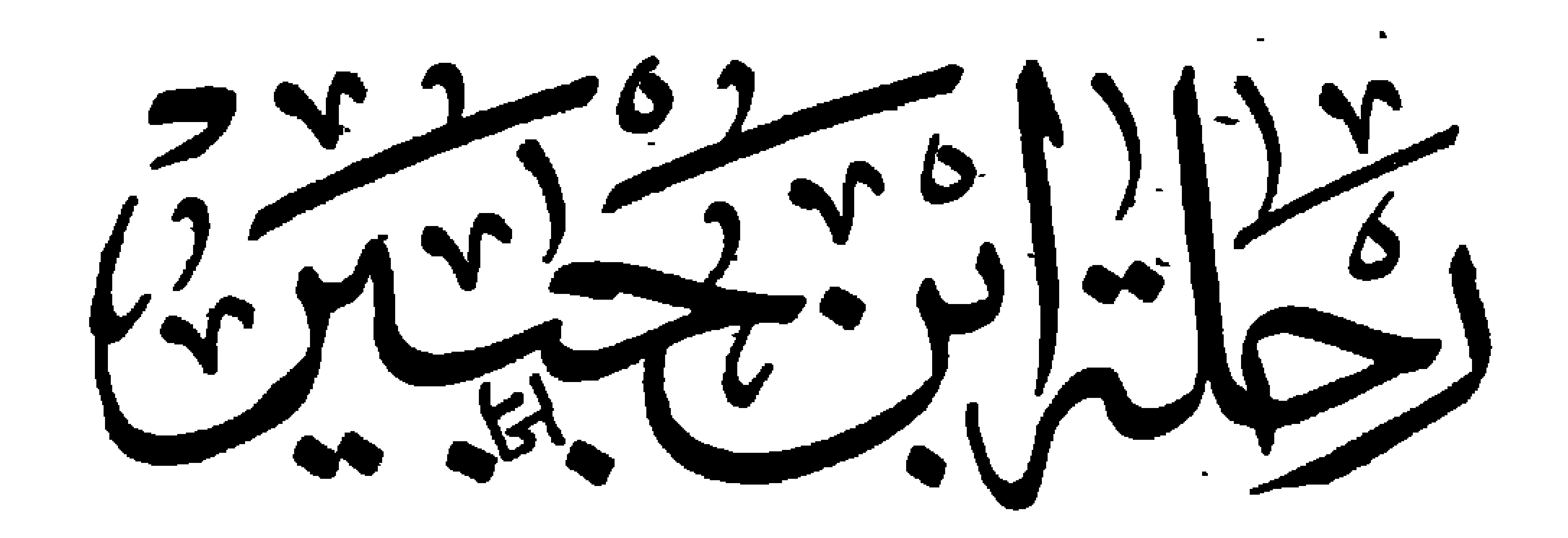
هى التى آنت به فسألن عن القرافة فقلت هى موضع يصلح للخير والشر من طلب شيئا وجده فقال خذ هذه الحكاية كنت متفرجا فى مكان وبت به ثم أقبلت منه بكرة فلقينى تلميذ لى فقال :

من أين أقبلت يا من لا نظير له ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فأجبته مسرعا

من موضع تعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا





تأليف

أبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكنانى الأندلسى البلنسى

تغمده الله برحمته

الطبعة الاولى

ملتزم الطبع والنشر

عبد الحميد احمد حنفى

بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

—>※◎○○◎※<—

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الاسفار

ابتدى بتقيدها يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير عرفنا الله السلامة بمنه وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطه حرسها الله للنية الحجازية المباركة قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمى وكان الاجتياز على (جيان) لقضاء بعض الأسباب ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الإثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث عشر لشهر فبراير المذكور أيضا وكانت مرحلتنا الأولى منها إلى (حصن الغيداق) ثم منه إلى (حصن قبرة) ثم منه إلى مدينة (إستجة) ثم منها إلى (حصن أشونه) ثم منه إلى (شلبره) ثم منه إلى (حصن اركش) ثم منه إلى قرية تعرف بقرية (اللشمة) من قرى مدينة ابن السليم ثم منها إلى (جزيرة طريف) وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثانى يسر الله علينا فى عبور البحر إلى (قصر مصمودة) تيسيراً عجيبا والحمد لله ونهضنا منه إلى (سبتة) غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه والفينا بها مركبا للروم الجنويين مقلعا إلى الاسكندرية بحول الله عزوجل فسهل الله علينا فى الركوب فيه وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور بحول الله تعالى وعونه لا رب

غيره ، وكان طريقنا فى البحر محازيا لبر الاندلس وفارقنا يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده عندما حازينا دانية وفى صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفا قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميروقة ثم يوم الاحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ومن سبتة إليها نحو ثمانية مجار والمجرى مائة ميل وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة وقام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أوأقل وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة نحو الاربعمائة ميل فكان قطعا مستغربا فى الساعة وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع الله علينا فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقا من غرب مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا فسئل عن مقصده فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وإنه من قرطا جنة عمل مرسية وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره والله الميسر لا رب سواه فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور فأخذنا فى الرجوع عوداً على بدء إلى أن وصلنا طرفا من البر المذكور ويعرف بقوسمركة وهو مرسى معروف عندهم فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور والمركب المذكور معنا وبهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ذكر لنا أنه كان منزلا للبهود فيما سلف ثم إنا أقلعنا منه ظهر يوم الاحد السادس عشر من الشهر المذكور وفى مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد وهبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومى مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منا فأعلمناه أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجال ونساء يباعون فى السوق وكان ذلك عند وصول العدو دمره الله بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين والله يتداركهم برحمته ووصل

إلى المرسى المذكور يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينافيه سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل فنزل إليه أشياخ المركب من الروم واجتمعوا به وطال مقامهم عنده ثم انصرفوا وانصرف إلى موضع سكناه وتركنا المركب المذكورة فى موضع ارسائه بسبب مغيب بعض أصحابه فى البلد عند هبوب الريح الموافقة لنا وفى ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذى القعدة المذكورة والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضا، وفى الربع الباقى منها فارقنا بر سردانية المذكورة وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتى ميل ومنتهى دور الجزيرة على ما ذكر لنا إلى أزيد من خمسمائة ميل ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب ما فى الطريق والخروج منه يتعذر فى اكثر الأحيان والحمد لله على ذلك وفى ليلة الاربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الاربعاء التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هولا وأعظم كربا وزاد البحر اهتياجا وأزبدت الآفاق سوادا واستشرت الريح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقرية فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء الى الله عز وجل وأقمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور وسرنا فى هذه الحالة كلها ترمح السوارى سيرا سريعا وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ فى السكون البحر فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته ثم تلافى بجميل

رحمته ولطيف رأفته حمدا يكون كفاء لمنته ونعمته وفى هذا الصباح المذكور ظهر
لنا بر صقلية وقد اجتزنا أكثره ولم يبق منه إلا الأقل وأجمع من حضر من رؤساء
البحر من الروم وممن شاهد الاسفار والاهوال فى البحر من المسلمين انهم لم
يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم والخبر عن هذه الحالة يصغر
فى خبرها وبين البرين المذكورين بر سردانية وبر صقلية نحو الاربعمائة ميل
واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتى ميل ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الريح
فلما كان عصر يوم الجمعة الحادى والعشرين من الشهر المذكور أقلعنا من الموضع
الذى كنا أرسينا فيه وفارقنا البر المذكور أول تلك الليلة وأصبحنا يوم السبت
وبيننا وبينه مسافة بعيدة وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذى كان فيه البركان وهو
جبل عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه الثلج وأعلمنا أنه يظهر فى البحر مع
الصحو على أزيد من مسيرة مائة ميل فأخذنا ملججين وأقرب ما نؤمله من البر
إلينا جزيرة اقريطش وهى من جزائر الروم ونظرها إلى صاحب القسطنطينية
وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل والله كفيل بالتيسير والتسهيل
بمنه وفى طول هذه البحيرة جزيرة اقريطش المذكورة نحو من ثلثمائة ميل وفى
ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور وهو الثانى والعشرين من
شهر مارس حاذينا البر المذكور تقديراً لا عياناً وفى صبيحة اليوم المذكور فارقناه
متوجهين لقصدنا وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو
نحوها وفى صبيحة يوم الأربعاء السادس والعشرين منه ظهر لنا البر الكبير
المتصل بالاسكندرية المعروف ببر الغرب وحاذينا منه موضعا يعرف بجزائر
الحمام على ما ذكر لنا وبينه وبين الاسكندرية نحو الأربعمائة ميل على ما ذكر
لنا فأخذنا فى السير والبر المذكور منا يمينا وفى صبيحة يوم السبت التاسع
والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار
الاسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمداً يقتضى المزيد من
فضله وكريم صنعه وفى آخر الساعة الخامسة منه كان ارساؤنا بمرسى البلد ونزولنا
أثر ذلك والله المستعان فيما بقى بمنه فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يوما

ونزلنا فى الحادى والثلاثين لأن ركوبنا إياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ونزولنا عنه فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة وبموافقة السادس والعشرين من مارس والحمد لله على ما من به من التيسير والتسهيل وهو سبحانه المسؤول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود وتعجيل الاياب إلى الوطن على خير وعافية انه المنعم بذلك لا رب سواه وكان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربة من الصبانة

شهر ذى الحجة من السنة المذكورة

أوله يوم الأحد ثانى يوم نزولنا بالإسكندرية فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناص ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مالم يحل وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفى كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلى سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر مالكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الاسباب مادق منها وما جل واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الايدى إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان

الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لازال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستردوا الزكاة على أجمل الوجوه وما لقينا ببلاد هذا الرجل مايلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الاحدوثة التي هي من نتائج الدواوين

ذكر بعض أخبار الاسكندرية وآثارها

فاول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى أنا ماشاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه وأسواقه فى نهاية الاحتفال أيضاً ومن العجيب فى وضعه أن بناءه تحت الارض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الارض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثيرة وعلواً واتساعاً وحسناً مالا يتخيل بالوهم حتى انك تلقى فى بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدرى مامعناها ولا لما كان أصل وضعها وذكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان والله أعلم ويشبه أن يكون ذلك للرصد ومن أعظم ماشاهدناه من عجائبها (المنار) الذى قدوضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه مااهتدوا فى البحر إلى بر الاسكندرية ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع ذرعنا أحد جوانبه الاربع فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة وأما داخله فمرأى هائل اتساعه معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى أن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل وبالجملة لا يحصلها القول والله لا يخليه من دعوة الاسلام ويبقيه وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه طلعنا اليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ وصلينا

فى المسجد المذكور وشاهدنا من شان مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف
ومن مناقب هذا البلد ومفاخرة العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس
الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم
مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعليمه واجراء يقوم به جميع أحواله
واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون
فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ووكل بهم
أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى
يشيرون بها من علاج وغذاء وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى
الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى
الاطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان
عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغاً ما بلغوا
ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله فقد ينتهى إلى ألفى خبزة أو
أزيد بحسب القلة والكثرة هكذا دائماً ولهذا كله أوقاف من قبله حاشى
ما عينه من زكاة العين لذلك وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف
المرسومة شىء أن يرجعوا إلى صلب ماله وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفه
واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتة ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف
الحبسة المعينة من قبله بهذه الوجوه وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين
خاصة وليس منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة وهذا
السلطان الذى سن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها فى
المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه
ومن أعجب ما اتفق للغرباء أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ذكر
أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجه لهم بها رغبه فى المعيشة لانهم
لا يصلون إلا بزاد يقلهم فكاد يؤثر سعى هذا المتنصح فلما كان فى إحدى الايام
خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم

الصحراء المتصلة بطرابلس وهم قد ذهب رسومهم عطشاً وجوعا فسألهم عن وجهتهم واستطلع مالديهم فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام وأنهم ركبوا البر وكابدوا مشقه صحرائيه فقال لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ماكابدوه وبيد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة لوجب أن يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التى أجريناها لهم فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب إلينا بالسعى فى قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقاماته فى الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة ومن الغريب أيضاً فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطف فمنهم المكثر والمقلل فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهى كثيرة جدا لكون منها الاربعة والخمسة فى موضع وربما كانت مركبة بأئمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسه دنانير مصريه فى الشهر وهى عشرة مؤمنية ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر ثم كان الانفصال عنه على بركة الله تعالى وحسن عونه صبيحة يوم الاحد الثامن لذى الحجة المذكورة وهو الثالث لابريل فكانت مرحلتنا منه إلى موضع يعرف بدمنهور وهو بلد مسور فى بسيط من الارض أفيح متصل من الاسكندرية إليه إلى مصر والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة ثم فى اليوم الثانى وهو يوم الاثنين اجزنا النيل بموضع يعرف بصا فى مركب تعديه واتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمه فكان مبيتنا بها وهى قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندته وهى من القرى الفسيحة الآهلة فأبصرنا بها مجمعا حفيلا وخطب الخطيب

بخطبة بليغة جامعة واتصل سيرنا إلى موضع يعرف بسبك وكان مبيتنا بها واجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج والعمارة متصلة والقرى منتظمه في طريقنا كلها (ثم) بكرنا منها يوم الاربعاء بعده فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب على ستة أميال من القاهرة فيه الاسواق الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل البنيان ثم بعده المنية وهو موضع أيضاً حفيل ثم منها إلى القاهرة وهي مدينة السلطان الحفيلة المتسعه ثم منها إلى مصر المحروسة وكان دخولنا فيها أثر صلاة العصر من يوم الاربعاء وهو الحادى عشر من ذى الحجة المذكور والسادس من إبريل عرفنا الله فيها الخير والخيرة وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ولا اخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته انه على ما يشاء قدير وفي يوم الاربعاء المذكور اجتزنا القسم الثانى من النيل فى مركب تعديه أيضاً بموضع يعرف بدجوة وذلك وقت الغداة الصغرى كان نزولنا فى مصر بفندق أبي الثناء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور

ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارهما العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى ببركتها يمسكها الله عز وجل فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على ابن أبي طالب رضى الله عنهما وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الادراك به مجلل بأنواع الديباج محفوف بأمثال العمد الكبار شمعا أبيض ومنه ماهو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أنوار فضة خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الابصار حسنا وجمالا فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع مالا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق

والغرابة حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما المدخل إليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والاستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ومن أعجب ماشاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الاشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك واحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التى عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بمايذيب الاكباد ويصدع الجماد والامر فيه أعظم ومرأى الحال أهول نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم وإنما وقع الالماع بنبذة من صفته مستدلا على ماوراء ذلك إذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه لانه يقف موقف التقصير والعجز وبالجملة أظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه ولا مرأى من البناء اعجب ولا أبدع قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه وفى ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة وهى أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأهل البيت والصحابة رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانباء الغريبة وإنما ذكرنا منها ماأمكنتنا مشاهدته فمنها قبر ابن النبى صالح وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين وقبر آسية امرأة فرعون رضى الله عنها ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين مشاهد أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهى بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان قد وكل بها قوم يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها عجيب والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر

ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق

رضى الله عنهم ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم ومشهدان لابنية الحسن والحسين رضى الله عنهما ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنه ومشهد ابنه يحي بن القاسم ومشهد على بن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم ومشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنه ومشهد يحي بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنه ومشهد محمد ابن عبد الله بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم ومشهد جعفر بن محمد من ذرية على بن الحسين رضى الله عنهم وذكر لنا أنه كان ربيب الامام مالك رضى الله عنه

مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهن

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم ومشهد السيدة زينب ابنة يحي بن زيد بن الحسين بن على رضى الله عنهم ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد رضى الله عنهم وهذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة وهى أكثر من ذلك وأخبرنا أن فى جملتها مشهداً مباركا لمريم ابنة على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو مشهور لكننا لم نعاينه وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة إنما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الاخبار بصحة ذلك والله أعلم بها وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهى بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها منظر عجيب والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر

ذكر مشاهد أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والأئمة والعلماء والزهاد والاولياء المشتهرين بالكرامات رضى الله عنهم أجمعين

والمقيد يبرأ من القطع بصحة ذلك وإنما رسم من أسمائهم ما وجده مرسوماً فى تواريخها وبالجملة فالصحة غالبة لا يشك فيها إن شاء الله عز وجل ، مشهد معاذ ابن جبل رضى الله عنه مشهد عقبة بن عامر الجهنى حامل راية رسول الله ﷺ مشهد صاحب برده ﷺ مشهد أبى الحسن صائغ رسول الله ﷺ مشهد سارية الجبل رضى الله عنه مشهد محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه مشهد أسماء ابنة أبى بكر الصديق رضى الله عنهم مشهد الزبير بن العوام رضى الله عنهما مشهد عبد الله بن حذافة السهمى صاحب رسول ﷺ مشهد ابن حليمة رضيع رسول الله ﷺ

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين

مشهد الامام الشافعى رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته بازائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى وسلطان هذه الجهات صالح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالا وتأنفاً وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه ولقينا هذا الرجل الخبوشانى المذكور تبركا بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالاندلس فألفيناه فى مسجده بالقاهرة وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور وهو بيت ضيق الفناء فدعا لنا وانصرفنا

ولم نلق من رجال مصر سواه مشهد المزنى صاحب الامام الشافعى رضى الله عنه مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنه مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد أصبغ صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد القاضى عبد الوهاب رضى الله عنه مشهد عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن عبدالله بن الحكم رضى الله عنهما مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبى الحسن الدينورى رضى الله عنه مشهد بنان العابد رضى الله عنه مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الابريق وقصته عجيبة فى الكرامة مشهد أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها مشهد الروزبارى رضى الله عنه مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتى رضى الله عنه مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشى رضى الله عنه مشهد ذى النون بن إبراهيم المصرى رضى الله عنه مشهد القاضى الانبارى قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين رضى الله عنه مشهد العروس ولها أثر من الكرامة فى حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه ومشهد الصامت الذى يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة مشهد العصافيرى رضى الله عنه مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارى مشهد الفقيه الواعظ الأفضل الجوهرى ومشاهد أصحابه بإزائه رضى الله عنهم أجمعين مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى مشهد المقرىء ورش مشهد الطبرى مشهد شيبان الراعى والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد أو تتحصل بالاحصاء وإنما ذكرنا منها ما أمكننا مشاهدته وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء وهم الذين استشهدوا مع السارية رضى الله عنهم جميعاً والبسيط المذكور منهم كله للعيان على مثال أسنمة القبور دون بناء ومن العجيب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء والاجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك

وحقق عندنا أن الاجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية فى الشهر وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرية فى كل يوم تتفرق فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه ومما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة إلى مساجد عدة وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى يجمع فيها الدعاء للصحابة رضى الله عنهم وللتابعين ومن سواهم ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضى الله عنهما ويلطف الوعظ ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية وتتفجر العيون الجامدة ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها إيذان بالانصات وفى توسطه أخرى وفى انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالا ويقف بين رايتين سوداويين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا فى أعلاء المنبر ودعاؤه فى هذا التاريخ للامام العباس أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الامام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ثم لمحيي دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً فى الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار العلوج الاسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان والاعلاج يخدمون فيه ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة

حوقة عن ذلك كله ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان

المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة مايليق بهم وبأزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن من يكفلهن بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الانيقة الصنعة الواسعة البنيان جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الارزاق فى كل شهر .

(ومن أعجب) ما حدثنا به المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم اليهم ولم يجعل يدا لاحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا العبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله ومامنها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكن فيها تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الاموال ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بامور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب

الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والايتام خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد وصيف ابتدىء به من حيز النيل بأذاء مصر كأنه جبل ممدود على الارض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الاربعين قوسا من أكبر مايكون من قسى القناطر والقنطرة متصلة بالصحراء التى تفضى منها إلى الاسكندرية له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة أعدادا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ان احتيج إلى ذلك والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه ولاهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية والله أعلم بغيبه ولا إله سواه وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة (الاهرام) القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر المربعة الشكل كأنها القباب المضروبة وقد قامت فى جو السماء ولا سيما الاثنان منها فانهما يغص الجو بهما سموا فى سعة الواحد منها من أحد أركان إلى الركن الثانى ثلثمائه خطوة وست وستون خطوة قد أقيمت من الصخور العظام المنحوته وركبت تركيبا هائلا بديع الالصاق دون أن يتخللها مايعين على إلصاقها محددة الاطراف فى رأى العين وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب لو رام أهل الارض نقض بنائها لأعجزهم ذلك للناس فى أمرها اختلاف فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل ولأحد الكبيرين منها باب يصعد اليه نحو القامة من الارض أو أزيد ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو الخمسين شبرا وطوله نحو ذلك وفى جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة شبه التى تسميها العامة البيلة يقال أنها قبر والله أعلم بحقيقه ذلك ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثانى مائة وأربعون خطوة ودون هذا

الصغير خمسة صغار ثلاثة متصلة والاثنان على مقربة منها متصلان وعلى مقربة من هذه الاهرام بمقدار غلوة صورة غريبه من حجر قد قامت كالصومعة على على صفة آدمى هائل المنظر وجهه إلى الاهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل تعرف بأبى الاهوال وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضى الله عنه وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر ومصلى الجمعة للمالكيين وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة وأكثرها الان مستجدو البنيان بها متصل وهى مدينه كبيرة والاثار القديمه حولها وعلى مقربه منها ظاهرة تدل على عظم اختطاطها فيما سلف وعلى شط نيلها مما يلى غربيها والنيل معترض بينهما قرية كبيرة حفلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الاسواق العظيمة يجتمع اليها ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالى مشرفه وهى مجمع اللهو والنزهه وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنه واستشعار ابتدائه فى شهر يونيه ومعظم انتهائه أغشت وآخره أول شهر أكتوبر وهذا المقياس عمود برخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسمة على أربعه وعشرين قسما تعرف بالاصابع فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعا منغمرة فيه فهى الغاية عندهم فى طيب العام وربما كان العامر فيه كثيراً بعموم الفيض والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعا وهو الاحسن عندهم من الزيادة المذكورة والذى يستحق به السلطان خراجة من بلاد مصر ست عشرة ذراعا فصاعداً وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم والزيادة فى أقسام الزراعة المذكورة ويعلم بها مياومة حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها وإن قصر عن ست عشرة ذراعا فلا مجبا للسلطان فى ذلك العام ولا خراج ذلك لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الاحبار رضى الله عنه وفى صدر

الجيزة المذكورة أحجار رخام قد صورت فيها التماسيح فيقال أن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلا والله أعلم بحقيقة ذلك ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلا للدين والدنيا أزالته رسم المكث المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئذانها عنتا مجحفاً ويسلبون فيها خطة حفف باهظة وربما ورد منهامن لافضل لديه على نفقته أو لانفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة وكان سبعة دنانير ونصف دينار ومن الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس يعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين أو غير ذلك من الامور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدي مكثه بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الإداء فمحى هذا السلطان هذا الرسم اللعين ورفع عوضاً منه مايقوم مقامه من أطعمة وسواها وعين مجيء موضع معين بأمره كذلك وتكفل بتوصل جميع ذلك إلى الحجاز بأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله فعوض من ذلك أجمل عوض وسهل السبيل للحجاج وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع وكفى الله المؤمنين على بدىء هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما فترتب له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام أحد القواعد الخمس من الاسلام حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدعاء له في كل صقع من الاصقاع وبقعة من البقاع والله من وراء مجازاة المحسنين وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملا إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكث فضلا عما سواه فمحى هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الامن ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره

شهر محرم سنة تسعة وسبعين عرفنا الله يمنها وبركتها

استهل هلاله ليلة الثلاثاء وهو اليوم السادس والعشرون من إبريل ونحن بمصر يسر الله علينا مرامنا وفى صبيحة يوم الاحد السادس من محرم المذكور كان انفصالنا من مصر وصعودنا فى النيل على الصعيد قاصدين إلى (قوص) عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمنه ووافق يوم أقلاعنا المذكور أول يوم من مايه بحول الله عز وجل والقرى فى طريقنا متصلة فى شط النيل والبلاد الكبار حسبما يأتى ذكره إن شاء الله فمنها قرية تعرف (بالسكون) فى الضفة الشرقية من النيل مباشرة للصاعد فيه ويذكر أن فيها كان مولد النبى موسى الكليم ﷺ ومنها ألقته أمه فى اليم وهو النيل حسبما ذكر وعاينا أيضاً بغربى النيل ميامنا لنا وذلك كله يوم أقلاعنا المذكور وفى الثانى منه المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق ﷺ وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقص وينقل احجاره إلى القلعة المبتناه الآن على القاهرة وهو حصن حصين المنعة وبهذه المدينة المذكور الطعام التى اختزنها يوسف ﷺ وهى مجوفة على ما يذكر ومنها الموضع المذكور (بمنية ابن الخصيب) وهو بلد على شط النيل ميامنا للصاعد فيه كبير فيه الاسواق والحمامات وسائر مرافق المدن اجتزنا عليه ليلة الاحد الثالث عشر لمحرم المذكور وهو الثامن يوم أقلاعنا من مصر لان الريح سكنت عنا فتربصنا فى الطريق ولو ذهبنا إلى رسم كل موضع يعترضنا فى شطي يمينا وشمالا لضاق الكتب عنه لكن نقصد من ذلك إلى الاكبر الاشهر وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسراً لنا المسجد المبارك المنسوب لابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعلى نبينا وسلم وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود ويقال أن بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل ﷺ ومنها موضع يعرف (بأنصنا) مياسراً لنا وهى قرية فسيحة جميلة لها آثار قديمة وكان فى السالف مدينة عتيقة وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخرة إلى القاهرة فنقل بأسره إليها وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور وهو التاسع من أقلاعنا من مصر

أجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقله وهو بالشط الشرقى من النيل مباشراً للصاعد فيه وهو نصف الطريق إلى (قوص) من مصر إليه ثلاثة عشر بريداً ومنه إلى قوص مثلها ومما يجب ذكره على جهة التعجب أن من حيز مصر فى شط النيل الشرقى مصاعداً للصاعد فيه حائطاً متصلا قديم البنيان منه ماقد تهدم ومنه مابقى أثره يتمادى على الشط المذكور إلى اصوان آخر صعيد مصر وبين إصوان وبين قوص ثمانية بردوالأقوال فى أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف بالجملة فشأنه عجيب ولا يعلم سره إلا الله عز وجل وهو يعرف بحائط العجوز ولها خبر مذكور أظن هذه العجوز هى الساحرة المذكور خبرها فى المسالك والممالك التى لها المملكة بها مدة

ذكر ما استدرك خبره مما كان أغفل

وذلك إنا حللنا الإسكندرية فى الشهر المؤرخ أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما بروزا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الاكباد إشفاقا وجزعا وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب الموضع التى لهم من بحر القلزم ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ولما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا نشاءها وتأليفها ورفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج وانتهوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيه مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص إلى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الاسلام ولا انتهى رومى إلى ذلك الموضع قط ومن عظمهما حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك أنهم

كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذلك على ألسنتهم فاخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلولو مع انجاد من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم وكانت آية من آيات العنايات الجبارية وأدركوهم عن مدة طويلة كان بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله . وقتلوا وأسروا وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم إلى مكة والمدينة وكفى الله بجميل صنعه الاسلام والمسلمين أمرا عظيما والحمد لله رب العالمين (رجع الذكر) ومن المواضع التى اجتزنا عليها فى الصعيد بعد جبل المقلة التى ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر إلى قوص حسبما تقدم ذكره بموضع يعرف (بمنفلوط) بمقربة من الشط الغربى ميامناً للصاعد فى النيل فيه الاسواق وسائر ما يحتاجون إليه من المرافق فى نهاية من الطيب فى الصعيد مثلها وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته قد اشتهر عندهم بذلك فالتجار يصعدون فى المراكب لاستجلابه ومنها مدينة (أسيوط) وهى من مدن الصعيد الشهيرة بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال وهى جميلة المنظر حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق ومنها موضع يعرف (بأبى تيج) وهو بلد فيه الاسواق وسائر مرافق المدن وهو فى الشط الغربى من النيل منها مدينة أخميم وهى أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقى النيل وعلى شطه قديمة الاختطاط عتيقة الوضع فيها مسجد ذى النون المصرى ومسجد داود أحد الصالحين المشتهرين بالخير والزهادة ومنها مسجدان مرسومان بالبركة دخلنا إليها متبركين بالصلاة فيها وذلك يوم السبت التاسع عشر لمحرم المذكور وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهديين من نصارى القبط ومن أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت

سورها طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا وسعته مائة وستون ذراعا يعرف عند أهل هذه الجهة بالبردا وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية حاشى حيطانه دور كل سارية منها خمسون شبراً وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبراً ورؤسها فى نهاية من العظم والإتقان قد نحتت نحتاً غريبا فجاءت مركنة بديعة الشكل كان الخراطين تناولوها وهى كلها مزركشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها والسوارى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التى تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت من أعظمها ما كنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا وعشرة أشبار عرضا وثمانية أشبار ارتفاعا وسقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة ا المنتظمة ببديع الألصاق فجاءت كأنها فرش واحد وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والاصبغة الغريبة حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش والتصاوير على أنواع فى كل بلاطة من بلاطاته فمنها ماقد جللته طيور لصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران ومنها ماقد جللته تصاوير أدمية رائقة المنظر رائعة الشكل قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها كامساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس أو إشارة شخص إلى آخر بيده أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تتأتى العبارة لاستيفائه داخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير كلها مختلفات الاشكال والصفة منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين يستشعر الناظر إليها رعباً ويتملأ منها عبرة وتعجبا وما فيه مغرز اشفاً ولا ابرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لايفهم قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك مالا يتأتى فى الرخو من الخشب فيحسب الناظر استعظاماً له أن عمل الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه سبحان الموجد للعجائب لاإله سواه وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة وهو فى نهاية الارتفاع فيحار

الوهم فيها ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالبج ماتصل فيه الجماعات من الناس ولايهدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى وعرض حائطه ثمانية عشر شبراً وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآه إحدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ولا ينتهى إليها الحد وإنما وقع الالماع بنبذة من وصفه دلالة عليه والله محيط بالعلم فيه أو الخبير بالمعنى الذى وضع له فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الأخبار عنه بعض غلوان كل مخبر عنه لو كان قسا بيانا أو سحبانا يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شىء علما لاإله سواه وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق * للحجاج والمسافرين كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وادخال الأيدى إلى أوساط التجارة فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير مايقبح سماعه وتستبشع الاحدوثة عنه كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أومايدرك النصاب عنها حسبما ذكرناه فى ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب وربما ألزموهم الايمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه فيقع الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ولجاهد المتناول له فإن جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الازهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين ولو شاء الله لكانت هذه الخطة مندوحة فى اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه من ذوى البضائع فى التجارات مع مراعاة رأس كل حول الذى هو محل الزكاة ويتجنب اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذى قد شمل البلاد عدله وسار فى الآفاق ذكره ولا يسعى فيما يسىء الذكر ممن

قد حسن الله ذكره ويقبح المقالة فى جانب من أجمل الله المقالة عنه ومن (أشنع ما شاهدناه) من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة فى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم الذين لا يحتويان سوى على الزاد شيئا غيب عليه من بضاعة أو مال وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث الملعنة وقد نهى الله عن التجسيس فكيف عن كشف لما يرجى بستر الصون دونه من حال لايريد صاحبها أن يطلع عليها اما استحقاراً أو استنفاسا دون بخل بواجب يلزمها والله الآخذ على أيد هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه إن شاء الله ومن المواضيع التى اجتزنا عليها بعد إخميم المذكورة موضع منشأة السودان على الشط الغربى من النيل هى قرية معمورة ويقال انها كانت فى القدم بديعة كبيرة وقد قام امامهذه القرية بينها وبين النيل رصيف عال من الحجارة كأنه الصور يضرب فيه النيل ولا يعلوه عند فيضه ومده فالقرية بسببه فى أمن من آنية ومنها موضع يعرف (بالبلينة) وهى قرية حسنة كثيرة النخل بالشط الغربى من النيل بينها وبين قوص أربعة برد ومنها موضع يعرف (بدشنة) بالشط الشرقى من النيل وهى مدينة مصورة فى جميع مرافق المدن وبينها وبين قوص بريدان ومنها موضع بغربى النيل وعلى مقربة من (شطه) يعرف بدندرة وهى مدينة من مدن الصعيد كثيرة النخل مستحسنة المنظر مشتهرة بطيب الرطب بينها وبين قوص بريد وذكر لنا أن فيها هيكلا عظيما وهو معروف عند أهل هذه الجهات بالبربا حسبما ذكرنا عند ذكر اخميم وهيكلها يقال أن هيكل دندرة أحفل منه وأعظم ومنها مدينة (قنا) وهى من مدن الصعيد بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان حفيلة ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة صحت بذلك الأخبار عنهن وكذلك نساء (دشنة) المذكورة قبيل هذا وهذه المدينة المذكورة فى الشط الشرقى من النيل وبينها وبين قوص نحو البريد ومنها

(قفط) وهى مدينة بشرقى النيل وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان وضع ثم كان الوصول إلى (قوص) يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ وهو التاسع عشر من مايو فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يوما ودخلنا قوص فى التاسع عشر وهذه المدينة حفيلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لانها محط للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون بصحراء عيذاب وإليها انقلابهم فى صدرهم من الحج وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور .

شهر صفر عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاربعاء وهو الخامس والعشرين من شهر مايو ونحن بقوص نروم السفر إلى عيذاب يسر الله علينا مرامه بمنه وكرمه وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه وهو السادس من يونيو أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه إلى المبرز وهو موضع بقبلى البلد وعلى مقربة منه فسيح الساحة محدق بالنخيل يجتمع فيه رحال الحاج والتجار وتشدفيه ومنه يستقلون ويرحلون وفيه يوزن مايحتاج إلى وزنه على الجمالين ، فلما كان اثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجر فبتنا به وأصبحنا يوم الثلاثاء وبعده مقيمين به بسبب تفقد بعض الجمالين من العرب لبيوتهم وكانت على مقربة منهم وفى ليلة الاربعاء الخامس عشر منه ونحن بالحاجر المذكور خسف القمر خسوفا كليا أول الليل وتمادى إلى هدوء منه ثم أصبحنا يوم الاربعاء المذكور ظاعنين وقلنا بموضع يعرف (بقلاع الضياع) ثم كان المبيت بموضع يعرف (بمحط اللقيطة) كل ذلك فى صحراء لا عمارة فيها ثم غدونا يوم الخميس فنزلنا على ماء ينسب للعبدين

ويذكر انهما ماتا عطشاقبل أن يرداه فسمى ذلك الموضع بهماوقبراهما به رحمهما الله ثم تزودنا منه الماء لثلاثة أيام وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه وسرنا فى الصحراء نبيت منه حيث جن علينا الليل والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة والمفازة معمورة آمناً . فلما كان يوم الاثنين الموفى عشرين منه نزلنا على ماء بموضع يعرف (بدنقاش) وهى بئر معينة يرد فيها من الانعام والانام ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل ولا يسافر فى هذه الصحراء إلا على الابل لصبرها على الظماء أحسن ما يستعين عليها ذوو الترفية الشقاديف وهى أشباه المحامل وأحسن أنواعها اليمانية لانها كالاشاكيز اسفرية مجلدة متسعة يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ويوضع على البعير ولها أذرع قد جفت بأركانها يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً فى وطائه ومتكأ ويتناول مع عديله مايحتاج اليه من زاد وشواه ويطالع متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكها واجماما للنفس لاعبه وبالجلة فإنها مريحة من نصب السفر وأكثر المسافرين يركبون الابل على احمالها فيكابدون من مشقة سموم الحر عنتاً ومشقة وفى هذا الماء وقعت بين بعض جمالى العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب وضمانها وهم من بلى من إفخاذ قضاعة وبين بعض الاغزاز بسبب التزاحم على الماء مهاوشة كادت تفضى إلى الفتنه ثم عصم الله منها والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين إحداهما تعرف بطريق العبدين وهى هذه التى سلكناها وهى أقصد مسافة والاخرى طريق (دون) ... وهى قرية على شاطىء النيل ويجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش المذكور ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ورفعنا إلى ماء بموضع يعرف بشاغب فوردناه ضحوة يوم الاربعاء الثانى والعشرين لصفر المذكور وهذا الماء ثماد يحفر عليه فى الارض فتسمح به قريبا غير بعيد ثم رحلنا منه سحر يوم الخميس بعده

وتزودنا الماء لثلاثه أيام إلى ماء بموضع يعرف بامتان وتركنا طريق الماء بموضع يعرف با ... يسارا إلا أنه زعاق وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم والطريق عليه وعر للابل فلما كان ضحوة يوم الاحد السادس والعشرين لصفر المذكور نزلنا بأمتان المذكور وفى هذا اليوم كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل له الحمد وله الشكر على مايسر لنا من ذلك وهذا الماء بأمتان المذكور وفى بئر معينة قد خصها الله بالبركة وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها فيلتقى فيها من دلاء الوارد مالا يحصى كثرة فتروى القوافل النازل عليها على كثرتها وتروى من الابل البعيدة إلا ظمأ مالو وردت نهراً من الانهار لأنضبته وأنزفته ورمنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن إلى ثم من اليمن إلى عيذاب وأكثر ماشاهدنا من ذلك إحمال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرته أنه بوازى التراب قيمة ومن عجيب ماشاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقى بقاعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لاحارس لها تترك بهذه السبيل أما لاعياء الابل الحاملة لها أوغير ذلك من الاعذار وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس ثم كان رفعنا من أمنان المذكور ضحوة يوم الاثنين بعد الاحد المذكور ونزلنا على ماء بموضع يعرف بمجاج بمقربة من الطريق ظهر يوم الاثنين المذكور ومنه تزودنا الماء لاربعة أيام إلى ماء بموضع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب ومن هذه الرحلة المجاجيه يسلك الوضح وهى رملة ميثاء تتصل بساحل بحر جده يمشى فيها إلى عيذاب إن شاء الله وهى فى أفيح من الارض مد البصر يميناً وشمالا وفى ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضح

شهر ربيع الأول عرفنا الله بركته

استهل هلال ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر يونيه ونحن بآخر الوضح على نحو ثلاث مراحل من عيذاب وفى وقت الغداة من يوم الجمعة المذكور كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء على مرحلتين من عيذاب وبهذا الموضع كثير من شجر العشر وهو شبيه شجر الاترج لكن لاشوك له وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة وهو فى بئر غير مطوية وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطى ماءها فرام الجمالون حفرها واستخراج ماءها فلم يقدروا على ذلك وبقيت القافلة لاماء عندها فأسربنا تلك الليلة وهى ليلة السبت الثانى من الشهر المذكور فنزلنا ضحوة على ماء الخبيب وهو بموضع بمرأى العين من عيذاب يستقى منها القوافل وأهل البلد ويعم الجميع وهى بئر كبيرة كانها الجب الكبير فلما كان عشى يوم السبت دخلنا عيذاب وهى مدينة على ساحل بحر جدة غير مصوره أكثر بيوتها الاخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص وهى من أحفل مراس الدنيا بسبب أن الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائده إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وهى فى صحراء لانبات فيها ولا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المونة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية والتى كانت قبل اليوم التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها ولهم ايضا من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهى المراكب فيجتمع لهم فى ذلك مال كثير فى حملهم إلى جده وردهم وقت انفضاضهم من آداء الفريضة وما من أهلها ذوى اليسار إلا من له الجلبة والجلبات فهى تعود عليهم برزق واسع سبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها لاإله سواه وكان نزولنا فيها بدار تنسب لموح أحد قوادها الحبشيين الذين تاثلوا بها الديار والرباع والجلاب وفى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ فى جزائر على مقربة منها وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فى هذه الاحرف وهو شهر يونيو

العجمى والشهر الذى يتلوه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزواريق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ويستخرجونه فى اصداف لها أزواج كانها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة فاذا شقت ظهرت الشقتفن من داخلها كانها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهو قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق فسبحان مقدرها لاإله سواه لكنهم ببلدة لارطب فيها ولا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم فسبحان الله المحبب الاوطان إلى أهلها على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنسان والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الاقل منهم ممن يسم الله عز وجل وذلك أن الرياح تلقيهم على الاكثر فى مراسى بصحارى تبعد منها مما يلى الجنوب فينزل إليهم البجاة وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم عطشاً وحصلوا على مايتخلفه من نفقة أو سواها وربما كان من الحاج من يتعسف تلك المجهلة على قديمه فيضل ويهلك عطشاً والذى يسلم يصل منهم إلى عيذاب كانه منشر من كفن شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قدوصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة آية للمتوسمين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الاقل والجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الإنشاء لايستمل فيها مسمار البنة إنما هى مخيطة بامراسى من القنبارى وهو قشر جوز النار جيل يدرسون إلى أن يتخيط ويفتلون منه إمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فية ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر ولذلك لايصرفون فيه المركب

المسمارى وعود هذه الجلاب بجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبارى المذكور ومن أعجب أمر هذه الجلاب إن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه متناسب فى اختلال البنية ووهنها فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لاإله سواه ولأهل عيداب فى الحجاج أحكام الطواغيث وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب وهى المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كانها أقفاص الدجاج المملوءة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ويقولون علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح وهذا مثل متعارف بينهم فأحق بلاد الله بحسبه يكون السيف درتها هذه البلدة والأولى بمن يمكنها ذلك أن لا يراها وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ويصل مع أمير الحاج البغدادى وإن لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخرا عند انفضاض الحاج يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد ومنها إلى عكة فان شاء دخل منها إلى الاسكندرية وإن شاء الله إلى صقلية أو سواهما ويمكن أن يجد مركبا من الروم يقع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما بقى بعيذاب ونحوها وأهلها الساكنين بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصله بها وربما وصل فى بعض الأحيان واجتمع بالوالى الذى فيها من العز إظهاراً للطاعة ومستنابه مع الوالى فى البلد والفوائد كلها له إلا البعض منها وهذه الفرقة من السودان المذكورين من فرقة أضل من الانعام سبيلا وأقل عقولا لادين لهم سوى التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للاسلام ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالايرضى ولايحل ورجالهم ونسائهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لايسترون وبالجملة فهم أمة لاخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور وهو الثامن عشر يوليه ركبنا الجلبة للعبور إلى جدة فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على

بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول فكانت مدة المقام بعيذاب حاشى يوم الاثنين المذكور ثلاثة وعشرين يوم محتسبة عند الله عز وجل لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى إلى النفس منه فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام فما ظلم من غنى عن هذه البلدة

بقوله : ٭ ماء زعاف وجو كله لهب ٭

فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى البيت العتيق زاده الله تشريفاً وتكريما وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة ومما لهج الناس بذكر قبحائحها حتى يزعمون أن سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذ سجنا للعفارتة أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام وهى السبيل التى من مصر على عقبة أيلة إلى المدينة المقدسة وهى مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يساراً لكن للافرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه والله ينصر دينه ويعز كلمته بمنه وكرمه فتمارى سيدنا فى البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة المهب فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز لمع برق من جهة البر المذكور وهى جهة الشرق ثم نشأ نور أظلم له الافق إلى أن كسا الآفاق كلها وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراءه وتمادى عصوف الرياح واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق فلم ندرى الجهة المقصودة منها إلى أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع إلى أسفل الدقل وهو الصارى وأقمنا ليلتنا تلك فى هول يؤذن باليأس وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة إلى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح . . . فسكن الريح وأقشع الغيم وأضحت السماء ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله وهى شرقا من جدة زعم ربان المركب وهو الريس أن بين تلك الجبال

التى لاحت لنا وبر جدة يومين والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير لعزته وكرمه فجرينا يومنا ذلك وهو يوم الخميس المذكور بريح رخاء طيبة ثم أرسينا عشية فى جزيرة صغيرة فى البحر على مقربة من البر المذكور بعد أن لقينا شعابا كثيرة يكثر فيها الماء ويضحد علينا فتخللنا أثناءها على حذو وتحفظ وكان الربان بصيرا بصنعته حازقا فيها فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ونزلنا إليها وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع الاول المذكور وأصبح الهواء راكداً والريح غير متنفسة إلا من الجهة التى لا توافقنا فأقمنا بها يوم الجمعة المذكورة فلما كان يوم السبت الموفى ثلاثين تنفست الريح بعض تنفس فأقلعنا بذلك النفس نسير سيرا رويدا وسكن البحر حتى خيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم ولله الحمد والشكر على ذلك

شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت بالجزيرة المذكورة ولم يظهر تلك الليلة للابصار بسبب النوء لكن ظهر فى الليلة الثانية كبيرا مرتفعا فتحققنا اهلال ليلة السبت المذكور وهو الثالث والعشرين من شهر يولية وفى عشى يوم الاحد ثانيه أرسينا بمرسى يعرف بأبحر وهو على بعض يوم من جدة وهو من أعجب المراسى وضعا وذلك أن خليجا إلى البحر يدخل إلى البر والبر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجبال منه فى قرارة مكنة هادية فلما كان سحر يوم الإثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة والله الميسر لا رب سواه فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة وهى بمرأى العين منا وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها ودخول هذا المرسى صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالجلبة أثناءها

أمرا ضخما يدخلونها على مضائق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه وفى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرين من شهر يوليه كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه فى تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه وربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللنا فنسمع لها هدأ يؤذن باليأس فكنا فيها نموت مرارا ونحيي مرارا والحمد لله على ما من به من العصمة وتكفل به من الوقاية والكفاية حمدا يبلغ رضاه ويستهدى المزيد من نعماء بعزته وقدرته لا إله سواه وكان نزولنا فيها بدار القائد على وهو صاحب جدة من قبل أمير مكة المذكور فى صرح من تلك الصروح الخصوصية التى يبنونها فى أعالى ديارهم ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها وعند احتلالنا جدة المذكورة عاهدنا الله عز وجل سرورا بما أنعم الله به من السلامة إلا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون إلا أن طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق والله ولى الخيرة فى جميع ما يغضبه ويسنيه بعزته (وجدة) هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفى أعلاها بيوت من الاخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر ان كان منزل حواء أم البشر صلى الله عليها وسلم عند توجهها إلى مكة فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله والله أعلم بذلك وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ومسجد آخر له ساريتان من خشب الابنوس ينسب أيضاً إليه رضى الله عنه ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد

رضى الله عنه وأكثر سكان هذه البلدة مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون رضى الله عن سلفهم الكريم وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً ويستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن من إكراء جمال إن كان له أو مبيع لبن أو ماء إلى غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه وربما تناولوا ذلك نسائهم الشريفات بأنفسهن فسبحانه المقدر لما يشاء ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا جعلنا الله مما يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وبخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها ويذكر انها كانت من مدن الفرس وبها جباب منقورة فى الحجر الصلد تتصل بعضها ببعض تفوت الأحصاء كثرة هى داخل البلد وخارجه حتى أنهم يزعمون أن التى خارج البلد ثلثمائة وستون جباً ومثل ذلك داخل البلد وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء وعجائب الموضوعات كثيرة فسبحان المحيط علما بها وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى وهم يعتقدون فى الحاج مالا يعتقد فى أهل الذمة قد صيروهم من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ينتهبونهم انتهابا ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا فالحاج معهم لا يزال فى غرامة ومؤنة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليدهم ولا يلين شديدهم فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها إلى مكثر أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم بسبب المكوس واتفق لنا من ذلك إن وصلنا جدة فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور فورد أمره بأن يضمن الحاج بعضهم بعضا ويدخلوا إلى حرم الله فإن ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج هذا لفظه كان حرم الله ميراث بيده محللا له أكتراؤه من الحاج فسبحان مغير السنن

ومبدلها والذى جعل له صلاح الدين بدلاً إلا من مكث الحاج ألفا دينار اثنان وألفا إردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلى عندنا حاشى اقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن بهذا الرسم المذكور ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام فى حروب له هناك مع الافرنج لما صدر عن هذا الأمير المذكور ماصدر فى جهة الحاج فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من فك عرية الإسلام واستحلال أموال الحاج ودمائهم فمن يعتقد من فقهاء أهل الاندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف وغرر والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال فكيف وبين الله الآن بأيدى أقوام اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سبباً إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين وحزب الله أولى الحق والصدق والذابين عن حرم الله عز وجل والغائرين على محارمه والجادين فى اعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته أنه على ما يشاء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لا بنيان لها وماسوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه الا عند الموحدين أعزهم الله فهم آخر أئمة العدل فى الزمان وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه لو كان له أعوان على الحق مما أريد الله عز وجل يتلافا المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه ومن عجيب ماشاهدناه

فى أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد واستشعار أهلها لملكتها إن أكثر أهلها بل الكل يرمزون بذلك رمزاً خفياً حتى يؤدى ذلك بهم إلى التصريح وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدى بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن فعاينوها صحيحة فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيق البناء على أحدهما تمثال ناظر إلى جهة المغرب وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظراً إليها على ديار مصر وسواها وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى وحدثان مايؤملون من ملكه أهله لهم إن شاء الله ولم يبق إلا الكائنة سعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد فهم يستطلعون بها سبحاً جلياً ويقطعون بصحتها ويترقبونها ارتقاب الساعة التى لايمترون فى إنجاز وعدها شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعا أمراً غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق ودعوته الصدق ونمى إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعماء هاقد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمره وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة والله عز وجل يبسطها من كلمة ويعليها من دعوة إنه على مايشاء قدير وفى عشى يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور وهو الثانى من شهر أغسطس كان انفصالنا من جدة بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا وثبتت أسماؤهم فى زمام عند قائد جدة على بن موفق حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على رضوان الله عليهما لكنه مما يعمل غير صالح فليس من أهل سلفه الكريم رضاهم واسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا (القرين) مع طلوع الشمس وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالهم ومنه يحرمون وبه يريحون اليوم الذى يصبحونه فإذا

كان فى عشية رفعوا واسروا ليلتهم وصبحوا الحرم الشريف زاده الله تشريفاً وتعظيما والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسرون منه إلى (جدة) وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة والحاج بسببها لايحتاجون إلى تزود الماء غير ليلة إسرائهم إليه فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين فلما حان العشى رحنا منه محرمين بعمرة فأسرينا ليلتنا تلك فكان وصولنا مع الفجر إلى قريب الحرم فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ودخلنا مكة حرسها الله فى الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور وهو الرابع من شهر اغشت على باب العمرة وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه والليل قد كشف عنا قناعه والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان والالسنة تضج بالدعاء وتبتهل إلى الله بالرغباء فتارة تشتد التلبية وآونة تتضرع بالأدعية فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العقد فهى عروس ليالى العمر وبكر بنيات الدهر إلى أن وصلنا فى الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم ومبوأ الخليل إبراهيم فألفينا الكعبة البيت الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن فطفنا طواف القدوم ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم وهو بين الحجر الأسود والباب وهو موضع استجابة الدعوة ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلقنا وأحللنا فالحمد لله الذى كرمنا بالوفادة وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة إلى الحلال قريبا من الحرم ومن باب السدة أحد أبوابه فى حجرة كثيرة المرافق المسكنية مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة

شهر جمادى الاولى عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى والعشرين لاغشت وقد كمل لنا بمكة شرفها الله

تعالى ثمانية عشر يوما فهلال هذا الشهر أسعد هلال اجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا طلع علينا وقد تبوأ مقعد الجدار الكريم وحرم الله العظيم والقبة التى فيها مقام إبراهيم مبعث الرسول ومهبط الروح الأمين جبريل بالوحى والتنزيل فأوزعنا الله شكر هذه المنة وعرفنا قدر ماخصنا به من نعمته وختم لنا بالقبول وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ولطيف التيسير والتسهيل بعزته وقدرته لا إله سواه

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه

البيت المكرم له أربعة أركان وهو قريب من التربيع وأخبرنى زعيم الشيبين الذين إليهم سدانة البيت وهو محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن . . . . من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار صاحب رسول الله ﷺ وصاحب حجابة البيت أن ارتفاعه فى الهواء من الصفح الذى يقابل باب الصفا وهو من الحجر الأسود إلى (الركن) اليمانى تسع وعشرون ذراعاً وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب الصطح إلى الميزاب وأول أركانه الركن الذى فيه الحجر الأسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به والبيت المكرم عن يساره وأول ما يلقى بعده الركن العراقى وهو ناظر إلى جهة الشمال ثم الركن الشامى وهو ناظر إلى جهة الغرب ثم الركن اليمانى وهو ناظر إلى جهة الجنوب ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق وعند ذلك يتم شوطاً واحداً وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر الأسود وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار محققة وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف وهو من فضة مذهبة بديع الصنعة رائق الصفة يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً للمهابة التى كساها الله بيته وعضادتاه كذلك والعتبة العليا كذلك أيضاً وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز فى سعته مقدار

شبرين وللباب مقازتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبراً وغلظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج معترضة الطول وبين كل عمود وعمود أربع خطا وهى على طول البيت متوسطة فيه فأحد الاعمدة وهو أولها يقابل نصف الصفح الذى يحف به الركنان اليمانيان وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا والعمود الثالث وهو آخرها يقابل الصفح الذى يقابله الركنان العراقى والشامى ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة الثخينة يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها وهى تحف بالجوانب الأربعة وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى وسقف البيت مجالل بكساء من الحرير الملون وظاهر الكعبة كلها من الأربعة جوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر وسداها قطن وفى أعلاها رسم بالحرير الأخضر فيها مكتوب إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة الآية واسم الامام الناصر لدين الله فى سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل فى هذه السطور من الصنعة الغريبة التى يبصرة أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للناصر العباسى المذكور الآمر بإقامتها وكل ذلك لا يخالف لونها وعدد السطور من الجوانب الاربعة أربعة وثلاثون سطراً وفى الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر وله خمسة مضاو وعليها زجاج عراقى بديع النقش أحدها فى وسط السقف ومع كل ركن مضوى والواحد منها لا يظهر لانه تحت القبو المذكور بعد وبين الاعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر وإحداها من ذهب وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الاسود وفيه صندوقان فيهما مصاحف وقد علاهما فى الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة وفى الركن الذى يليه وهو اليمانى كذلك لكنهما انقلعا وبقى العود الذى كانا ملصقين عليه وفى الركن الشامى كذلك وهما

باقيان وفى جهة الركن العراقى كذلك وعن يمينه الركن العراقى وفيه باب يسمى بباب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت المكرم وقد قام له قبو فهو متصل بأعلى سطح البيت داخله الادراج وفى أوله البيت المحتوى على المقام الكريم فنجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان وفى سعة صفحيه قامتان وهو محتو على الركن العراقى بنصفين من كل سطح وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بسرق الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع وهذا المقام الكريم الذى داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار وسعته مقدار شبرين وأعلاه أوسع من أسفله فكأنه ولله التنزيه والمثل الأعلى كانون فخار كبير أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله وصب لنا فى أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه نفعنا الله به وأثرهما بين وأثر الاصابعة المكرمة المباركة فسبحان من ألان لواطئه حتى فيه ولا تاثير الغدم فى الرمل الوثير سبحان جاعله من الآيات البينات ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من الذهول ويطيش الافئدة والعقول فلا تبصر الا لحظات خاشعة وعبرات هامعة ومدامع باكية وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية وبين الباب الكريم والركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبراً وعرضه خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة غضارة الباب التى تلى الركن المذكور آخذاً الى جهته وهو علامة موضع المقام مدة إبرهيم عليه السلام إلى أن صرفه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقى الحوض المذكور مصبا لماء البيت اذا غسل وهو موضع مبارك يقال انه روضة من رياض الجنة والناس يزدحمون للصلاة فيه وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة وموضع المقام الكريم هو الذى يصلى خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى وهو إلى الباب أميل بكثير وعليه قبة خشب فى مقدار القامة أو أزيد مركبة محددة بديعة النقش سعتها من ركنها الواحد إلى الثانى أربعة أشبار وقد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله تكفيف من حجارة نصبت على

حرف كالحوض المستطيل فى ارتفاعه نحو شبر وطوله خمس خطا وعرضه ثلاث خطا وأدخل المقام الى الموضع الذى وصفناه فى البيت الكريم احتياطا عليه بينه وبين صفح البيت الذى يقابلة سبع عشرة خطوة والخطوة كلها ثلاثة أشبار ولموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم فإذا كان فى أشهر الحج وكثر الناس ووصل العراقيون والخراسانيون رفعت قبة الخشب ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل للادزحام ومن الركن الذى فيه الحجر الاسود الى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا مخففة ومن الحجر الاسود الى الارض ستة أشبار فالطويل يتطاطى إليه والقصير يتطاول إليه ومن الركن العراقى إلى الركن الشامى ثمانية وأربعون شبراً مخففة وذلك داخل الحجر وأما من خارج فمنه اليه أربعون خطوة وهو مائة وعشرون شبراً مخففة ومن خارجه يكون الطواف ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ما من الركن الاسود الى العراقى لانه الصفح الذى يقابله ومن اليمانى الى الاسود ما من العراقى إلى الشامى داخل الحجر لان الصفح الذى يقابله وموضع الطواف مفروش بحارة مبسوطة كانها الرخام حسنا منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا فى الجهة التى تقابل المقام فإنها إمتدت إليها حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة وبين الركن العراقى وبين أول جدار الحجر مدخل إلى الحجر سعته أربع خطا وهى ست أذرع محققة كلناها باليد وهذا الموضع الذى لم يحجر عليه هو الذى تركت قريش من البيت وهو ست أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح ويقابلها عند الركن الشامى مدخل آخر على مثال تلك السعة وبين جدار البيت الذى تحت الميزاب والذى يقابله من جدار الحجر على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبراً وسعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة وهى ثمانية وأربعون شبراً وهو يعنى دور الجدار رخام كله مجزع بديع الالصاق . . . قضبان صفر

مذهبة وضع منها فى صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض وصفات محاريب فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولألا يخيل للناظر إليها أنها ذهب يرتمى بالأبصار شعاعه وفى ارتفاع جدار هذا الحجر الرخام خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع فى دور الكعب إلى دور الدينار إلى مافوق ذلك ثم الصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الاتقان رائق الترصيع والتجزيع رائع التركيب والرصف يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها مايقيد بصره حسناً فكأنه تجلية فى أزهار مفروشة مختلفات الالوان إلى محاريب قد انعطفت عليها الرخام انعطاف القسى وداخلها هذه الاشكال الموصوفة والصنائع المذكورة وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب مالا يحدثه الصنع باليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين فرآهما عجيب أمر بصنعته على هذه الصفة امام المشرق أبو العباس أحمد الناظر بن المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى رضى الله عنه ويقابل الميزاب فى وسط الحجر وفى نصف جداره الرخامى رماخة قد نقشت أبدع نقش وحفت بها طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيا فيه مكتوب مما أمر بعمله عبدالله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة والميزاب فى أعلا الصفح الذى على الحجر المذكور وهو من صفر مذهب قد خرج إلى الحجر بمدار أربعة أذرع وسعته مقدار شبر وهذا الموضع تحت ميزاب هو أيضاً مظنة إستجابة الدعوة بفضل الله تعالى وكذلك الركن اليمانى ويسمى المستجار مايليه وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامى وتحت الميزاب فى صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسمعيل ﷺ وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح من

لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع وهى أشبه الأشياء بالنكت تبق فى البيدق من حل الذهب فيه والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر رضى الله عنهما وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف يتبرك الناس بالصلاة فى هذين الموضعين من الحجر وحق لهم ذلك لانهما من البيت العتيق وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما وبين القبرين المقدسقين سبعة أشبار وقبه بير زمزم تقابل الركن الاسود ومنها إليه أربع وعشرون خطوة والمقام المذكور الذى يصلى خلفه عن يمين القبة ومن ركنها إليه عشر خطوات وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البياض وتنور البئر المباركة فى وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم وعمقها إحدى عشر قامة حسبما ذرعناه وعمق الماء سبع قامات على مايذكر وباب القبه ناظر إلى الشرق وباب قبه العباس وقبه اليهوديه ناظران إلى الشمال والركن من الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبه المنسوبة إلى اليهودية يتصل بالركن الايسر من الصفح الاخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية فبينهما هذا القد من الانحراف وتلى قبه بئر زمزم من ورائها قبة الشراب وهى المنسوبة للعباس رضى الله عنه وتلى هذه القبة العباسية على إنحراف عنها قبة تنسب لليهوديه وهاتان القبتان مخزنان لاوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية لانها كانت سقاية الحاج وهى حتى الان يبرد فيها ماء زمزم ويخرج مع الليل ليسقى الحاج فى قلال يسمونها الدوارق كل دورق منها ذو مقبض واحد وتنور بئر زمزم من رخام قد الصق بعضه ببعض الصاقا لاتحيله الايام وأفرغ فى أثنائه الرصاص وكذلك داخل التنور وحفت به أعمدة الرصاص الملصقة اليه ابلاغا فى قوة لزه ورصه اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبراً وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها نحو شبرين وارتفاعها عن

الارض خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس اليها ويتوضؤن عليها والحجر الاسود المبارك ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق ولا يدرى قدر ما دخل فى الركن وقيل أنه داخل فى الجدار بمقدار ذراعين وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد وفيه أربع قطع ملصقة ويقال أن القرمطى لعنه الله كان الذى كسره وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل فيبصر الرائى من ذلك منظر عجيباً هو قيد الأبصار للحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم إن لا يقلع فمه عنه وذلك خاصة من خواص العناية الإلهيه وكفى أن النبى ﷺ قال أنه يمين الله فى أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق اليه بمنه وفى القطعة الصحيحة من الحجر مما يلى جانبه الذى يلى يمين المستلم له إذا وقف مستقبله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة وفى هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر إليها يجلو البصر فيجب على المقبل أن يقصد لتقبيله موضع الشامة المذكورة مااستطاع والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ذرعها فى الطول اربعمائة ذراع وفى العرض ثلثمائة ذراع فيكون تكسيره مخففاً ثمانية وأربعين مرجعاً وما بين البلاطات فضاء كبير وكان على عهد رسول الله ﷺ صغيراً وقبة زمزم خارجة عنه وفى مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة فى الأرض منها كان حد الحرم أولا وبين رأس السارية وبين الركن الشامى المذكور اثنتان وعشرون خطوة والكعبة فى وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرقى والجنوب والشمال والغرب وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسى اربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية حاشى الجصية التى منها فى دار الندوة وهى التى زيدت فى الحرم وهى داخلة فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضاؤها متسع يدخل من البلاط إليه ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها النساخون والمقرؤن وبعض أهل صنعة الخياطة والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل

العلم وفى جدار البلاط الذى يقابله أيضاً تحت حنايا على تلك الصفة وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب فيه أيضاً سوار جصية ووجدت بخط أبى جعفر بن على الفنكى القرطبى الفقيه المحدث أن عدد سواريه أربعمائة وثمانون لأنى لم أحسب التى خارج باب الصفا وللمهدى محمد ابن أبى جعفر المنصور العباسى فى توسعة المسجد الحرام والتأنق فى بنائه آثار كريمة ووجدت فى الجهة التى من الغرب إلى الشمال مكتوباً فى أعلا جدار البلاط أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام الحاج بيت الله وعماره فى سنة سبع وستين ومائة وللحرم سبع صوامع أربع فى الأربعة جوانب وواحدة فى فى دار الندوه وأخرى على باب الصفا وهى أصغرها وهى علم لباب الصفا وليس يصعد إليها لضيقها وعلى باب إبراهيم صومعة قد ذكرت عند باب إبراهيم فى ما بعد وباب الصفا يقابل الركن الأسود بالبلاط الذى من الجنوب إلى الشرق وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان الركن المذكور فيها منقوش أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله باقامة هاتين الاسطوانتين علما لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصفا ليتأسى به حاج بيت الله وعماره على يد ابن يقطين بن موسى وإبراهيم بن صالح فى سنة سبع وستين ومائة وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب رائق الخط طويل الحروف غليظها يرتمى الأبصار برونقه وحسنه مكتوب فيه مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفى بأمر الله أمير المؤمنين رضى الله عنه وعن آبائه الأئمة الطاهر وخلد ميراث النبوة لديه وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين فى سنة خمسين وخمسمائة فى صحنى البابين على هذا النص المذكور ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبه البديعة النقش تصعد إلى العتبة المباركة وتشق عليها وتستدير بجانبى البابين ويعترض أيضا بين البابين عند إغلاقهما شبه العضاد

الكبيرة من الفضة والمذهبة هي بطول البابين متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل إلى البيت وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه وهى أربع وثلاثون شقة فى الصفح الذى بين الركن اليمانى والشامى منها تسع وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقى تسع أيضا وفى الصفح بين العراقى والشامى ثمان وفى الصفح بين اليمانى والاسود ثمان أيضا قد وصلت كلها فجاءت كانها ستر واحد يعم الاربعة جوانب وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص فى ارتفاعه أزيد من شبر وفى سعته شبران أو أزيد قليلا فى داخله خشب غير ظاهر وقد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤسها حلقات حديد ظاهرة قد ادخل فيهامرس من القنب غليظ مفتول واستدار بالجوانب الاربعة بعد أن وضع فى أزيال مسطور حجر السراويلات وأدخل فيها ذلك المرس وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقه ومجتمع السطور فى الاركان الاربعة مخيط إلى أزيد من قامة ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها فى بعض واستدار أيضا بأعلاها على جوانب السطح تكفيف ثان وقعت فيه أعالى الستور فى حلقات حديد على تلك الصفه المذكورة فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الاعلى والاسفل وثيقة الأزرار لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة الا فى رجب فانه يفتح فى كل يوم وفتحه أول بزوغ الشمس يقبل سدنة البيت الشيبيون فيبادر منهم من ينقل كرسيا كبيرا شبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة قد وضعت له قوائم من الخشب متطأمنة مع الأرض لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض يجرى الكرسى عليها حتى يصل إلى البيت الكريم فيقع الاعلى متصلا بالعتبه المباركة من الباب فيصعد زعيم الشيبيين اليه وهو كهل جميل الهيئه والشارة وبيده مفتاح القفل المبارك ومعه من السدنة من يمسك فى يده ستر أسود. تفتح يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور فاذا فتح القفل قبل العتبة

ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة وأيد مبسوطة إلى الله ضارعة. واذا انفتح الباب كبر الناس وعلا ضجيجهم ونادوا بألسنة مبتهلة اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ثم يدخلوا بسلام آمنين وفى الصفح المقابل للداخل فيه الذى هو من الركن اليمانى إلى الركن الشامى خمس رخامات منتصبات طولا كانها أبواب تنتهى إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض وكل واحدة منها نحو القامة الثلاث منها حمر والاثنان خضر وان فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه كان فيها تنقيط فتتصل بالركن اليمانى منها الحمراء ثم تليها بخمسه أشبار الخضراء والموضع الذى يقابلها متقهقرا عنها بثلاثه أذرع هو مصلى النبي صلى الله عليه وسلم فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به ووضعهن على هذا الترتيب وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور ويتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون ناصع البياض قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته أشكال غريبة مائلة إلى الزرقه مشجرة مغصنه وفى التى تليها مثل ذلك بعينه من الاشكال كانها مقسومه فلو أنطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله فكل واحدة شقة الاخرى لامحالة عند مانشرت انشقت على تلك الاشكال فوضعت كل واحدة بأزاء أختها والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان سعتها خمسة أشبار لاالاشبار المذكورة أو الاشكال فيها تختاف هيآتها وكل أخت منها بأزاء أختها وقد شدت جوانب هذه الرخامات تكافيف غلظها قدر أصبعين من الرخام المجزع من الأخضر والاحمر المنقطين والابيض ذى النحيلان كانها أنابيب مخروطة يحار الوهم فيها فاعترضت فى هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الابيض ست فرج وفى الصفح الذى عن يسار الداخل وهو من الركن الاسود إلى اليمانى أربع رخامات اثنتان خضراوان واثنتان حمراوان وبينهما خمس فرج من الرخام الأبيض وكل

ذلك على الصفة المذكورة وفى الصفح الذى عن يمين الداخل وهو من الركن الأسود إلى العراقى ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذى فقه باب الرحمة وسعته ثلاثة أشبار وطوله سبعة وعضادته التى عن يمينك إذا استقبلته رخامة خضراء فى سعة ثلثى شبر وفى الصفح الذى من الشامى إلى العراقى ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض على الصفة المذكورة ولكل هذا الرخام المذكور طرنان واحدة على الأخرى سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب مرسوم فى اللازوردى قد خط فيه خط بديع وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى والجهة التى عن يمين الداخل لهاطرة واحدة وفى هاتين الطرتين بعض مواضع دراسة فى كل ركن من الأركان الاربعة مما يلى الارض رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركنين وتكتنف أيضاً كل ما بين من الفضة الذين فى كل ركن كأنهما طاقان عضارتان من الرخام الاخضر صغيرتان على قدر نقبيها وفى أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء وفى آخره مثلها والخضراء بينهما على الترتيب المذكور إلا الصفح الذى عن يسار الداخل فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الاسود رخامة خضراء ثم حمراء الى كمال الترتيب الموصوف وبأزائه المقام الكريم منبر الخطيب وهو أيضاً على بكرات أربع شبه التى ذكرناها فإذا كان يوم الجمعة وقرب وقت الصلاة ضم الى صفح الكعبة الذى يقابل المقام وهو بين الركن الاسود والعراقى فيسند المنبر اليه ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبى ﷺ وهو يقابل المقام بالبلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال لابساً ثوب سواد مرسوما بذهب ومعتما بعمامة سوداء مرسومة أيضا وعليه طيلسان شرب رقيق كل ذلك من كساء الخليفة التى يرسلها الى خطباء بلاده يرفل فيها وعليه السكينة والوقار يتهادى رويدا بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعياً أحد القومة وفى يده عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه مرص من الادیم المفتول رقيق طويل

فى طرفه عذبة صغيرة ينفضه بيده فى الهواء نفضا فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه إيذان بوصول الخطيب لايزال فى نفضها إلى إن يقرب من المنبر ويسمونها الفرقعة فإذا قرب من المنبر عرج إلى الحجر الأسود فقبله ودعا عنده ثم سعى إلى المنبر والمؤذن الزمزمى رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ساعيا أمامه لابسا ثياب السواد أيضا وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له فعند صعوده فى أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ثم فى الثانية ثم فى الثالثة فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفى ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد الناس عليه السلام ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه فى المنبر بالآذان على لسان واحد فإذا فرغوا قام للخطبة فذكر ووعظ وخشع فأبلغ ثم جلس الجلسة الخطيبية وضرب بالسيف ضربة خامسة ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد ﷺ وعلى آله ورضى عن أصحابه واختص الأربعة الخلفا بالتسمية رضى الله عن جميعهم ودعا لعمى النبي ﷺ حمزة والعباس وللحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ ورضى عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر ثم لامير مكة مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن إيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الالسنة بالتأمين عليه من كل مكان

وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم ولما رفعه من وظائف المكوث عنهم وفى هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه وصل الى الامير مكثر وأهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد فى ميرتهم وتأنيسهم ودفع أيدى الاعتداء عنهم والإيعاز من ذلك إلى الخدام والاتباع

والاوزاع وقال انه إنما نحن وأنت متقلبون فى بركة الحاج نتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم واحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده واعتنائه الكريم موصول لمن جعل همة الاعتناء بهم والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين انه ولى ذلك لا رب سواه وفى اثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان فى أول درجة من المنبر ويمسكها رجلان من المؤذنين وفى جانبى باب المنبر حلقتان تلق الرايتان فيهما مركوزتين فاذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمنيه وشماله والفرقعة امامه على الصفة التى دخل عليها كأن ذلك أيضا إيذان بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة ثم أعيد المنبر الى موضعه بازاء المقام وليلة أهل هلال الشهر المذكور وهو جمادى الأولى بكر أمير مكة مكثر المذكور فى صبيحتها إلى الحرم الكريم مع طلوع الشمس وقواده يحفون به والقراء يقرأون أمامه فدخل على باب النبى ﷺ ورجاله السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب وهو فى هيئة احتضار عليه السكينة والوقار وسمت سلفه الكريم رضى الله عنهم لابساً ثوب بياض متقلداً سيفه محتضراً متعمما بكرزية صوف بيضاء رقيقة فلما انتهى بأزاء المقام الكريم وقف وبسط له وطأ كتان فصلى ركعتين ثم تقدم إلى الحجر الاسود فقبله وشرع فى الطواف وقد علا فى قبة زمزم صبى هو أخو المؤذن الزمزمى هو أول المؤذنين آذانا به يقتدون وله يتبعون وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم فعندما يكمل الامير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يندفع الصبى فى أعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء ويستفتحه بصبح الله مولانا الامير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر فى مدحه ومدح سلفه الكريم وذكر سابقة النبوة رضى الله عنهم ثم يسكت فاذا أطل من الركن اليمانى يريد الحجر اندفع بدعاء آخر على ذلك الإسلوب ووصله بأبيات من الشعر غير الابيات الآخر فى ذلك المعنى بعينه كانها منتزعة من قصائد مدح بها هكذا فى السبعة الاشواط إلى أن يفرغ منها والقراء فى أثناء طوافه أمامه فينتظم من هذه الحال

والابهة وحسن صوت ذلك الداعي على صغره وإنه ابن أحدى عشر سنة أو نحوها وحسن الكلام الذى يورده نثرا ونظما وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل مجموع يحرك النفوس ويشجيها ويستوكف العيون ويبكيها تذكراً لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فاذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً ثم ولى منصرفا وحاشيته تحف به ولا يظهر فى الحرم الا المستهل هلال آخر هكذا دائما والبيت العتيق مبنى بالحجارة الكبار الصم السمر قد رص بعضها على بعض وألصقت بالعقد الوثيق الصاقاً لا تحيله الايام ولا تقصمه الازمان ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليمانى فسمر بمسامير فضة وأعيدت كاحسن ما كانت عليه والمسامير فيها ظاهرة ومن آيات البيت العتيق انه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد وله التزيه الاعلى وحمام الحرم لاتحصى كثرة وهى من الامن بحيث يضرب بها المثل ولا سبيل أن تنزل بسطحه الاعلى حمامة ولا تحل فيه بوجه ولا على حال فترى الحمام تتجلل من الحرم كله فإذا قربت من البيوت عرجت عنه يمينا أو شمالا والطيور سواها كذلك وقرأت فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليها طائر الا عند مرض يصيبه فإما أن يموت لحينه أو يبرأ فسبحان من أورثه التشريف والتكريم ومن آياته ان بابه الكريم يفتح فى الإيام المعلومة المذكورة والحرم قد غص بالخلق فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرته عز وجل ولا يبقى فيه موضع إلا ويصلى فيه كل أحد ويتلاقى الناس عند الخروج منه فيسأل بعضهم بعضا هل دخل البيت ذلك اليوم فكل يقول دخلت وصليت فى موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع ولله الآيات البينات والبراهين المعجزات سبحانه وتعالى ومن عجائب اعتناء الله تعالى به انه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتا من الليل فلاتجد من تخبر أنه رآه دون طائف به فسبحان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف إلى يوم القيامة وفى أعلا بلاطة الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الاربعة وهو مشرف كلها بشرفات مبسوطة مركنة فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها ايضاً شرفات أخر صغار والركن الأسفل منها متصل بالركن الذى

يليه من الشرفة الأخرى وتحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيلوح كأنها أقمار مستديرة يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ثم أحدثته فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل وفى النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة شقة من الجص متعرضة بين الشرفات مخرمة . . . . . طولها نحو الثلاثين شبراً تقديراً يقابل كل شقة منها صفح من صفحات الكعبة المقدسة قد علت على الشرفات كالتاج وللصوامع أشكال بديعة وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع أحاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة وارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه مخروط مختم كله بالاجر تختيما يتداخل بعضه على بعض بصنعة تستميل الأبصار حسنا ومن أعلا ذلك العمود الفحل وقد استدار به أيضاً شباك آخر من على تلك الصنعة بعينها وهى متميزة الأشكال كلها لا يشبه بعضها بعضا لكنها على هذا المثال المذكور من كون نصفها الاول مركنا ونصفها الاعلى عموداً لا ركن له وفى الصف الاعلى من قبة زمزم والقبة العباسية التى تسمى السقاية والقبة التى إليها منحرفة عنها يسيرا المنسوبة لليهودية صنعته من قربصة الخشب عجيبة قد تأنق الصانع فيها وأحدق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب رائق الخال والتاريج وداخل شباك قبة زمزم سطح وقد قام فى وسطه شبه فحل الضومعة وفى ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمى وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص واستقر فى رأسه صفيحة حديد تتخذ مشعلا فى شهر رمضان المعظم وفى الصفح الناظر إلى البيت العتيق من من القبة سلاسل فيها قناديل من الزجاج معلقة توقد كل ليلة وفى الصفح الذى فى يمينه كذلك وهو الناظر إلى الشمال وفى كل جانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة منها ماهو مفتول فتل السوار ولا سيما الجانب الذى يقابل الحجر الاسود من قبة زمزم سواره فى نهاية من اتقان الصنعة قد أدير بكل سارية منها رؤس

ثلاث أو أربعة وتحت ما بين كل رأس ورأس .... وأحدثت فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر وربما فتل بعضها على الصفة السوارية وهذا الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع لأن أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لأن الحجر الاسود أمامك والباب الكريم مع البيت قبالتك والمقام عن يمينك وباب الصفا عن يسارك وبئر زمزم وراء ظهرك وناهيك بهذا وينطق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كأنها شراجيب أخر وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية يتصل بأحد أركانه شباك قبة اليهودية حتى يتماسا فمن يكون فى أعلى سطح هذه ينفتل الى سطح الاخرى من الركنين المذكورين وداخل هذه القباب صنعة من القربصة الجصية رائقة الحسن وللحرم أربعة أئمة سنية وإماماً خامس لفرقة تسمى الزيدية وأشراف هذه البلدة على مذهبهم وهم يزيدون فى الآذان حى على خير العمل أثر قول المؤذن حى على الفلاح وهم روافض سبابون والله من وراء حسابهم وجزائهم ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الائمة من صلاتها فأول الائمة السنية الشافعى رحمه وانما قدمناذكره لانه المقدم من الامام العباسى وهو من يصلى وصلاته خلف مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم إلا صلاة المغرب فان الاربعة الائمة يصلونها فى وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبد مؤذن الشافعى بالإقامة ثم يقيم مؤذنوا سائر الائمة وربما دخل فى هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة فربما ركع المالكى بركوع الشافعى أو الحنفى أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه فتركل أذن مصيغة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس ثم المالكى رحمه الله وهو يصلى قبالة الركن اليمانى وله محاريب حجر بشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها ثم الحنفى رحمه الله وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له وهو أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب أن الدولة الاعجمية كلها على مذهبه فالاحتفال له كثير وصلاته آخراً ثم الحنبلى رحمه الله

وصلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الاسود والركن اليمانى ويصلى الظهر والعصر قريبا من الحنفى فى بلاطه الآخذ من الغرب إلى الشمال والحنفى يصليها فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه ولا حطيم له وللشافعى بأزاء المقام حطيم حفيل وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع واعترض فى أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب وللحنفى بين الرجلين الجصيتين المنعقدتين على الخشب محراب يصلى فيه وللحنبلى حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفى وهو منسوب لرامشت أحد الاعاجم ذوى الثراء وكانت له فى الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ويقابل الحجر حطيم معطل أيضا ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيراً مشاعيل توقد فى صحاف حديد فوق خشب مركوزة فيتقد الحرم الشريف كله نوراً ويوضع الشمع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم والمالكى أقلهم شمعا وأضعفهم مالالان مذهبه فى هذه البلاد غريب والجمهور على مذهب الشافعى وعليه علماء البلاد وفقهائها إلا الإسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عون وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الائمة المالكية وفى أثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمى فى سطح قبة زمزم ولها مطلع على أدراج من عود فى الجهة التى تقابل باب الصفا رافعا صوته بالدعاء للامامى العباسى أحمد الناصر لدين الله ثم للامير مكثر ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ذى المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القوب الخاصة والنيات الصادقة وتخفق الالسة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه فى أرضه ثم يصل ذلك بدعاء

لامراء اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل
هكذا دأبه دائما أبداً وفى القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوى على تابوت
مبسوط متسع وفيه مصحف أحد الخلفاء الاربعة أصحاب رسول الله ﷺ وبخط
زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله ﷺ
وينقص منه ورقات كثيرة وهو بين دفتى عود مجلد. بمغاليق من صفر كبير الورقات
واسعها عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه نفع الله بأليفه فى ذلك وأعلمنا
صاحب القبة المتولى لعرضه علينا أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة
فى أسعارهم أخرجوا المصحف المذكور وفتحوا باب البيت الكريم ووضعوه فى
القبة المباركة مع المقام الكريم مقام الخليل ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه
وسلم واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين وبالمصحف الكريم والمقام
العظيم إلى الله متوسلين فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عز وجل
قد تداركتهم والله لطيف بعباده لا إله سواه وبأزاء الحرم الشريف ديار كثيرة
لها أبواب يخرج منها إليه وناهيك هذا الجوار الكريم كدار زبيدة ودار القاضى
ودار تعرف بالعجالة وسواها من الديار وحول الحرم أيضاً ديار كثيرة تطيف
به لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم فيبيت أهلها فيه ويبردون ماءهم
فى أعالى شرفات فهم من النظر إلى البيت العتيق دائما فى عبادة متصلة والله يهنئهم
بما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه وألفيت بخط الفقيه الزاهد الورع
أبى جعفر المكى القرطبى أن ذرع المسجد الحرام فى الطول والعرض ما أثبته أولا
وهو مسجد رسول الله ﷺ ثلاثمائة ذراع وعرضه مائتان وعدد سواريه ثلاثمائة
ومناراته ثلاث فيكون تكسيره أربعة مرجعا من المراجع المغربية وهى خمسون
ذراعا فى مثلها وطول (مسجد) بيت المقدس أعاده للاسلام سبعمائة وثمانون ذراعا
وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية
وقناديله خمسمائة وأبوابه خمسون بابا فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة
مرجع وأربعين مرجعا وخمسى مرجع

ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر بابا أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتى ذكره إن شاء الله (باب) الصفا يفتح على خمسة أبواب وكان يسمى قديما بباب بنى مخزوم (باب) الخلقيين ويسمى بباب جياد الأصفر مفتح على بابين هو محدث (باب) العباس رضى الله عنه هو يفتح على ثلاثة أبواب باب على رضى الله عنه يفتح على ثلاثة أبواب (باب) النبي ﷺ يفتح على بابين (باب) صغير أيضا بأزاء باب بنى شيبة المذكور لا اسم له (باب) شبة وهو يفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء (باب دار الندوة) ثلاثة البابان من دار الندوة منتظمان والثالث فى الركن الغربى من الدار فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين بابا (باب) صغير بأزاء بنى شيبة شبه خوخة الابواب لااسم له وقيل أنه يسمى الرباط لانه يدخل منه لرباط الصوفية (باب) صغير لدار العجلة محدث (باب) السدة واحد (باب) العمرة واحد (باب) حزورة على بابين (باب) إبراهيم ﷺ واحد (باب) ينسب لحزورة أيضا على بابين (باب) جياد الاكبر على بابين (باب) جياد الاكبر أيضا على بابين (باب) ينسب لجياد أيضا على بابين ومنهم من ينسب البابين من هذه الابواب الاربعة الجيادة إلى الدقاقين والروايات فيها تختلف لكنا اجتهدنا فى إثبات الاقرب من أسمائها إلى الصحة والله المستعان لارب سواه وباب إبراهيم ﷺ هو فى زاوية كبيرة متسعة فيها دار المكناسى الفقيه الذى كان امام المالكية فى الحرم رحمه الله وفيها أيضا غرفة هى خزانة للكتب المحبسة على المالكية فى الحرم والزواية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب وخارجة عنه وبأزاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة فيها مخاريم فى الجص مستطيلة الشكل كأنها محاريب قد حفت بها قربصة غريبة الصنعه وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو يقرب من الصومعة ارتفاعها قد

ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القربصية يعجز عنها الوصف وظاهرها أيضاً تقاطيع فى الجص كأنها أرجل مدورة قد تركبت دائرة على دائرة ومحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص مفتح ما بين (كل) رجل ورجل وخارج باب إبراهيم بئر تنسب إليه عليه السلام وإنما بدىء بباب الصفا لانه أكبر الابواب وهو الذى يخرج عليه إلى السعى وكل وافد إلى مكة شرفها الله يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ثم يطوف سبعا ويخرج على باب الصفا ويجعل طريقه بين الاسطوانتين اللتين أمر المهدى رحمه الله باقامتها علما لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا حسبما تقدم ذكره وبين الركن اليمانى وبينهما ست وأربعون خطوة ومنها إلى باب الصفا ثلاثون خطوة ومن باب إلى الصفا ست وسبعون خطوة وللصفا أربعه عشر درجا وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة وقد أحدقت به الديار وفى سعته سبع عشرة خطوة وبين الصفا والميل الاخضر ما يأتى ذكره والميل سارية خضراء وهى خضرة صباغية وهى التى إلى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم على قارعة الميل إلى المروة وعن يسار الساعى إليها ومنها يرمل فى السعى إلى الميلين الاخضرين وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة الواحدة منها بأزاء باب على فى جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب والميل الآخر يقابله فى جدار دار تتصل بدار الامير مكثر وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج ألفيت فيه منقوشا برسم مذهب إن الصفا والمروة من شعائر الله الآية وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وبين الصفا والميل الاول ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة وهى مسافة الرمل جائيا وذاهبا من الميل إلى الميلين ثم من الميلين إلى الميل ومن الميلين إلى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة فجميع خطا الساعى من الصفا إلى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة وأدراج المروة خمسة وهى بقوس

واحد كبير وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) وما بين الصفا والمروة ميل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام وحوانيت الباعة يميناً وشمالا وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البرازين والعطارين فهم عند باب بنى شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها وعلى الحرم الشريف جبل أبى قبيس وهو فى الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الاسود وفى أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلد الطيبة ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه وقرأت فى أخبار مكة لأبى الوليد الازرقى أنه أول جبل خلقه الله عز وجل وفيه استودع الحجر من الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لأنه أدى الحجر إلى إبراهيم ﷺ وفيه قبر آدم صلوات الله عليه وهو أحد أخشبي مكة والاخشب الثانى الجبل المتصل بقعيقعان فى الجهة الغربية صعدنا إلى جبل أبى قبيس المذكور وصلينا فى المسجد المبارك وفيه موضع موقف النبي ﷺ عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل وناهيك بهذه الفضيلة والبركة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتى الجمادات من مخلوقاته لا إله سواه وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد كأنه اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور فهدمه عليه أمير الحج العراقى لمخالفة صدرت عنه فغادره خراجا وألفيت منقوشاً على سارية خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبى ﷺ إلى الصفا داخل الحرم المتقدمى الذكر أمر عبدالله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد فى سنة سبع وستين ومائة فدل ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة فى وسط المسجد وكان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا فاختبرنا جوانبها المباركة بالليل فوجدنا الأمر صحيحا حسبما تضمنه وسم السارية وتحت ذلك النقش فى أسفل السارية منقوش أيضا أمر عبد الله (محمد) المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة الباب الاوسط الذى بين هاتين

الاسطوانتين وهو طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا وفى أعلى السارية التى يليها منقوش أيضاً أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بصرف الوادى إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم ﷺ وتوسعته وبالرحاب التى حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره وتحتها أيضا منقوش ماتحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط والوادى المذكور هو الوادى المنسوب لابراهيم ﷺ ومجراه على باب الصفا المذكور وكان السيل قد خالف مجراه فكان يأتى على الميل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم فكان مدة مده بالأمطار يطاف حول الكعبة سبحا فأمر المهدى رحمه الله برفع موضع فى أعلى البلد يسمى رأس الردم فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذى يسمى المسفلة ويخرج عن البلد ولا يجرى الماء فيه إلا عند نزول ديم المطر الكثير وهو الوادى الذى عنى صلى الله عليه وسلم بقوله حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع فسبحان من أبقى له الآيات البينات

ذكر مكة شرفها الله تعالى وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها وهى بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق ما لا يحصيه الا الله عز وجل ولها ثلاثة أبواب أولها (باب) المعلى ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة وهى بالموضع الذى يعرف بالحجون وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها إلى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكدلا وهى التى عنى حسان بقوله فى شعره

* تثير النقع موعدها كداء *

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أدخلوا من حيث قال حسان فدخلوا من تلك الثنية وهذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحرث بن مضاض الجهرى بقوله

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا اهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والاولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة وذهبت عن أهل البلد أسماءهم وفيه الموضع الذى صلب فيه الحجاج بن يوسف جازاه الله جثة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وعلى الموضع بقية علم ظاهر إلى اليوم وكان عليه مبنى مرتفع فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور وعن يمينك إذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد فى مسيل بين جبلين يقال أنه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود إلى عرفات جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال وهو إلى المشرق أميل ثم (باب) المسفل وهو إلى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ثم (باب) الزاهر ويعرف أيضاً بباب العمرة وهو غربى وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ولذلك أيضاً يسمى هو بهذا الاسم والتنعيم من البلدة على فرسخ وهو طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجداً بأزاءه حجر موضع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذى قعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه من العمرة فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه وحق ذلك لهم ويستندون اليها لتنال أجسامهم بركة لمسه ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه إلى العمرة قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام يقال انهما قبر أبى لهب وامرأته لعنهما الله فما زال الناس فى القديم إلى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان ثم تسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر وهو مبنى على جانبي الطريق يحتوى

على دار وبساتين والجميع ملك أحد المكيين وقد أحدث فى المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء ومراكن مملوءة للضوء وهى القصارى الصغار وفى الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة فيجد المعتمرون فيها مرفقا كبيراً للطهور والوضوء والشرب فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب وكثير من الناس المتأخرين من يعينه على ماهو بسبيله وقيل ان له فى ذلك قائداً كبيراً وعن جانبى الطريق فى هذا الموضع جبال أربعة من هنا وجبلان من هنا عليها أعلام من الحجارة وذكر لنا أنها الجبال المباركة التى جعل إبراهيم عليه السلام عليها أجزاء الطير ثم دعاهن حسبما حكا الله عز وجل سؤاله إياه جل وعلا أن يريه كيف يحيى الموتى وحول تلك الجبال الاربعه جبال غيرها وقيل ان التى جعل إبراهيم عليه السلام عليها الطير سبعة منها والله أعلم وعند أجازتك الزاهر المذكور تمر بالوادى المعروف بذى طوى الذى ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل فيه عند دخول مكة وكان ابن عمر رضى الله عنهما يغتسل فيه وحينئذ يدخلها وحوله آبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال أنه مسجد إبراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع الآيات التى فيه والآثار المقدسة التى اكتنفه وتجيز الوادى إلى مضيق تخرج منه إلى الأعلام التى وضعت حجزاً بين الحل والحرام فما داخلها إلى مكة حرم وما خارجها حل وهى كالابراج مصفوفة كبار وصغار واحد بأزاء آخر على مقربة منه تأخذ من أعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق فى التوجه إلى العمرة وتشق الطريق إلى أعلى الجبل عن يساره ومنه ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها ومسجد عائشة رضى الله عنها خارج هذه الاعلام بمقدار غلوتين وإليه يصل المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التى حول الاعلام المذكور وإنما مسجد عائشة رضى الله عنها مسجد ينسب لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه ومن عجيب ما عرض علينا باب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة العظام طوال كأنها مصاطب صف أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة ذكر لنا أنها الأصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها وكبيرها هبل بينها قد كبت على

وجوهها تطأها الاقدام وتمتهنها بأنعلتها العوام ولم تغن عن أنفسها فضلا عن عابديها شيئا فسبحان المنفرد بالوحدانية لا إله سواه والصحيح فى أمر تلك الحجارة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم فتح مكة بكسر الاصنام وإحراقها وهذا الذى نقل الينا غير صحيح وإنما تلك التى على الباب حجارة منقولة وعنيت القوم بتشبيهها إلى الاصنام لعظمها ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبى قبيس (جبل حراء) وهو فى الشرق على مقدار فرسخ أو نحوه مشرف على منى وهو مرتفع فى الهواء عالى القنة وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما ينتابه ويتعبد فيه واهتز تحته فقال النبي صلى الله عليه وسلم اسكن حراء فما عليك الا نبي وصديق وشهيد وكان معه أبو بكر وعمر ويروى أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان وكان عثمان رضى الله عنه معهم وأول آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ فى الجبل المذكور وهو آخذ من الغرب إلى الشمال ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون التى تقدم ذكرها وسور مكة إنما كان من جهة المعلى وهو مدخل إلى البلد ومن جهة المسفل وهو مدخل أيضا إليه ومن جهة باب العمرة وسائر الجوانب جبال لا يحتاج معها إلى سور وسورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقيه وأبوابه القائمة

ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة

مكة شرفها الله كلها مشهد كريم كفاها شرفا ماخصها الله به من مثابة بيته العظيم وماسبق لها من عودة الخليل إبراهيم وانها حرم الله وأمنه وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الذى أثره الله بالتشريف والتكريم وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم فهى مبدأ نزول الوحي والتنزيل وأول مهبط الروح الامين جبريل وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الاكرمين وهى أيضا مسقط رؤس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوما للمهتدين فمن مشاهدها التى عايناها (قبة الوحى) وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وبها كان ابتناء النبي ﷺ بها وقبة صغيرة أيضا فى الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها وفيها أيضا ولدت سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضى الله عنهما وهذه المواضع المقدسة

المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبي ﷺ والتربة الطاهرة التي هي أول ترب مست جسمه الطاهر بني عليه مسجد لم تر د أحفل بناء منه أكثره ذهب منزل به والموضع المقدس الذي سقط فيه ﷺ ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين محفوف بالفضة فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها أطهر الاجسام ومولد خير الانام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليما يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الاول ويوم الاثنين منه لانه كان شهر مولد النبي ﷺ وفي اليوم المذكور ولد ﷺ وتفتح المواضيع المقدسة المذكورة كلها وهو يوم مشهور بمكة دائما ومن مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي ﷺ يعبد الله فيها سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم حتى نشر الله الإسلام منها على يدي الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكفى بهذه الفضيلة ومن مشاهدها أيضا دار (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه وهي اليوم دارسة الاثر ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه يقال أنه كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز عليه وذكر أنه جاء يوماً ﷺ إلى دار أبي بكر رضي الله عنه فنادى به ولم يكن حاضرا فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور وقال يا رسول الله ليس بحاضر وكانت من إحدى آياته المعجزات ﷺ ومن مشاهدها قبة بين الصفا والمروة تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي وسطها بئر يقال أنه كان يجلس فيها للحكم رضي الله عنه والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيدة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبإزاء دارها المنسوبة إليه وفيها كان يجلس للحكم أيام تولية مكة كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين به ويقال أن البير كانت في القديم فيها ولا بير فيها الآن لأنا دخلناها فألفيناها مسطحة وهي حفيلة الصنعة وكانت بمقربة من الدار التي نزلنا فيها دار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ذي الجناحين وبجهة المسفل وهو آخر البلد مسجد منسوب لابي بكر الصديق رضي الله عنه يحف به بستان حسن فيه النخل والرمان وشجر العناب وعاينا فيه شجر الحناء وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب يقال أنه كان مختبأ له رضي الله عنه من المشركين الطالبين له وعلى مقربة من دار خديجة رضي الله عنها المذكورة

وفى الزقاق الذى فى الدار المكرمة فيه مصطبة فيها متكأ يقصد الناس إليها ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان فى موضعها كان موضع قعود النبي ﷺ ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف (بأبى ثور) وهو فى الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد وفيه الغار الذى آوى اليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضى الله عنه حسبما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز وقرأت فى كتاب أخبار مكة لابى الوليد الازرقى أن الجبل نادى النبي ﷺ فقال إلي يا محمد إلي يا محمد فقد أويت قبلك نبيا وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات فمنها أنه ﷺ دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع فلما اطمأنا فيه أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتا والحمام فصنعت عليه عشا وفرخت فانتهى المشركون اليه بدليل قصاص للاثر مستاف أخلاق الطريق فوقف لهم عند الغار وقال ههنا انقطع الأثر فاما صعد بصاحبكم من ههنا إلى السماء أو غيض به فى الارض ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار والحمام مفرخة فيه فقالوا ما دخل ههنا أحد فأخذوا فى الانصراف فقال الصديق رضى الله عنه يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع فقال رسول الله ﷺ لو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك وأشار بيده المباركة إلى الجانب الاخر من الغار ولم يكن فيه شق فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل وهو سبحانه قدير على ما يشاء وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ويتجنبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز وجل فيه ويرومون دخوله من الشق الذى دخل النبي ﷺ تبركا به فيمتد المحاول لذلك على الأرض ويبسط خده بأزاء الشق ويولج يديه ورأسه أولا ثم يعالج إدخال سائر جسده فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فينشب ويلاقى مشقة وصعوبة حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذى لا يسع عليه ويتمسك فيه ولا يلجه ليس لرشده جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكون فيحسب المنتشب فيه المتعذر ولوجه عليه يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل زائدا إلى ما يكابده بدنه من اللز فى ذلك المضيق وإشرافه منه على المنية توجعا

وانقطاع نفس وبرح ألم فالبعض من الناس يقولون فى مثل ليس يصعد جبل أبى ثور الأثور وعلى مقربة من هذا الغار فى الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار شبه القامة وانبسط له فى أعلاه شبه الكف خارجا عن الذراع كأن القبة المبسوطة بقدرة الله عز وجل يستظل تحتها نحو العشرين رجلا وتسمى قبة جبريل ﷺ ومما يجب أن يثبت ويؤثر لبركة معاينته وفضل مشاهدته أن فى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى وهو التاسع من سبتمبر إن شاء الله بحرية فتشاءمت فانهلت عينا غديقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أثر صلاة العصر ومع العشى من اليوم المذكور فجاءت بمطر جود وتبادر الناس إلى الحجر فوقعوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤوسهم [و] أيديهم وأفواههم مزدحمين عليه ازدحاماً عظيما أحدث ضوضاء عظيمة كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيباً ودعائهم قد علا ودموع أهل الخشوع منهم تسيل فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرون بعيون دوامع وقلوب خواشع يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به وكان بعض الحجاج المتأخرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ويخرج إليهن ويعصره فى أيدى البعض منهن فتلقينه شرباً ومسحاً على الوجوه والأبدان وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب وتمادى الناس على تلك الحال من الازحام على تلق ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه وربما رفعوا الأوانى ليقع فيها فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه ولما اقترن بها من القرائن المباركة فمنها أنها كانت عشية الجمعة وفضل اليوم فضله والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله لما ورد فيها من الأثر الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر وقد وقف الناس تحت الميزاب وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق الذى هو حيال البيت المعمور وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف جعلنا الله ممن طهر فيه

من أرجاس الذنوب واختص من رحمة الله تعالى بذنوب ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين انه غفور رحيم وذكروا أن الإمام أبا حامد الغزالى دعا الله عز وجل بدعوات وهو فى حرمه الكريم فى رغبات رفعها الله جل وتعالى فأعطى بعضاً ومنع بعضاً وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة فمنع ذلك وأجيب دعائه فى سائر ما سأله فله الحمد وله الشكر على ماأنعم به علينا ولعل عبداً من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة فدخلنا جميع المذنبين فى شفاعته والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ولا يجعلنا ممن شق بدعائه انه منعم كبير

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية وذلك أن الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله صلى الله عليه وسلم (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقال عز وجل (أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء) فبرهان ذلك ظاهر متصل إلى يوم القيامة وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الاصقاع النائية والاقطار الشاحطة فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى إليها من كل مكان فهى أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومتاجر ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه يجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها فى يوم واحد فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الاحجار ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة إلى الامتعة العراقية واليمانية إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الاسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية كل ذلك فى ثمانية

أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها فما على الارض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهى موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها الشريفة التى خصها الله بها وأما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الاندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثا والخيار إلى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب إلى سائرها إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ولكل نوع من هذه الانواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود فى سائر البلاد العجب من ذلك يطول ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة وذلك لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل اللباب ولعل متصفح هذه الاحرف يظن أن فى الوصف بعض الغلو كلا لعمر الله أنه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت وبها عسل أطيب من الماذى المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودى وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب وكلما يصنع منها من السمن فانه لا تكاد تميزه من العسل طيبا ولذاذة ويجلب إليها قوم من اليمن يعرفون (بالسرو) نوعا من الزبيب الاسود والاحمر فى نهاية الطيب ويجلبون معه من اللوز كثيراً وبها قصب السكر أيضاً كثيراً يجلب من حيث تجلب البقول التى ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى انهم . . يصنعون

بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها لابمصر ولا بسواها قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية وجليت فى منصات كانها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونه فتلوح كانها الأزاهر حسنا فتقيد الابصار وتستنزل الد ... والدينار وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحى الاقطار أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا وماذاك والله أعلم إلا لبركة مراعيها هذا على إفراط سمنه ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى التسمن للفظته الافواه ودكا ولعافته وتجنبته والامر فى هذا بالض . كلما ازداد سمناً زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا فتجده هنيئاً رخيصا يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة وبركة البلد الامين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه والخبر عنه يضيق عن الخبر له والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق بلدته الحرام وتمنى هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام بعزته وقدرته وهذه الفواكه تجلب إليها من الطائف وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة ومن قرى حولها وأقرب هذه المواضيع يعرف با . . . هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا وهو من بطن الطائف ويحتوى على قرى كثيرة ومن بطن مرو هو على مسيرة يوم أو أقل من نخلة وهى على مثل هذه المسافة ومن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها قد جلب الله إليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الاسباب فى خصب هذه الجهات وذلك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الامين ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ولا سيما لكوننا لم نعهده الرطب وهو الذى عندهم بمنزلة التين الاخضر فى شجره يجنى ويؤكل وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة لايسأم التفكه به وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب

القراهم أيام نضج التين والعنب ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يبسط على الارض قدر ما يجف قليلا ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع ومن صنع الله الجميل لنا وفضله العميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة المتلصصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين الا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة فما منهم الا حز يد القميص فكفى الله هذا العام شرهم إلا القليل وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم وبطيب هوائها فى هذا العام وفتور حمارة قيظها المعهود فيها وانكسار حدة سمومها وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دينار يقينا منه وذلك أمره مستغرب بمكة وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها فى هذا العام ولين شعرها وانها خارقة للعوائد السالفة عندهم كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى وهى أوبتان من كيل مصر وجهاتها والاوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربى وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لاهله إلا بالميرة المجلوبة اليه سعر لاخفاء بيمينه وبركته على كثرة المجاورين فيها فى هذا العام وانجلاب الناس إليها وترادفهم فحدثنا غير واحد من المجاورين الذى لهم بها ستون طائلة أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوما بمنه وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها فى هذه السنة وتميزها عما سلف من السنين حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل مصادفها وهذا الماء المبارك فى أمره عجب وذلك أنك تشربه عند خروجه من قراراته فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا وتلك فيه من الله آية وعناية وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف وهو لما شرب له كما قال ﷺ أروى الله منه كل ظامىء إليه بعزته وكرمه ومن الأمور المجربة فى هذا الماء المبارك أن الإنسان ربما وجد مس

الأعيان وفتور الاعضاء أمامن كثرة الطواف أو من عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الاسباب المؤدية إلى تعب البدن فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء وهو الحادى والعشرون من شهر سبتمبر العجمى ونحن بالحرم المقدس زاده الله تعظيما وتشريفا وفى صبيحة الليلة المذكورة وافى الامير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول وعلى ذلك الرسم بعينه والزمزمى المفرد بثنائه والدعاء له فوق قبة زمزم يرقع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير والقراء أمامه إلى أن فرغ من طوافه وأخذ فى طريق انصرافه ولاهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضا ويتغافرون ويدعوا بعضهم لبعض كفعلهم فى الاعياد هكذا دائما وتلك طريقة من الخير واقعة فى النفوس تجدد الاخلاص وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا وبركة مايتهادونه من الدعاء والجماعة رحمة ودعاؤهم من الله بمكان ولهذه البلدة المباركة (حمامان) أحدهما ينسب للفقيه الميانشى أحد الأشياخ المحلقين بالحرم المكرم والثانى وهو الاكبر ينسب لجمال الدين وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين له رحمه الله بمكة والمدينة شرفها الله من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المبنية فى ذات الله المشيدة مالم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء وكان رحمه الله وزير صاحب الموصل تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين فى حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ أكثر من خمس عشر سنة لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى فى بناء رباع بمكة مسبلة فى طرق الخير والبر مؤبدة محبسة واختطاط صهاريج للماء ووضع جباب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر إلى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين وكان من

أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات وقاطع عليه العرب بنى شعبة سكان تلك النواحى المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج فلما توفى الرجل رحمة الله عليه عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه ومن مفاخره ومناقبه أيضا بعد أن جعل مدينة الرسول ﷺ تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة ومن أعجب ماوفقه الله تعالى إليه أنه جدد أبواب الحرم كلها وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاء فضة مذهبة وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم وصفه وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز وقد تقدم ذكر أيضا فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك ويحج به ميتاً فسيق إلى عرفات ووقف به على بعد وكشف عن التابوت فلما أفاض الناس أفيض به وقضيت له المناسك كلها وطيف به طواف الافاضة وكان الرجل رحمه الله لم يحج فى حياته ثم حمل إلى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره وكاد أشرافها يحملونه على رؤسهم وبنيت له روضة بأزاء روضة المصطفى ﷺ وفتح موضع يلاحظ الروضة المقدسة وأبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة ودفن فى تلك الروضة وأسعده الله بالجوار الكريم وخصه بالمواراه فى تربة التقديس والتعظيم والله لا يضيع أجر المحسنين وسنذكر تاريخ وفاته إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته إن شاء الله عز وجل وهو ولى التيسير لارب غيره ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السنية والمفاخر العلية التى لم يسبقه اليها الأكابر الاجواد وسراة الأمجاد فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ويستغرق الثناء ويستصحب طول الايام من الالسنة بالدعاء وحسبك أنه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز حسبما نذكره واستنبط المياه وبنى الجباب واختط المنازل فى المفازات وأمر بعمارتها مأوى لابناء السبيل وكافة المسافرين وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الاكرية وأجرى على قومه تلك

الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت لهم فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق وملئت ثناء عليه الآفاق وكان مده حياته بالموصل على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الارجاء يدعو اليها كل يوم الحفلى من الغرباء فيعمهم شبعاً ورياً ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا هنيئا لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله فبقية آثاره مخلدة وأخباره بألسنة الذكر مجددة وقضى حميداً سعيداً والذكر الجميل للسعدا حياة باقية ومدة من العمر ثانية والله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده فهو أكرم الكرماء وأكفل الكفلاء ومن الامور المحظورة بهذا الحرم الشريف زاده الله تعظيما وتكريما أن النفقة فيه ممنوعة لايجد المتأجر من ذوى اليسار اليها سبيلا فى تجديد بناء أو اقامة حطيم أوغير ذلك مما يختص بالحرم المبارك ولو كان الأمر مباحا فى ذلك لجعل الراغبون فى نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عسجدو ترابه عنبرا لكنهم لايجدون السبيل إلى ذلك فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره أو إقامة رسم كبير من رسومه أخذ إذن الخليفة فى ذلك فان كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه طرز باسم الخليفة ونفوذ أمره بعمله ولم يذكر اسم المتولى لذلك ولابد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد ربما يوازى قدر المنفوق فيه فتتضاعف المؤنة على صاحبه وحينئذ يصل إلى غرضه من ذلك ومن أغرب ما اتفق لاحد دهاة الاعاجم ذوى الملك والثراء أنه وصل إلا الحرم الكريم مدة جد هذا الامير مكثر فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها فاجتمع بالأمير وقال أريد أن اتأنق فى بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته وأبلغ فى ذلك الغاية الممكنة وأنفق فيه من صميم مالى ولك على فى ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك فاذا استوفى البناء التمام وانتهت النفقة منتهاها وتحصلت محصاة بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لى ذلك فاهتز الامير طمعا وعلم أن النفقة فى ذلك تنتهى إلى آلاف من الدنانير على الصفة التى وصفها له فأباح له ذلك وألزمه

مقيدا يحصى قليل الانفاق وكثيرة وشرع الرجل فى بنائه واحتفل واستفرغ الوسع وتأنق وبذل المجهود فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضا حسنا والمقيد يسود طواميره بالتقييد والامير يتطلع إلى مالديه ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه إلى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم وقبته فلما لم يبق إلا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب ويستقضى منه العدد المجتمع فيها خلا منه المكان وأصبح فى خبر كان وركب الليل جملا وأصبح الأمير يقلب كفيه ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث فى بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثا يحيله أو نقضا يزيله وفاز الرجل بثوابه وتكفل الله به فى انقلابه وتحسين مابه وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين وبقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجبا ويدعو اله كل شارب من ذلك الماء المبارك

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر أكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والاشراف أهل مكة ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل أبى قبيس فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضى وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة وهو أكبر أعيادهم ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا يتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك إلى الجاهلية لأنهم كانوا يسمونه متصل الاسنة وهو أحد الأشهر الحرم وكانوا يحرمون القتال فيه وهو شهر الله الاصم كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجبا شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه والمقصود منه الليلة التى يستهل فيها الهلال مع صبيحتها ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لأننا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء وهى العشية التى ارتقب فيها الهلال قدامتلأت هوادج مشدودة على الابل

سمكوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم وكل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا فى الخراج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج فى أباطح مكة وشعابها والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره وربما فاضت الأستار التى على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض ومن أغرب ماشاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمت الأمير مكثر فان أذيال ستره كانت تسحب على الأرض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الامير وحرم قواده إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الاحصاء فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين وكنا فى جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج والنيران قد أشعلت بحافتى الطريق كله والشمع يتقد بين أيدى الابل التى عليها هوادج من يشار اليه من عقائل نساء مكة فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعى بين الصفا والمروة وقد مضى هدو من الليل أبصرناه كله سراجاً ونبراثاً وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن فكن لا نتخلص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الابل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض فعاينا ليلة هى أغرب ليالى الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به ولا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين داعين إلى الله عز وجل ضارعين والجبال المكرمة التى بحافتى الطريق تجيبهم بصداها حتى سكت المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع وفى تلك الليلة ملىء المسجد الحرام كله سرجاً فتلألأ نورا وعند ثبوت رؤية الهلال عند الامير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات اشعاراً بأنها ليلة الموسم فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج إلى العمرة فى احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة

حارة شاكين فى الاسلحة فرسانا ورجالة فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجبا فكيف وهم من بلد واحد وهذا أدل الدلائل على بركة البلد فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالاسلحة عليها والراجلة يتواثبون ويتثاقفون بالاسلحة فى أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفا وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون اليها لقفاً بأيديهم وهى قد تصوبت أسنتها على رؤسهم وهم فى زحام لا يمكن فيه المجال وربما رمى بعضهم بالسيوف فى الهواء فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم إلى أن خرج الامير يزحف بين قواده وأبنائه أمامه وقد قاربوا سن الشباب والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه والسكينة تفيض عليه وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه أخذ فى الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم والراجلة على الصفة المذكورة من التجاول وقد ركب جملة من أعراب البوادى نجباً صهباً لم ير أجمل منظراً منها وركابها يسابقون الخيل بها بين يدى الامير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه أن وصل المسجد الحرام فطاف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمى يغرد فى سطح قبة زمزم رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه وقد أخرج له من الكعبة ووضع فى قبته الخشبية التى يصلى خلفها فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به ثم أعيدت القبة عليه وأخذ فى الخروج على باب الصفى إلى المسعى وانجفل بين يديه فسعى راكباً والقواد مطيفون به والراجلة الحرابة أمامه فلما فرغ من السعى استلت السيوف أمامه وأحدقت الأشياع به وتوجه على منزله على هذه الحالة الهائلة مزحفا به وبقى المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات فلما كان اليوم

الثانى وهو يوم الجمعة كان طريق العمرة فى العمارة قريبا من أمسه راكبين وماشين رجالا ونساء والنساء الماشيات المتأجرات كثيراً يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة تقبل الله من جميعهم بمنه وفى أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم والنساء كذلك والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للاعياد وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم لهم يعبئون به وله يحتفلون وفى المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم يقدمون النظر فى ذلك والاستعداد له بأشهر ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه اعتناء كريم منة سبحانه بحرمه الامين أن قبائل اليمن تعرف بالسرو هم أهل حيال حصينة باليمن تعرف بالسراة وكأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرنى به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبى الصيف فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام فيجمعون بين النية فى العمرة وميرة البلد بضروب من الاطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ويصلون فى آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه يتقوتون ويدخرون وترخص الأسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة فى شظف من العيش ومن العجب فى أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا درهم إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل فأهل مكة يعدون لهم من ذلك من الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشاورونهم ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ويقع الموتان فى مواشيهم وأنعامهم وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة فى أموالهم فتى

قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهب للخروج اجتمع نسائهم فأخرجتهم وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين و بلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة كثيرة التين والعنب واسعة المحرث وافرة الغلاة وقد اعتقدوا اعتقاداً صحيحا أن البركة كلها فى هذه الميرة التى يجلبونها فهم من ذلك فى تجارة رابحة مع الله عز وجل والقوم عرب صرحاء فصحاء جفاة أصحاء لم تغذهم الرقة الحضرية ولا هذبتهم السير المدنية ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها فى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب وتنفجر لها الأعين الجوامد فتصوب فترى الناس حولهم باسطى أيديهم مؤمنين على أدعيتهم متلقنين لها من ألسنتهم على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون وأربعون إلى أزيد من ذلك والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضاً وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى إلى الضحك (وأما صلاتهم) فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقراً ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والاربع ثم يرفعون رؤسهم من الارض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ويلتفتون يمناً وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد وربما تكلموا فى أثناء ذلك وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة أو جلود يستترون بها وهم

مع ذلك أهل بأس ونجدة لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم في أسفارهم فتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق الممسكون للحاج مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم وخلوا لهم عن الطريق ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم وعلى ماوصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للايمان صحيح وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفى بأن دخلوا في عموم قوله ﷺ الايمان يمان إلى غير ذلك من الاحاديث الواردة في اليمن وأهله وذكر أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يحترم وقت طوافهم ويتحرى الدخول في جملتهم تبركا بأدعيتهم فشأنهم عجيب كله وشاهدنا منهم صبياً في الحجر قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص. فكان يقول له قل هو الله أحد فيقول الصبي الله أحد فيعيد عليه المعلم فيقول له لم تأمرني بأن أقول هو الله أحد قد قلت فكابد في تلقينه مشقة وبعد لأي ما علقت بلسانه وكان يقول له بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين فيقول الصبي بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله فيعيد عليه المعلم ويقول له لا تقل والحمد لله إنما أقل الحمد لله فيقول الصبي إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال. وإذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم وأما فصاحتهم فبديعة جداً ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه والعمرة في هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهاراً رجالا ونساء لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى وهي ليلة الموسم عندهم وللبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له وفي يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريباً من المشهد الأول المذكور في أوله فكان لا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ

حتميز وكذلك السابع والعشرون منه وفى عشى يوم الخميس المذكور كنا جلوساً بالحجر المكرم فما راعنا إلا الأمير مكثر طالعاً محرماً قد وصل من ميقات العمرة تبركا بذلك اليوم وجرياً فيه على الرسم وأبناءه وراءه محرمين وقد حف به بعض خاصته وبادر المؤذن الزمزمى للحين إلى سطح قبة زمزم داعياً على عادته ومتأولا فى ذلك مع أخيه صفيزة وحانت صلاة العشاء مع فراغ الامير من طوافه فصلى خلف الامام الشافعى وخرج إلى المسعى المبارك وفى يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج نحو أربعمائة جمل مع الشريف الداودى إلى زيارة الرسول ﷺ وفى جمادى الثانية قبله كانت أيضاً زيارة أخرى لبعض الحجاج فى قافلة أصغر من هذه المذكورة وبقيت الزيارة الشوالية والتى مع الحاج العراقى أثر الوقفة إن شاء الله عز وجل وفى التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف السلامة والحمد لله وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه أعنى من رجب ظهر لاهل مكة أيضاً احتفال عظيم فى الخروج إلى العمرة لم يقصره عن الاحتفال الاول فاحتفل الجميع اليها تلك الليلة رجالا ونساء على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر تبركا بفضل هذه الليلة لانها من الليالى الشهيرة الفضل فكانت مع صبيحتها عجباً فى الاحتفال وحسن المنظر جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم وهذه العمرة يسمونها عمرة الاكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة إمام مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غلوة وهى على مقربة من المسجد المنسوب لعلى رضى الله عنه والأصل فى هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمراً وأهل مكة معه فانتهى إلى تلك الاكمة فأحرم منها وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية إلى المعلى التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة فى ذلك اليوم بعينه وعلى تلك الاكمة بعينها وكان يوم عبد الله رضى الله عنه مذكوراً مشهوراً لأنه أهدى فيه كذا وكذا بدنة

عددا لم تتحصل صحته فكنت أثبته لكنه بالجملة كثير ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها إلا من أهدى وأقام أهلها أياما يطعمون ويطعمون ويتنعمون وينعمون شكرا لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير فى بناء بيته الحرام على الصفة التى كان عليها مدة الخليل إبراهيم ﷺ فنقضها الحجاج لعنه الله وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش لأنهم كانوا اقتصروا فى بنائه عن قواعد إبراهيم ﷺ وأبقى نبينا سيدنا محمد ﷺ ذلك على حاله لحدثان عهدهم بالكفر حسب ماثبت فى رواية عائشة رضى الله عنها فى موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه وفى اليوم التاسع والعشرين منه وهو يوم الخميس إفرزا البيت للنساء خاصة فاجتمعن من كل أوب وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم فلما وصل الشيبيون لفتح (البيت) الكريم على العادة أسرعوا فى الخروج منه وأفرجوا للنساء عنه وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال وتبادر النساء إلى الصعود حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة وظهر من تزاحمهن من السرو اليمنيين مدة مقامهم بمكة وصعودهم يوم فتح البيت المقدس وأشبهت الحال وتمادين على ذلك صدرا من النهار وانفسحن فى الطواف والحجر وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان وكان ذلك اليوم عندهن الاكبر ويومهن الازهر نفعهن الله نه وجعله خالصاً لكريم وجهه وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه فحظهن من ذلك كله النظر والاسف المستطير مستشعر فليس لهن سوى الطواف على البعد وهذا اليوم الذى هو من عام إلى عام فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الاعياد ويكثرن له من التأهب والاستعداد والله ينفعهن فى ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه وفى اليوم الثالث منه بكر الشيبيون إلى غسله بماء زمزم المبارك بسبب

أن كثيرا من النساء أدخلن أبنائهن الصغار والرضع معهن فيتحرى غسله تكريماً وتنزيها وإزالة لما يحيك من النفوس من هواجس الظنون فى من ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نجس فى ذلك الموطن الكريم والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه وربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك ولم يراعوا العلة التى غسل لها وكان منهم من توقف عن ذلك وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ولا يصوب العقل فى ذلك وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام وماج فى جنبات أركانه الكرام ثم انصب بإزاء الملتزم والركن الاسود المستلم أليس جديرا بأن تتلقاه الافواه فضلا عن الايدى وتغمس فيه الوجوه فضلا على الإقدام وحاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه أو شبهة من شبهات الظنون ترفع عنه والنيات عند الله تعالى مقبولة والمثابرة على تعظيم حرماته لرضاه موصولة وهو المجازى على الضمائر وخفيات السرائر لا إله سواه

شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نوفمبر وفى صبيحته بكر الأمير مكثر إلى الطواف على العادة فى ذلك رأس كل شهر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والاشياع والاتباع على الأسلوب المتقدم الذكر والزمزمى يصرخ فى مرقبته على عادته متناوباً مع أخيه صغيره وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر منه وهو أول يوم من دجنبر بعد طلوع الفجر كسف القمر وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف وغاب مكسوفا وانتهى الكسوف إلى ثلثه والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته وفى يوم الجمعة الثانى من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبحه واجتمعوا كلهم فى قبة زمزم وينادون بلسان واحد هللوا وكبروا يا عباد الله فيهلل الناس

ويكبرون وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون بل يقطعون قطعا جهليا لا قطعا عقليا أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل أنه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن فبكر الناس إلى القبةوكان فيها من الازدحام مالم يعهد مثله ومقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذى قد ظهر فيضه والسقاء فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤس الناس الماء بالدلاء قذفا فمنهم من يصيبه فى وجهه ومنهم من يصيبه فى رأسه إلى غير ذلك وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء والصبيان يفلجون بالتهليل والتكبير فكان مرأى هائلا ومسموعا رائعا لم يتخاص للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الاصوات واشتغال الاسماع والاذهان بها ودخل إلى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من لذالزحام عنتا ومشقة فسمع الناس يقولون زاد الماء سبع أذرع فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوى السبال البيض فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل نعم زاد الماء سبع أذرع لاشك فى ذلك فيقول أعن خبرة وحقيقة فيقول نعم ومن العجيب إن كان منهم من قال انه بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألفى الماء قدقارب التنور بنحو القامة فياعجباً لهذا الاختراع الكاذب نعوذبالله من الفتنةوكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الامر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك واستمرارها مع سوالف الازمنة عندعوام أهل مكة فتوجهنا ليلة الجمعة من أدلى دلوه فى البئر المباركة إلى أن ضرب فى صفح الماء وانتهى الحبل إلى حافة التنور وعقدفيه عقداً يصح عندنا القياس به فى ذلك فلما كان فى صبيحتها وتنادى الناس بالزيادة الزيادة الظاهرة خلص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبته ومعه من استصحب الدلو وأو دلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد بل كان من العجب إن عاد للقياس ليلة السبت فألقاه قد نقص يسير الكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من البركة ووضع

فيه من المنفعة| وفى صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على ما كان عليه ولو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزدلصب فى البئر صباً أولداسته الاقدام حتى تذيبه نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها وركوبها جوامح أهوائها وهذه الليلة المباركة أعنى ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الوارد فيها فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعة ينقسمون فى ذلك أقساما مباركة فشاهدنا ليلة السبت التى هى ليلة النصف حقيقة احتفالا عظيما فى الحرم المقدسة أثر صلاة العتمة جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرؤن فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله أحد عشر مرات فى كل ركعة إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة قد قدمت كل جماعة إماما وبسطت الحصر وأوقدت الشمع وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح ومصباح السماء الازهر الاقمر قد أفاض نوره على الأرض وبسط شعاعه فتلاقت الانوار فى ذلك الحرم الشريف الذى هو نور بذاته فيالك مرأى لايتخيله المتخيل ولا يتوهمه المتوهم فأقام الناس تلك اليلة على أقسام فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة وكانت سبع جماعات أو ثمانيا وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد وطائفة خرجت للاعتمار وطائفة آثرت الطواف على هذا كله أغلبها المالكية فكانت الليالى الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات ومحاسنها نفع الله بها ولا أخلانا من بركتها وفضلها وأوصل إلى هذه المثابة المقدسة كل شيق اليها بمنه وفى تلك الليلة المباركة شاهد أحمد ابن حسان منا أمراً عجباً هو من غرائب الأحاديث المأثورات فى رقة النفوس وذلك انه أصابه النوم عند الثلث الباقى من الليل فآوى إلى المصطبة التى تحف بها قبة زمزم مما يقابل الحجر الأسود وباب البيت فاستلقى فيها لينام فاذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بازائه مما يلى رأسه فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ويتبع ذلك بزفير وشهيق أحسن قراءة وأوقعها فى النفوس وأشدها تحريكا للساكن فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع وما فيه من التشويق والتخشيع إلى أن قطع القراءة وجعل يقول

إن كان سوء الفعال أبعدنى   فحسن ظنى إليك قربنى

وردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد وينشق عليه الفؤاد ومضى فى ترديد ذلك البيت ودموعه تكف وصوته ترق وتضعف إلى أن وقع فى نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه فما كان بين اعتراض هذا الخاطر بنفسه وبين وقوع الرجل مغشياً عليه من المصطبة إلى الأرض الا كلا ولا وبقى ملقاً كأنه لقى لا حراك به فقام ابن حسان مذعوراً لهول ماعاينه متردداً فى حياة الرجل أو موته لشدة تلك الوجبة والموضع من الأرض بائن الارتفاع وقام أحد من كان بإزائه نائما وأقاما متحيرين ولم يقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه إلى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت هكذا تتركون الرجل على مثل هذا الحال وبادرت إلى شىء من ماء زمزم فنضحت به وجهه ودنا المذكوران منه وأقاماه فعندنا أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما مخافة أن تثبت له صفة فى أعينهما وقام من فوره آخذاً إلى جهة باب بنى شيبة وبقيا متعجبين مما شاهداه وعض ابن حسان بنان الأسف على مافاته من بركة دعائه اذلم يمكنه الحال استدعائه منه وعلى أنه لم تثبت له صورة فى نفسه فكان يتبرك به متى لقيه ومقامات هؤلاء الاعاجم فى رقة الأنفس وتأثرها وسرعة انفعالها وشدة مجاهداتها فى العبادات وطول مثابرتها على أفعال البر وظهور بركاتها مقامات عجيبة شريفة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر من الشهر المذكور كسف القمر وانتهى الكسوف منه إلى مقدار ثلثين وغاب مكسوفا عند طلوع الشمس والله يلهمنا الاعتبار بآياته

شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر عرفنا الله فضله وحقه ورزقنا القبول فيه وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح لكن أمضى الأمير ذلك ووقع الايذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الاحد المذكور لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن إليهم لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر والله أعلم بذلك ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من

الآلات حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقا فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إماما لها فى ناحية من نواحى المسجد والحنبلية كذلك والحنفية كذلك والزيدية وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة وهي فى هذا العام أحفل جمًا وأكثر شمعا لان قوماً من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك فجلبوا لامام الكعبة شمعاً كثيراً من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار فجاءت جهة المالكية تروق حسناً وترتمى الانصار نوراً وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارىء يصلى بجماعة خلفه فيرتج المسجد لاصوات القراءة من كل ناحية فتعاين الابصار وتشاهد الاسماع من ذلك مرأى ومستمعاً تنخلع له النفوس خشية ورقة ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر ولم يحضر التراويح ورأى أن ذلك أفضل مايغتنم وأشرف عمل يلتزم وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم والشافعي فى التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التى هى عشر تسليمات ويدخل الطواف مع جماعة فإذا فرغ من الاسبوع وركع عاد لاقامة تراويح أخر وضرب بالفرقعة الخطية المتقدمة الذكر ضربة (يسمعها) المسجد لعلو صوتها كأنها ايذان بالعود إلى الصلاة فإذا فرغوا من تسليمتين عادوا لطواف اسبوع فإذا أكملوا ضربت الفرقعة وعادوا لصلاة تسليمتين ثم عادوا للطواف هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات فيكمل لهم عشرون ركعة ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة أولهم امام الفريضة وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن على الفنكى القرطبي وقراءته ترق الجمادات خشوعا وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل فى هذا الشهر المبارك وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة وهى لا محالة من جملة البدع المحدثة فى هذا المسجد المعظم قدسه الله والمؤذن الزمزى يتولى التسحير فى الصومعة التى فى الركن الشرقى من المسجد بسبب قربها من دار

الامير فيقوم فى وقت السحور فيها داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه وقد نصبت فى أعلى الصومعة خشبة طويلة فى رأسها عود كالذراع وفى طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير فإذا قرب تبين خيطى الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالاذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالاذان وفى ديار مكة كلها سطوح مرتفعة فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين تقدان فى أعلى الصومعة فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع وفى ليلة الثلاثاء الثانى من الشهر مع العشى طاف الامير مكثر بالبيت مودعا وخرج للقاء الامير سيف الاسلام (طغتكين) ابن أيوب أخى صلاح الدين وقد تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة ثم تواتر إلى أن صح وصوله إلى الينبوع وأنه عرج إلى المدينة لزيارة الرسول ﷺ وتقدمت أثقاله إلى الصفراء والتحدث به فى وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها وفتنة حدثت من أمرائها الكن وقع فى نفوس المكيين منه ايحاش خيفة واستشعار خشية فخرج هذا الامير المذكور متلقيا ومسلما وفى الحقيقة مستسلما والله تعالى يعرف المسلمين خيراً وفى ضحوة يوم الاربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور كنا جلوسا بالحجر المكرم فسمعنا دبادب الامير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه فبينا نحن كذلك دخل منصرفا من لقاء الأمير سيف الاسلام المذكور وطائفا بالبيت المكرم طواف التسليم والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته وقد شاع الخبر بنزول سيف الاسلام الزاهر وضرب أبنيته فيه ومقدمته من العسكر قد وصلت إلى الحرم وزاحمت الامير مكثر فى الطواف فبينا الناس ينظرون إليهم إذ سمعوا ضوضاء عظيمة وزعقات هائلة فما راعهم الامير سيف الاسلام داخلا من باب بنى شيبه ولمعان السيوف أمامهم يكاد يحول بين الابصار وبينهم والقاضى عن يمينه وزعيم الشيبيين عن يساره والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين والاصوات بالدعاء له ولاخيه صلاح الدين قد علت من الناس

حتى صكت الاسماع وأذهلت الاذهان والمؤذن الزمزمى فى مرقبته رافعا عقيرته بالدعاء له والثناء عليه وأصوات الناس تعلو على صوته والهول قد عظم مرأى ومستمعا فلحين دنو الامير من البيت المعظم أغمدت السيوف وتضاءلت النفوس وخلعت ملابس العزة وذلت الاعناق وخضعت الرقاب وطاشت الالباب مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار مؤتى الملك من يشاء ونازع الملك ممن يشاء سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح وقد نكس أذقانهم الخضوع وبلت سبالهم الدموع وطاف القاضى وزعيم الشيبيين بسيف الاسلام والامير مكثر قد غمره ذلك الزحام فأسرع فى الفراغ من الطواف وبادر إلى منزله وعندما أكمل سيف الاسلام طوافه صلى خلف المقام ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها ثم خرج على باب الصفا إلى السعى فابتدأه ماشيا على قدميه تواضعا وتذللا لمن يجب التواضع له والسيوف مصلوطة أمامه وقد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ماصنعوا أيضا فى الطواف فسعى على قدمية طريقين من الصفا إلى المروة ومنها إلى الصفا وهرول بين الميلين الاخضرين ثم قيده الاعياء فركب وأكمل السعى راكبا وقد حشر الناس ضحى يجنى وقتا ثم عاد هذا الامير إلى المسجد الحرام على حالته من الارهاب والهيبة وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة وقد بادر الشيبيون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه ولم يكن يوم فتحه وضم الكرسى الذى يصعد عليه فرقى الامير فيه وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب فاذا المفتاح قد سقط من كمه فى ذلك الزحام فوقف وقفة دهش مذعور ووقف الامير على الادراج فيسر الله للحين فى وجود المفتاح ففتح الباب الكريم ودخل الامير وحده مع الشيبى وأغلق الباب وبقى وجوه الاعزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسى فبعد لأى مافتح لأمرائهم القربين فدخلوا وتمادى مقام سيف الاسلام فى البيت الكريم مدة طويلة ثم خرج وانفتح الباب للكافة منهم فياله من ازدحام وتراكموا انتظام حتى صاروا كالعقد المستطيل وقد اتصلوا وتسلسلوا فكان يومهم

أشبه شىء بأيام السرور فى دخولهم البيت حسبما تقدم وصفه وركب الأمير سيف الاسلام وخرج إلى مضرب بنيته بالموضع المذكور وكان هذا اليوم بمكة من الايام الهائلة المنظر . العجيبة المشهد . الغريبة الشان . فسبحان من لا ينقضى ملكه ولا يبيد سلطانه . لا إله سواه وصحب هذا الامير جملة من حجاج مصر وسواها اغتناماً لطريق البر والامن فوصلوا فى عافية وسلامة والحمد لله وفى ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم فإذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الآذان وارتجت لها نواحى الحرم الشريف فبينا نحن نتطلع لاستعلام خبرها طلع علينا الامير مكثر وغاشيته الاقربون حوله وهو رافل فى حلة ذهب كأنها الجمر المتقد . يسحب أذيالها وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كورها على رأسه كأنها سحابة مركومة وهى مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الديبق المرسوم البديع الصنعة خلعها عليه الامير سيف الإسلام فوصل بها فرحا جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الاسلام إشارة بتكرمته وإعلاما بمأثرة منزلته فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ماوهبه من كرامة هذا الامير بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه والله يصلحه ويوفقه بمنه وفى يوم الجمعة وصل الامير سيف الاسلام للصلاة أول الوقت وفتح البيت المكرم فدخله مع الامير مكثر وأقام به مدة طويلة ثم خرجا وتزاحم الغز للدخول تزاحما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسى الذى يصعد عليه فلم يغنى عن ذلك شيئا وأقاموا على الازدحام فى الصعود بإشالة بعضهم على بعض وداموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب فخرجوا لاستماع الخطبة وأغلق الباب وصلى الامير سيف الإسلام مع الامير مكثر فى القبة العباسية فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا وركب إلى مضرب أبنيته وفى يوم الاربعاء العاشر منه خرج الامير المذكور بجنوده إلى اليمن والله يعرف أهلها من المسلمين فى مقدمه خيراً بمنه وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف فى قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الائمة فيه وكل وتر من الليالى العشر الاواخر يختم

فيها القرآن فأولها ليلة إحدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة وحضر الختمة القاضى وجماعة من الأشياخ فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيبا ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام وحلو قد أعدهما واحتفل فيهما ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشر سنة فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد إليها شمعا كثيراً ووضع فى وسط الحرم مما يلى باب بنى شيبة المحراب المربع من أعواد مشرجبة قد أقيم على قوايم أربع وربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديد الأطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه وأمعن الاحتفال فى هذا كله ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الالوان وحضر الامام الطفل فصلى التراويح وختم وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجال ونساء وهو فى محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمس المحدق به ثم برز من محرابه رافلا فى أفخر ثيابه بهيبة أمامية وسكينة غلامية مكحل العينين مخضوب الكفين إلى الزندين فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام فأخذه أحد سدنة تلك الناحية فى ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره فاستوى مبتسما وأشار على الحاضرين مسلما وقعد بين يديه قراء فابتدروا القراءة على لسان واحد فلما أكملوا عشراً من القرآن قام الخطيب فصدع بخطبته يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع وبين يديه فى درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع فى أيديهم ويرفعون أصواتهم يارب يا رب عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك والقراء يبتدون القراءة فى أثناء ذلك فيسكت الخطيب إلى ان يفرغوا ثم يعود لخطبته وتمادى فيها متصرفا فى فنون من التذكير وفى أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق كرمه الله فحسر عن ذراعيه مشيراً إليه وأردفه

بذكر زمزم والمقام فأشار إليهما بكلتا أصبعيه ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء ثم نزل وانفض ذلك الجمع العظيم وقد استظرف ذلك الخطيب واستنبل وإن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل والتذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الآذان ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع كالقاضى وسواه خصوا بطعام حفيل وحلواً على عادتهم فى مثل هذا المجتمع وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر ثم كانت ليلة خمس وعشرين فكان المختتم فيها الإمام الحنفى وقد أعد إبناً له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور فكان احتفال الإمام الحنفى لابنه فى هذه الليلة عظيماً أحضر فيه من ثريات الشمع أربعاً مختلفات الصنعة منها شجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ومنها غير مغصنة فصففت أمام حطيمه وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه وجلل ذلك كله سرج ومشاعيل وشمعاً فاستنار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من النور وأحضر الشمع فى أنوار الصفر ووضع المحراب العودى المشرجب فجلل دائره الأعلى كله شمعا وأحدق الشمع فى الأطوار به فاكتنفه هالات من نور ونصب المنبر قبالته مجللا أيضا بالكسوة الملونة واحتفال الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الاول فختم الصبي المذكور ثم برز من محرابه إلى منبره يسحب أذيال الخفر فى أثواب رائقة المنظر فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين وابتدأ خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياة مبين فكان الحال على طفولتها كانت أوقر من الاولى وأخشع والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع وحضر القراء بين يديه على الرسم الاول وفى أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة فيسكت خلال أكمالهم الآية التى انتزعوها من القرآن ثم يعود إلى خطبته وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أنوار الشمع بأيديهم ومنهم من يمسك المجمرة يستطع يعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع رفعوا أصواتهم بيارب يارب يكررونها

ثلاثا أو أربعا وربما جاراهم فى النطق بعض الحاضرين إلى أن فرغ من خطبته ونزل وجرى الامام أثره على الرسم من الاطعام لمن حضر من أعيان المكان اما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم ثم كانت ليلة سبع وعشرين وهى ليلة الجمعة بحساب يوم الاحد فكانت الليلة الغراء والختمة الزهراء والهيبة الموفورة الكملاء والحالة التى تمكن عند الله تعالى فى القبول والرجاء وأى حالة توازى شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وانها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة وأقيمت أزاء حطيم امام الشافعية خشب عظام بائنه الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الاعواد الوثيقة فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضاً ووصلت بالحطيم المذكور ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الاذرع المذكورة وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات فكانت الطبقة العليا فيها خشبة مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الاطراف لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم نصب عليها الشمع والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلا وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها وتدلت من جوانب هذه الالواح والخشب ومن جميع الاذرع المذكورة قناديل كبار وصغار وتخللها أشباه الاطباق المبسوطة من الصفر قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل نقلها فى الهواء وخرقت كلها ثقبا ووضعت فيها الزجاجات ذوات الانابيب من أسفل تلك الاطباق الصفرية لايزيد منها أنبوب على أنبوب فى القدر وأوقدت فيها المصابيح فجاءت كانها موائد ذوات أرجل كثيرة يشتعل نورا ووصلت بالحطيم الثانى الذى يقابل الركن الجنوبى من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة اتصلت إلى الركن المذكور وأوقد المشعل الذى فى رأس فحل القبة المذكورة وصففت طرة شباكها شمعا مما يقابل البيت المكرم وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على

الصفة المذكورة جللت كلها شمعاً ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الحرم في أنوار تناسبها كبراً وصفت تلك الأنوار على الكراسى التى يصرفها السدنة مطالع عند الايقاد وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعاً فى أنوار من الصفر فجاءت كانها دائرة نور ساطع وحدقت بالحرم المشاعيل وأوقد جميع ما ذكر وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة وقد وضعت بيد كل (واحد) منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا فوضعوها متقدة فى رؤس الشرفات وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الاربع فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة إيقادها فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمى الابصار وفى أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيارب يارب على لسان واحد فيرتج الحرم لأصواتهم فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الابصار شعاع تلك الانوار فلا تقع لمحة طرف الا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر فيتوهم المتوهم لهول مايعاينه من ذلك أن تلك الليلة المباركة تزهت لشرفها عن لباس الظلماء فزينت بمصابيح السماء وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة ثم قام وابتدأ بسورة القدر وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها قد انتهوا فى القراءة إليها وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيما لختمة المقام وحضروا متبركين بمشاهدتها وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث فى البيت العتيق حسبما تقدم الذكر أولا لهفيما سلف من هذا التقييد ووضع فى محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التى يصلى الناس خلفها فختم القاضى بتسليمتين وقام خطيباً مستقبل المقام والبيت العتيق فلم يتمكن سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام فلما فرغ من خطبته عاد الائمة لإقامة تراويحهم وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعا وأعينهم قد سالت دموعا والأنفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشراً بمن الله تعالى بالقول ومشعراً أنها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها فى التنزيل والله عز وجل لايخلى الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها انه كريم منان لا إله

سواه ثم ترتبت قراءة أيمة المقام الخمسة المذكورين أولا بعد هذه الليلة المذكورة بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور تتضمن التذكير والتحذير والتبشير بحسب اختيار كل واحد منهم ورسم طوافهم أثر كل تسليمتين باق على حاله والله ولى القبول من الجميع ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه فكان المختتم فيها سائر أيمة التراويح ملتزمين رسم الخطبة أثر الختمة والمشار اليه منهم المالكى فتقديم بأعداد أعواد بازاء محرابه نصبها ستة على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الارض بدون القامة يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط فأدير بالشمع أعلاها وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك وأحدق أيضا داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط فكان منظراً مختصراً ومشهدا عن احتفال المباهاة منزها موقراً رغبة فى احتفال الاجر والثواب ومناسبة لموضع هيئة المحراب نصيب للشمع فيه عوضا من الأنوار أثافى من الأحجار فجاءت الحال غريبة فى الاختصار خارجة عن محفل التعاظم والاستكبار داخلة مدخل التواضع والاستصغار واحتفل جميع المالكية للختمة فتناوبها أيمة التراويح فقضوا صلاتهم سراعا عجالا كاذ يلتقى طرفاها خوفاً واستعجالا ثم تقدم أحدهم فعقد حبوته بين تلك الاثافى وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبى ابن الامام الحنفى فأرسلها معادة إلى الاسماع ثقيلا لحنها على الطباع ثم انفض الجمع وقد جمد فى شئونه الدمع واختطف للحين من اثافيه ذلك الشمع أطلقت عليه أيدى الانتهاب ولم يكن فى الجماعة من يستحى منه أو يهاب وعند الله تعالى فى ذلك الجزاء والثواب انه سبحانه الكريم الوهاب وانتهت ليالى الشهر ذاهبة عنا بسلام جعلنا الله ممن ظهر فيها من الآثار ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه فى جوار الكعبة البيت الحرام وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الإسلام وأوزعنا حمداً يحق هذه النعمة وشكراً وجعلها للمعاد لنا ذخراً ووفانا عليها ثواباً من لديه وأجراً يرجى بفضله وكرمه انه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطراً انه الحنان المنان لارب سواه

(شهر شوال المبارك عرفنا الله بركته)

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من يناير يمن الله مطلعه ورزقنا الله بركته وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات وبعده تتصل ثلاثة الاشهر الحرم المباركات وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالى الحفيلة فى المسجد الحرام زاده الله تكريما جرى الرسم فى إيقاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم وأوقدت الصوامع من الاربع جهات من الحرم وأوقد سطح المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس وأقام المؤذن ليلته تلك فى أعلى سطح قبة زمزم مهللا ومكبراً ومسبحاً وحامداً وأكثر الائمة تلك الليلة احياء وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير تقبل الله من جميعهم انه سميع الدعاء كفيل بالرجاء سبحانه لا إله سواه فلما كان صبيحتها وقضى الناس صلاة الفجر لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس اليه رغبة فى شرف البقعة وفضل بركتها وفضل صلاة الامام خلف المقام ومن يأتم به فأول من بكر الشيبيون وفتحوا باب الكعبة المقدسة وأقام زعيمهم جالساً فى العتبة المقدسة وسائر الشيبيين داخل الكعبة إلى أنه أحسوا بوصول الأمير مكثر فنزلوا اليه وتلقوه بمقربة من باب النبى ﷺ فانتهى إلى البيت المكرم وطاف حوله أسبوعاً والناس قد احتفلوا لعيدهم والحرم قد غص بهم والمؤذن الزمزمى فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً فى ذلك مع أخيه فلما أكمل الأمير الاسبوع عمد إلى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الأسود فقعد بها وبنوه عن يمينه ويساره ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة فانشدوه واحداً أثر واحد إلى أن فرغوا من انشادهم وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة وكان ضحى

من النهار فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه وقد صك الحرم صوتها وهو لابس ثياب سواده فجاء إلى المقام الكريم وقام الناس للصلاة فلما قضوها رقى المنبر وقد ألصق إلى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة حيث الباب الكريم شارعا فخطب خطبة بليغة والمؤذنون قعود دونه فى أدراج المنبر فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره إلى أن فرغ من خطبته وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما أتاهم الله من فضله وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيما وجمعا بفضل الله تعالى مرحوماً جعله الله ذخيرة للمعاد كما جعل ذلك العيد الشريف فى العمر أفضل الاعياد بمنه وكرمه انه ولى ذلك والقادر عليه وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض فى زيارة الجبانة بالمعلى تبركا باحتساب الخطا اليها والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين من الصدر الاول وسواه رضى الله عن جميعهم وحشرنا فى زمرتهم ونفعنا بمحبتهم فالمرء كما قال صلى الله عليه وسلم مع من أحب وفى يوم السبت التاسع عشر منه والثالث لفبراير صعدنا إلى منى لمشاهدة المناسك المعظمة بها ولمعاينة منزل أكترى لنا فيها اعداداً للمقام بها أيام التشريق إن شاء الله فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحاً مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط عتيقة الوضع قد درست الا منازل يسيرة متخذة للنزول تحف بجانبى طريق كان ميدان انبساطا وانفساحا ممتد الطول فأول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره وبمقربة منها (مسجد البيعة) المباركة التى كانت أول بيعة فى الاسلام عقدها العباس رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم على الانصار حسب المشهور من ذلك ثم يفضى منه إلى (جمرة العقبة) وهى أول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها وهى على قارعة الطريق مرتفعة للمترا كم فيها من حصى الجمرات ولولا آيات الله البينات فيها

لكانت كالجبال الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الازمنة لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات لا إله سواه وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التى ذكرناها فيجعلها الرامى عن يمينه مستقبلا مكة شرفها الله ويرمى بها سبع حصيات وذلك يوم النحر أثر طلوع الشمس ثم ينحر أو يذبح ويحلق والمحلق حولها والمنحر فى كل موضع من منى لان منى كلها منحر كما قال ﷺ وقد حل له كل شىء إلا النساء والطيب حتى يطوف طواف الإفاضة وبعد هذه الجمرة العقبية موضع (الجمرة الوسطى) ولها أيضا علم منصوب وبينهما قدر الغلوة ثم بعدها يلتى (الجمرة الأولى) ومسافتها منها كمسافة الاخرى وفى وقت الزوال من ثانى يوم النحر ترمى فى الأولى سبع حصيات وفى الوسطى كذلك وفى العقبة كذلك احدى وعشرون حصاة وفى الثالث من يوم النحر فى الوقت بعينه كذلك على الترتيب المذكور فتلك اثنتان وأربعون حصاة فى اليومين وسبع رميت فى العقبة يوم النحر وقت طلوع الشمس كما ذكرناه وهى المحلات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب فتلك تكملة تسع وأربعين جمرة وفى أثر ذلك ينفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم واختصر فى هذا الزمان احدى وعشرون كانت ترمى فى اليوم الرابع على الترتيب المذكور وذلك لاستعجال الحاج خوفا من العرب الشعبيين إلى غير ذلك من محذورات الفتن المغيرات لآثار السنن فضى العمل اليوم على تسع وأربعين حصاة وكانت فى القديم سبعين والله يهب القبول لعباده والصادر من عرفات إلى منى أول مايلتى الجمرة الأولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبه وفى يوم النحر تكون جمرة العقبة أولى منفردة بسبع حصيات حسبما تقدم ذكره ولا يشترك معها سواها فى ذلك اليوم ثم فى اليومين بعده ترجع الآخرة على الترتيب حسبما وصفناه بحول الله عز وجل وبعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيراً ويلتى منحر الذبيح صلى الله عليه وسلم حيث فدى بالذبح العظيم وعلى المواضع المبارك مسجد مبنى وهو بمقربة من سفح نبير وفى موضع المنحر

المذكور حجر قد ألصق بالجدار المبنى فيه أثر قدم صغيرة يقال أنه أثر قدم الذبيح ﷺ عند تحركه فلان الحجر له بقدرة الله عز وجل اشفاقا وحنانا فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويفضى من ذلك إلى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى فى توجهك أعنى من العمور منها بالبنيان وأما الآثار القديمة فآخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد وهذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع والصومعة وسط رحبة المسجد وله فى القبلة أربعة بلاطات يشملها سقف واحد وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة وكفى بما ورد فى الاثر الكريم من أن بقعته الظاهرة مدفن كثير من الانبياء صلوات الله عليهم وبمقربة منه عن يمين المار فى الطريق حجر كبير مسند إلى صفح الجبل مرتفع عن الأرض يظل ما تحته ذكر أن النبي ﷺ قعد تحته مستظلا ومس رأسه المكرم فيه فلان له حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دور الرأس فيبادر الناس لوضع رؤوسهم فى ذلك الموضع تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله عز وجل فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة أخذنا فى الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله فى مباشرتها ووصلنا إلى مكة قريب الظهر والحمد لله على ما من به وفى يوم الأحد بعده وهو الموفى عشرين لشوال صعدنا إلى الجبل المقدس حراء وتبركنا بمشاهدة الغار فى أعلاه الذى كان النبي ﷺ يتعبد فيه وهو أول موضع نزل فيه الوحى عليه ﷺ ورزقنا شفاعته وحشرنا فى زمرته وأماتنا على سنته ومحبته وكرمه لارب سواه وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين منه وهو أول السادس من فبراير اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة بعد أن ندبهم القاضى إلى ذلك وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله فاجتمعوا فى هذا اليوم الرابع المذكور وقد أخلصوا النيات لله عز وجل وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق ثم أقبل القاضى بين رايتيه السوداوين لابساً ثياب البياض وأخرج مقام الخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا

ووضع على عتبة باب البيت المكرم وأخرج مصحف عثمان رضى الله عنه من خزانته ونشر بأزاء المقام المطهر فكانت دفته الواحدة عليه والثانية على الباب الكريم ثم نودى فى الناس بالصلاة جامعة فصلى القاضى بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين قرأ فى أحداهما بسبح اسم ربك الأعلى وفى الثانية بالغاشية ثم صعد المنبر وقد ألصق إلى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة فخطب خطبة بليغة وآلى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم وحضهم على التوبة والانابة لله عز وجل حتى نزفت دمعها العيون واستنفدت ماءها الشؤن وعلا الضجيج وارتفع الشهيق والنشيج وحول رداءه وحول الناس أرديتهم اتباعا للسنة ثم انفض الجميع راجين رحمة الله عز وجل غير قانطين منها والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية على الصفة المذكورة وقد نال الجهد من أهل الحجاز وأضر بهم القحط وأهلك مواشيهم الجدب لم يمطروا فى الربيع ولا الخريف ولا الشتاء إلا مطرا طلا غير كاف ولا شاف والله عز وجل لطيف بعباده غير مؤاخذهم بجرائمهم انه الحنان المنان لا رب سواه وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا إلى جبل أبى ثور لمعاينة الغار المبارك الذى أوى إليه النبى ﷺ مع صاحبه الصديق رضى الله عنه حسبما جاء فى محكم التنزيل العزيز وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولا فى هذا التقييد وولجناه من الموضى الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك قدسه الله لان مدخل النبى ﷺ كان منه وكان لاحد الصاعدين إليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة وفضيحة وذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة وعاود ذلك مراراً فلم يستطع حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك وبكوا له إشفاقا ولجؤا إلى الله عز وجل فى الدعاء فلم يغن ذلك شيئا وكان فيهم من هو أضخم منه فيسر الله عليه وطال تعجب الناس منه واعتبارهم وأعلمنا بعد انفصالنا فى تلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه عصمنا الله

من مواقف الفضيحة في الدنيا والآخرة وهذا الجبل صعب المرتقى جداً يقطع الانفاس تقطيعا لا يكاد يبلغ منتهاه إلا وقد ألقى بالايدى أعباء وكلالا وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه وطول الغار ثمانيه عشر شبراً وسعته أحد عشر شبراً فى الوسط منه وفى حافتيه ثلثا شبر وعلى الوسط منه يكون الدخول وسعة الباب الثانى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا لان له بابين حسبما ذكرناه أولا وفى يوم الجمعة بعده وصل السرو اليمنيون فى عدد كثير مؤملين زيارة قبر الرسول ﷺ وجلبوا ميرة إلى مكة على عادتهم فاستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيرا حتى أنهم أقاموه عوض نزول المطر ولطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة انه سبحانه لطيف بعباده لا إله سواه

شهر ذى القعدة عرفنا الله بمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء بموافقه الرابع عشر من شهر فبراير بشهادة ثبتت عند القاضى فى رؤيته وأما الأكثر الاغاب من أهل المسجد الحرام فلم يبصروا شيئاً وطال ارتقابهم إلى أثر صلاة المغرب وكان منهم من يتخيله فيشير إليه فإذا حققه تلاشى عنده نظره وكذب خبره والله أعلم بصحة ذلك وهذا الشهر المبارك ثانى الاشهر الحرم وثانى أشهر الحج أطلع الله هلاله على المسلمين بالامن والايمان والمغفرة والرضوان بعزته ورحمته وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبى ﷺ وهو مسجد حفيل البنيان وكان دار العبد الله بن عبد المطلب أبى النبى ﷺ وقد تقدم ذكره ومولده ﷺ صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار وفى وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا ومسحنا الخدود فى ذلك الموضع المقدس الذى هو مسقط لأكرم مولود على الأرض وممس لأطهر سلالة وأشرفها ﷺ ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم وبأزائه محراب حفيل القرنصة مرسومة طرته بالذهب وقد تقدم

الوصف لهذا كله وهذا الموضع المبارك هو شرقى الكعبة متصل بصفح الجبل ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبى قبيس وعلى مقربة منه أيضا مسجد عليه مكتوب هذا المسجد هو مولد على بن أبى طالب رضوان الله علية وفيه تربى رسول الله ﷺ وكان وكان داراً لابى طالب عم النبى ﷺ وكافله ودخلت أيضا فى اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها وفيها قبة الوحى وفيها أيضا مولد فاطمة رضى الله عنها وهو بيت صغير مائل للطول والمولد شبه صهريج صغير وفى وسطه حجر أسود وفى البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها رضى الله عنهما لاصق بالجدار ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين وعليهما حجران مائلان إلى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين ومسحنا الخدود فى هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس نشرات الموالد الكرام رضوان الله عليهم وفى الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبى ﷺ شبيه القبة وفيه مقعد فى الارض عميق شبيه الحفرة داخل فى الجدار قليلا وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور قيل أنه كان الحجر الذى كان غطى النبى ﷺ عند اختبائه فى الموضع المذكور صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وعلى كل واحد من هذه المواليد المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه إذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به ثم أعادها عليه وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور نفذ أمر الامير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل وانتهاب منزله وصرفه عن حجابة البيت الحرام طهره الله وذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق (ومن يرد فيه بالحاد يظلم نذقه من عذاب أليم) أعاذنا الله من سوء القضاء ونفوذ سهام الدعاء بمنه وفى هذه الايام السالفة من الشهر المذكور توالى مجيء السرو اليمنيين فى رفاق كثيرة بالميرة من الطعام وسواه وضروب الآدام والفواكه اليابسة فأرغدوا البلد ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر فى جهد ومشقة فهم رحمة لهذا البلد الامين ثم توجهوا إلى الزيارة

المباركة إلى التربة المباركة طيبة مدفن رسول الله ﷺ ووصلوا فى أسرع مدة قطعوا الطريق من مكة إلى المدينة فى يسير أيام ومن صحبهم من الحاج محمد صحبتهم وفى أثناء مغيبهم وصلت طوائف أخر منهم للحج خاصة لضيق الوقت عن الزيارة فأقاموا بمكة ووصل الزوار منهم فضاق بهم المتسع فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور فتح البيت العتيق وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبي المعزول هو أمثل طريقة منه على ما يذكر فازدحم السرو للدخول على العادة فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً إلى أن يلجوا على أعظم مشقة ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم فينحدر الفوج منهم على المصعد وفوج آخر صاعده فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم إلى بعض فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدون وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا إلى أن يميلوا فيقع البعض على البعض فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا فنهم سليم وغير سليم وأكثرهم إنما ينحدرون وثباً على الرؤس والاعناق ومن أعجب ما شاهدناه فى يوم الاثنين المذكور أن صعد بعض من الشيبيين أثناء ذلك الزحام يرومون إلى الدخول إلى البيت الكريم فلم يقدروا على التخلص فتعلقوا بأستار حافتى عضادتى الباب ثم ان احدهم تمسك باحدى الشرائط القنبية الممسكة للاستار إلى أن علا الرؤوس والاعناق فوطئها ودخل البيت فلم يجد موطئا لقدمه سواها لشدة تراصهم وتراكمهم وانضمام بعضهم إلى بعض وهذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الاعوام ولله القدرة المعجزة لا إله سواه وفى هذا اليوم المذكور الذى هو السابع والعشرون من ذى القعدة شمرت أستار الكعبة المقدسة إلى نحو قامة ونصف عن الجدار من الجوانب الاربعة ويسمون ذلك إحراما لها فيقولون أحرمت الكعبة وبهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر ولا تفتح من حين احرامها إلا بعد الوقفة فكان ذلك التشمير إيذانا بالتشمير للسفر وإيذانا بقرب وقت وداعها المنتظر لاجعله الله آخر وداع وقضى لنا إليها بالعودة وتيسير سبيل

الاستطاعة بعزته وقدرته وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور كان دخولنا إلى البيت الكريم على حال اختلاس وانتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام فدخلناه دخول وداع إذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه ولا سيما الاعاجم الواصلون مع الأمير العراقي فانهم يظهرون من التهافت عليه والبدار إليه والازدحام فيه ماينسي أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك والله عز وجل لايجعله آخر العهد ببيته الكريم ويرزقنا العود إليه على خير وعافية بمنه ولطيف صنعه وفي يوم احرام الكعبة المذكور أقلعت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التي كانت عليه ووضعت عوضها قبة الحديد اعداداً للاعاجم المذكورين لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فضلا عن غير ذلك لما هم عليه من صحة النفوس شوقاً إلى هذه المشاهد المقدسة وتطارحهم باحرامهم عليها والله ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهوا وإعجابا ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد إليه ففتح الباب الكريم وصعد مع بنيه السطح المبارك الاعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها في أوتاد الحديد المضروبة في السطح ويرسلونها إلى الارض فيربط فيها شبيه محمل من العود ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين فيصعد به على بكرة معدة لذلك في أعلى السطح المذكور فيتولى خياطة مامزقته الريح من الاستار فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبي المعزول إلى خطته على صحة الهنات المنسوبة إليه فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها فطال التعجب من ذلك والاعتبار وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة والحال تشبه بعضها بعضا (وان الظالمين بعضهم أولياء بعض) وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الأرض وهو حسبنا ونعم الوكيل وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة المذكور دخلنا دار الخيزران التي كان منها منشأ الاسلام

وهى بأزاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال رضى الله عنه ويدخل إليها على حلق كبير شبيه الفندق قد أحدقت به بيوت للكراء من الحاج والدار المكرمة دار صغيرة يجدها الداخل إلى الحق المذكور عن يساره وهى مجددة البناء أنفق فى بنائها جمال الدين المذكور أثره الكريم فى هذا المكتوب نحو الالف دينار نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء فيها مقعد النبى ﷺ والصخرة التى كان إليها مستنده وعن يمينه موضع أبى بكر الصديق وعن يمين أبى بكر موضع على بن أبى طالب رضى الله عنهما والصخرة التى كان إليها مستنده هى داخلة فى الجدار كشبه المحراب وفى هذا الدار كان اسلام عمر بن الخطاب ومنها ظهر الاسلام على يديه وأعزه الله به نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار العظمة وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم ونسبت إليهم صلوات الله عليهم أجمعين

شهر ذى الحجة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس وكان للناس فى ارتقابه أمر عجيب . وشأن من البهتان غريب . ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد فضلا عن غيره رد وتكذيب . وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين والأفق قد تكاثف نوره وتراكم غيمه إلى أن علته مع المغيب بعض حمرة من الشفق فطمع الناس فى فرجة من الغيم لعل الابصار تلتقطه فيها فبينماهم كذلك أن كبر أحدهم فكبر الجم الغفير لتكبيره ومثلوا قياماً ينتظرون مالا يبصرون ويشيرون إلى مايتخيلون حرصا منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة كان الحج لايرتبط الا بهذا اليوم بعينه فاختلقوا شهادات زورية ومشت منهم طائفة من المغاربة أصلح الله أحوالهم ومن أهل مصر وأربابها فشهدوا عند القاضى برؤيته فردهم أقبح رد وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح وفضحهم فى تزييف أقوالهم أخزى فضيحة وقال ياللعجب لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف

النسج لما قلته فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين لية وكان أيضا مما حكى من قوله تشوشت المغارب تعرضت شعرة من الحاجب فأبصروا خيالا ظنوه هلالا وكان لهذا القاضى جمال الدين فى أمر هذه الشهادة الزورية مقام من التوقف والتحرى حمده له أهل التحصيل وشكره عليه ذوو العقول وحق لهم ذلك فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة أتوالها من كل فج عميق فلو تسومح فيها بطل السعى وقال الرأى والله يرفع الالتباس والبأس بمنه فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ظهر الهلال أثناء فرج السحاب وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة فزعقت العامة زعقات هائلة وتنادت بوقفة الجمعة وقالت الحمد لله الذى لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة إذا لم تكن توافق يوم الجمعة ليست مقبولة ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأمولة تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ثم انهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضى فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكى الحق وتضحك الباطل فردها وقال ياقوم حتى م هذا التمادى فى الشهوة وإلى م تستنون فى طرق الهفوة وأعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثر فى أن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بهائم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة فإن كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة بأس إذ هو جائز عند أئمة المسلمين وان كانت يوم السبت فيها ونعمت واما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغرير بالمسلمين وافساد لمناسكهم لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة كما أنها عندهم جائزة يوم النحر فشكر جميع من حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق ودعوا له وأظهر من العامة الرضى بذلك وانصرفوا عن سلام والحمد لله على ذلك وهذا الشهر المبارك هو ثالث الاشهر الحرم وعشرة الأولى مجتمع الامم وموسم الحج الأعظم شهر العج والثج وملتقى وفود الله من كل أوب وفج مصاب الرحمة والبركات ومحل الموقف الأعظم بعرفات جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات وتعرى به من ملابس الاوزار والسيئات بمنه وكرمه انه أهل التقوى وأهل المغفرة والأمير العراقى منتظر لكشف هذا

الالباس عن الناس فى أمر الهلال لعله قد اتضح له اليقين فيه أن شاء الله وفى سائر هذه الايام كلها إلى هلم جرا تصل رفاق من السرو اليمنيين وسائر حجاج الآفاق لايحصى عددها الامحصى آجالها وأرزاقها لا إله سواه فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الامين الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها ولو أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع لضاقت عنه وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات فى اتساعها لهذا البشر المعجز احصاءه الا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها يتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهذا البلد الحرام عظم الله حرمته ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دبادب الأمير بكرة وعشية وفى أوقات الصلوات كأنها اشعار بالموسم ولا يزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات عرفنا الله بها القبول والرحمة وفى يوم الإثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر وصل الأمير عثمان بن على صاحب عدن خرج منها فاراً أمام سيف الاسلام المتوجه إلى اليمن وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لاتحصى كثرة لأنه طال مقامه فى تلك الولاية واتسع كسبه وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر لحقت جلبة حراريق الأمير سيف الإسلام فأخذت جميع مافيها من الاثقال وكان قد استصحب الخف النفيس الخطير مع نفسه إلى البر وهو فى جملة من رجاله وعبيده فسلم به ووصل مكة بعير موقرة متاعا ومالا دخلت على أعين الناس إلى داره التى ابتناها بها بعد أن قدم نفيس ذخائره وناض ماله وجملة رقيقه وخدمه ليلا وبالجملة فحاله لاتوصف كثرة واتساعا والذى انتهب له أكثر لأنه كان فى ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار وكانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلى يديه فاكتسب سحتاً عظيما وحصل على كنوز قارونية لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به ولا يدرى حال أمره مع صلاح الدين لما يكون والدنيا مفنية محبيها وآكلة بنيها وثواب الله خير ذخيرة وطاعته أشرف غنيمة لاإله سواه وبقيت الشهادة مضربة

فى أمر هذا الهلال المبارك الميمون إلى أن تواصلت الاخبار برؤيته ليلة الخميس
الذى يوافق الخامس عشر من مارس شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع
يمنيون وسواهم من الواصلين من المدينة المكرمة لكن بقى القاضى على ثباته
وتوقفه فى القبول وأرجأ الأمر إلى وصول المبشر المعلم بوصول الأمير العراقى
ليتعرف من قبله ماعند أمير الحاج فى ذلك فلما كان يوم الأربعاء السابع من
الشهر المذكور وصل البشر وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه
حذرا من حقد الخليفة على أميرهم مكثر لمذموم فعل صدر عنه فكان وصول هذا
البشير أماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة فوصل مبشرا ومؤنساً وأعلم برؤية الهلال
ليلة الخميس المذكور وتواترت الأنباء بذلك فصح الامر عند القاضى بذلك صحة
أوجبت خطبته فى ذلك اليوم على ماجرت به العادة فى اليوم السابع من ذى
الحجة أثر صلاة الظهر علم الناس فيها مناسكهم ثم أعلمهم ان غدهم هو يوم
الصعود إلى منى وهو يوم التروية وأن وقفتهم يوم الجمعة وأن الاثر الكريم فيها
عن رسول الله ﷺ بأنها تعدل سبعين وقفة ففضل هذه الوقفة فى الأعوام
كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود إلى
منى وتمادوا منها إلى عرفات وكانت السنة المبيت بها لكن ترك الناس ذلك
اضطراراً بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج فى طريقهم إلى عرفات
وصدر عن هذا الأمير عثمان المتقدم ذكره فى ذلك اجتهاد بل جهاد يرجى له به
المغفرة لجميع خطاياه إن شاء الله وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه شاكين فى الأسلحة
إلى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين
جبلين فينحدر الشعبيون من أحدهما وهو الذى عن يسار المار إلى عرفات
فينتهبون الحاج انتهاباً فضرب هذا الامير قبة من ذلك المضيق بين الجبلين بعد أن
قدم أحد أصحابه فصعد إلى رأس الجبل بفرسه وهو جبل كؤود فعجبنا من
شأنه وأكثر التعجب من أمر الفرس وكيف تمكن له الصعود إلى ذلك المرتقى
الصعب الذى لايرتقيه ...... فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الامير لهم فحصل

على أجرين أجر جهاد وحج لان تأمين وفد الله عز وجل فى مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها إلى يوم الجمعة كله فاجتمع بعرفات من البشر جمع لايحصى عدده إلا الله عز وجل ومزدلفة بين منى وعرفات من منى إليها مامن مكة إلى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها إلى عرفات مثل ذلك أو أشف قليلا وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعاً فلها ثلاثة أسماء وقبلها بنحو الميل وادى محسر وجرت العادة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء فى زمان زبيدة رحمها الله وفى وسط ذلك البسيط من الارض حلق فى وسطه قبة فى أعلاها مسجد يصعد اليه على أدراج من جهتين يزدحم الناس فى الصعود إليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها وعرفات أيضا بسيط من الارض مد البصر لو كان محشرا للخلائق لوسعهم يحدق بذلك البسيط الافيح جبال كثيرة وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة وفيه وحوله موقف الناس والعلمان قبله بنحو الميلين فما إمام العلمين إلى عرفات حل وما دونهما حرم وبمقربة منهما مما يلى عرفات بطن عرنة الذى أمر النبى ﷺ بالارتفاع عنه فى قوله ﷺ عرفات كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة فالواقف فيه لايصح حجة فيجب التحفظ من ذلك لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيرا من الحاج وحذروهم الزحمة فى النفر واستدروجهم بالعلمين اللذين أمامهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه فيبطلوا على الناس حجهم والمتحفظ لاينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس وجبل الرحمة المذكور منقطعة عن الجبال قائم فى وسط البسيط وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض وكان صعب المرتقى فأحدث فيه جمال الدين المذكور مآثره فى هذا التقييد ادراجا وطية من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة وأنفق فيها مالا عظيما وفى أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة رضى الله عنها ولا يعرف صحة ذلك وفى وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحول ذلك المسجد

المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفى جهة القبله منه جدار وقد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها وفى أسفل هذا الجبل المقدس عن يساره المستقبل للقبلة فيه دار عتيقة البنيان فى أعلاها غرف لها طيقان تنسب إلى آدم ﷺ وعن يسار هذه الدار فى استقبال القبلة الصخرة التى كان عندها موقف النبى ﷺ وهى فى جبل متطأ من وحول جبل الرحمة والدار المكرمة صهاريج للماء وجباب وعن يسار الدار أيضاً على مقربة منها مسجد صغير وبمقربة من العلمين عن يسار مستقبل القبلة مسجد قديم فسيح البناء بقى منه الجدار القبلى ينسب إلى إبراهيم ﷺ فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ثم يجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين أيضا فى استقبال القبلة وادى الاراك وهو أراك أخضر يمتد فى ذلك البسيط مع البصر امتداداً طويلا فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها وفى نحو الثلث الباقى من ليلة الجمعة المذكورة وصل أمير الحاج العراقى فضرب أبنيته فى البسيط الافيح مما يلى الجانب الايمن من جبل الرحمة فى استقبال القبلة والقبلة فى عرفات هى إلى مغرب الشمس لان الكعبة المقدسة فى تلك الجهه منها فأصبح يوم الجمعة المذكورة فى عرفات جمع لاشبيه له إلا الحشر لكنه إن شاء الله تعالى حشر للثواب مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط فى عرفات جمعاً أحفل منه ولا أرى كان من عهد الرشيد الذى هو آخر من حج من الخلفاء جمع فى الاسلام مثله جعله الله جمعاً مرحوما معصوما بعزته فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين وإلى الله عز وجل فى الرحمة متضرعين والتكبير قد علا وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع فما رؤى يوم أكثر مدامع ولا قلوباً خواشع ولا أعناقا لهيبة الله خوانع خواضع من ذلك اليوم فما زال الناس على تلك الحلة والشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط قرصها وتمكن وقت المغرب وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير

المذكور وأخذ السرو اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم فى جبال عرفات المتوارثة عن جد لجد من عهد النبى ﷺ لاتتعدى قبيلة على منزل أخرى وكان المجتمع منهم فى هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله وكذلك وصل الأمير العراقى فى جمع لم يصل قط مثله ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين واحدتهن خاتون ومن السيدات بنات الامراء كثير ومن سائر العجم عدد لايحصى فوقف الجميع وقد جعلوا قدوتهم فى النفر الإمام المالكى لان مذهب مالك رضى الله عنه يقتضى أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط الفرصة ويحين وقت المغرب ومن السرو اليمنيين من نفر قبل ذلك فلما أن حان الوقت أشار الامام المالكى بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الأرض ورجفت الجبال فياله موقفاً ما أهول مرآه وأرجى فى النفوس عقباه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وتغمده بنعماه انه منعم كريم حنان منان وكانت محلة هذا الأمير العراقى جميلة المنظر بهية العدة رائقة المضارب والابنية عجيبة القباب والاروقة على هيآت لم تر أبدع منها منظراً فأعظمها مرأى مضرب الامير وذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بنيان وفى داخله القباب المضروبة وهى كلها سواد فى بياض مرقشة ملونة كأنها أزاهير الرياض وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الاربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل فى البياض يستشعر الناظر اليها مهابة يتخيلها درقا لمطية قد جللتها من خرفات الاغشية ولهذا السرادق الذى هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم يفضى منها إلى الفضاء الذى فيه القباب وكان هذا الامير ساكن فى مدينة قد أحدق بها سورها تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله وهى من الابهات الملوكية المعهودة التى لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب وداخل تلك الابواب حجاب الامير وخدمه وغاشيته وهى أبواب مرتفعة يجىء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ

قد أحكمت اقامة ذلك كله أحراش وثيقة من الكتان يتصل بأوتاد مضروبة أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب ولساترا لامراء الواصلين صحبة هذا الامير مضارب دون ذلك لكنها على تلك الصفة وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة إلى ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة فى الآلة والعدة وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم الانحراف فى المكاسب والاموال ولهم أيضاً فى مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر . عجيبة الشكل . قد نصبت على محامل من الاعواد يسمونها القشاوات وهى كالتوابيت المجرفة هى لركابها من الرجال والنساء كالامهدة للأطفال تملأ بالفرش الوتيرة ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه فى مهادلين فسيح وبأزاءه معاد له أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى والقبة مضروبة عليهما فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أوكيف ما أحبا فعند ما يصلان إلى المرحلة التى يحيطان بها ضرب سرادقها للحين إن كانا من أهل الترفة والتنعم فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسى ينزلان عليه فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة شمس تصيبهما وناهيك من هذا الترفيه فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبا ودون هؤلاء فى الراحة راكبوا المحارات وهى شبيهة الشقادف التى تقدم وصفها فى ذكر صحراء عيذاب لكن الشقادف أبسط وأوسع وهذه أضم وأضيق وعليها أيضا ظلائل تقى حر الشمس ومن قصرت حاله عنها فى هذه الاسفار فقد حصل على نصب السفر الذى هو قطعة من العذاب (ثم يرجع القول) إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر فوصلوا مزدلفة مع العشاءين حسبما جرت به سنة النبى ﷺ واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج وأما مسجده

المذكور فعاد كله نوراً فيخيل للناظر اليه إن كواكب السماء كلها نزلت به وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة لان هؤلاء الاعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين أعظم الناس همة فى استجلاب هذا الشمع والاستكثار منه اضاءة لهذه المشاهد الكريمة وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه فيدخل منهم كل انسان بشمعة فى يده وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الامام الحنفى لأنهم على مذهبه وشاهدنا منه شمعا عظيما أحضر منه تنوء الشمعة منه بالصعبة كانه السرو وضع أمام الحنفى فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة وهو ليلة السبت فلما صلوا الصبح غدوا منه إلى منى بعد الوقوف والدعاء لان مزدلفة كلها موقف إلا وادى محسر ففيه تقع الهرولة فى التوجه إلى منى حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وهو المستحب ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى وكل ذلك واسع فلما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمى جمرة العقبة بسبع حصوات ثم نحروا أو ذبحوا وحلوا من كل شىء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ثم توجه أكثر الناس لطواف الافاضة ومنهم من أقام إلى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار إلى مكة فلما كان اليوم الثانى من يوم النحر عند زوال الشمس رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات وبالجمرة الوسطى كذلك وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء وبجمرة العقبة كذلك ولا يقفون بها اقتداء فى ذلك كله بفعل النبى ﷺ فود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة وهى يوم النحر أولى منفردة لا يخلط معها سواها وفى اليوم الثانى من يوم النحر بعد رمى الجمرات خطب الخطيب بمسجد الخيف ثم جمع بين الظهر والعصر وهذا الخطيب وصل مع الامير العراقى مقدماً من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما يذكر ويعرف بتاج الدين وظاهر أمره البلادة والبله لان خطبته أعربت عن ذلك ولسانه لا يقيم الاعراب فلما كان اليوم الثالث تعجل الناس فى الانحدار إلى مكة بعد أن كمل لهم رمى تسع واربعين جمرة سبع منها يوم النحر بالعقبه وهى المحللة ثم احدى

وعشرون فى اليوم الثانى بعد زوال الشمس سبعا سبعا فى الجمرات الثلاث وفى اليوم الثالث كذلك ونفر إلى مكة فمنهم من صلى العصر بالأبطح ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح ومضت السنة قديما باقامة ثلاث أيام بعد يوم النحر بمنى لا كمال رمى سبعين حصاة فوقع التعجيل فى هذا الزمان فى اليومين كما قال الله تبارك وتعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) وذلك مخافة بنى شعبة ومايطرأ من حرابة المكيين وقد كانت فى يوم الانحدار المذكور بين سودان أهل مكة وبين الاتراك العراقيين جولة وهوشة وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وفوقت القسى ورميت السهام وانتهب بعض أمتعة التجار لأن منى فى تلك الايام الثلاثه سوق من أعظم الاسواق يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخرز إلى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لانها مجتمع أهل الآفاق فوقى الله شر تلك الفتنة تسكيناً لها سريعاً وكانت عين الكمال فى تلك الوقفة الهنيئة وكمل للناس حجهم الحمد لله رب العالمين وفى يوم النحر المذكور سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الامير العراقى إلى مكة على أربعة جمال تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهر وراءه وابن عم الشيبى محمد بن اسماعيل معها لانه ذكر ان أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالا وقد تقدم ذكر ذلك فى العزلة الاولى فوضعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور اشتغل الشيبيون بأسبالها خضراء يانعة يقيد الأبصار حسناً فى أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب فيه فى الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم وهو وجهها المبارك بعد البسملة (إن أول بيت وضع للناس) الآية وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدائر صغار بيض فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً فكملت كسوتها وشمرت أذيالها الكريمة

صوناً لها من أيدى الأعاجم وشدة اجتذابها وقوة تهافتها عليها وانكبابها فلاح للناظرين منها أجمل منظر كأنها عروس جليت فى السندس الأخضر أمتع الله بالنظر اليها كل مشتاق إلى لقائها حريص على المثول بعنائها بمنه وفى هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقى فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ووصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤس بعض كأنهم فى غدير من الماء أمر لم ير أهول منه يؤدى إلى تلف المهج وكسر الأعضاء وهم فى خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقفون بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح إلقاء الفراش بنفسه على المصباح فعادت أحوال السرواليمنيين فى دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر حال تؤدة ووقار بالإضافة إلى هؤلاء الاعاجم الاغنام نفعهم الله بنياتهم وقد فقد منهم فى ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله والله يغفر للجميع وربما زاحمهم فى تلك الحال بعض نسائهم فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخاً فى مضيق ذلك المعتزل الذى حمى بأنفاس الشوق وطيشه والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته وفى ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك أثر صلاة العتمة نصب منبر الوعظ أمام المقام فصعده واعظ خراسانى البشارة مليح الاشارة يجمع بين اللسانين عربى وعجمى فأتى فى الحالين لسحر الحلال من البيان فصيح المنطق بارع الالفاظ ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم فيهزهم اضطراباً ويذيبهم زفرات وانتحاباً فلما كانت الليلة الاخرى بعدها وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفى فصعد أثر صلاة العتمة أيضاً شيخ أبيض السبال رائع الجلال بارع التمام فى الفضل والكمال فصدع بخطبة انتظمت آية الكرسى كلمة كلمة ثم تصرف فى أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضاً حرك بها القلوب حتى أطارها وأورثها احتداماً بالخشية بعد استعارها وفى أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ فتحار له الالباب ويملك كل نفس منه الاغراب والاعجاب فكأنما

هو وحي يوحي وهو الذى مشى به وعاظ هذه الجهات المشرقية من إلقاء المسائل اليهم وإفاضة شآبيب الامتحان عليهم من أعجب الامور المعربة عن غريب شأنهم والناطقة بسحر بيانهم وليست فى فن واحد إنما هى فى فنون شتى وربما قصد بها التعنيت والتنكيب فيأتون بالجواب كخطفة البرق وارتداد الطرف والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وبين أيدى هؤلاء الوعاظ قراء ينغمون بالقراءة فيأتون بألحان تكسب الجماد طربا وأريحية كأنها المزامير الداوودية فلاتدرى من أى أحوال هذا المجتمع تعجب والله يؤتى الحكمة من يشاء لا إله سواه وسمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث إلى خمسة من أجداده جد عن جد نسقامسلسلا من أبيه اليهم على اتصال كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم ومكانته من التذكير والوعظ فهو معرق فى الصنعة الشريفة تليد المجد فيها وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام نزهة الله وشرفه سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب شيبة ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق وفى ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم والله غالب على أمره لا إله سواه وفى عشى يوم الاحد الموفى عشرين من الشهر المذكور وهو أول إبريل كان تبريزنا إلى محلة الامير العراقى بالزاهر وهو على نحو من ميلين من البلد وقد كمل اكتراؤنا إلى الموصل وهو أمام بغداد بعشر أيام عرفنا الله الخير والخيرة فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق ونعيد وداعه فلما كان ضحوة يوم الخميس الثانى والعشرين من ذى الحجة المذكورة أقلعت المحلة على تؤدى ورفق بسبب البطىء والتأخر ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع الذى أقلعت منه بمقربة من بطن مر والله كفيل بالسلامة والعصمة بمنه فكانت مدة مقامنا بمكة قدسها الله من يوم وصولنا إليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين إلى يوم اقلاعنا من الزاهر وهو الخميس الثانى والعشرين لذى الحجة من السنة المذكورة ثمانية أشهر وثلث شهر

التى هى بحسب الزائدة والناقص من الاشهر مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات جعلها الله لذاته وجعل القبول لها موافقا لمرضاته بمنه غبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام يوم عرفة وثانى يوم النحر ويوم الأربعاء الذى هو الحادى والعشرون لذى الحجة قبل يوم الخميس يوم اقلاعنا من الزاهر والله لايجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه ثم اقلعنا من ذلك الموضع أثر صلاة الظهر من يوم الخميس إلى بطن مر وهو واد خصيب كثير النخل ذوعين فواره سيالة الماء تسق منها أرض تلك الناحية وعلى هذا الوادى قطر متسع وقرى كثيرة وعيون ومنه تجلب الفواكه إلى مكة حرسها الله فأقنا به يوم الجمعة لسبب عجيب وذلك أن الملكة خاتون بنت الامير مسعود ملك الدروب والارمن وما يلى بلاد الروم وهى إحدى الخواتين الثلاث اللاتى وصلن للحاج مع أمير الحاج أبى المكارم طاشتكين مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة وله يتولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد وخاتون هذه أعظم الخواتين قدرا بسبب سعة مملكة أبيها والمقصود من ذكر أمرها أنها أسرت من بطن مر ليلة الجمعة إلى مكة فى خاصة من خدمها وحشمها فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور فوجه الامير ثقاة من خاصة أصحابه يستطلعونها فى الانصراف وأقام بالناس منتظرا لها فوصلت عتمة يوم السبت وأجيلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون فمنهم من يقول أنها انصرفت أنفة لبعض ماانتقدته على الامير ومنهم من قال ان نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها إلى المثابة المكرمة ولا يعلم الغيب إلا الله وكيف ماكان الامر فقد كفى الله العطلة بسببها وأطلق سبيل الحاج ولله الحمد على ذلك وأبو هذه المرأة المذكورة الامير مسعود كما ذكرناه وهو فى بسطة من ملكه واتساع من أمرته يركب له على ماحقق عندنا أكثر من مائة ألف فارس وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها ويركب له أيضا نحو اثنا عشر ألف فارس ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج منها سقى الماء

للسبيل سببا عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد واستجلبت لما تختص به من الكسوة والازودة وغير ذلك نحو المائة بعير وأمرها يطول وصفها وسنها نحو خمسة وعشرين عاما والخاتون الثانية أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين الذى كان صاحب الشام رحمه الله ولهذه أفعال كثيرة من البر وخاتون الثالثة ابنة الدقوس صاحب اصبهان من بلاد خراسان وهى أيضا كبيرة القدر عظيمة الشان منافسة فى أفعال البر وشأنهن جمع عجيب جداً فى ماهن بسبيله من الخبر والاحتفال فى الأبهة الملوكية ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذى الحجة المذكور ونزلنا بمقربة من عسفان ثم أسرينا إليها نصف الليل وصبحناها بكرة يوم الاحد وهى فى بسيط من الارض بين جبال وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضى الله عنه وشجر المقل فيها كثير وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة غير معمور قد أثر فيه القدم وأوهنته قلة العمارة ولزوم الخراب فاجتزناها بأميال ونزلنا مريحين قائلين فلما كان أثر صلاة الظهر أقلعنا إلى خليص فوصلناها عشى النهار وهى أيضا فى بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها جبل فيه حصن مشيد فى قنته وفى البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب وبها عين فوارة قد أحدثت لها أخادير فى الارض مشربة يستقى منها على أفواه كالآبار يجدد الناس بها الماء لقلته فى الطريق بسبب القحط المتصل والله يغيث بلاده وعباده وأصبح الناس بها مقيمين يوم الإثنين لارواء الإبل واستصحاب الماء وهذه الجملة العراقية ومن انضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من الواصلين محبة أمير الحاج المذكور جمع لا يحصى عدده إلا الله تعالى يغص بهم البسيط الافيح ويضيق عنهم المهمة الصحصح فترى الأرض تميد بهم ميدا وتموج بجميعهم موجا فتبصر منهم بحرا طامى العباب ماؤه السراب وسفنه الركاب وشرعه الظلائل المرفوعة والقباب تسير سير السراب وسفنه الركاب وشرعه الظلائل المرفوعة والقباب تسير سير السحب المتراكمة يتداخل بعضها على بعض ويضرب بعضها جوانب بعضهم فتعاين لها تزاحما فى البراح

المنفسح يهول ويروع واصطكا كانبع المحارات فيه بعضه ببعض مقروع فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى لم يشاهد من أعاجيب الزمان مايحدث به ويتخف السامع بغرايته والقدرة والقوة لله وحده وحسبك أن النازل فى منزل من منازل هذه المحلة متى خرج عنها لبعض حاجة ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضع ضل وتلف وعاد منشودا فى جملة الضوال وربما اضطر به الحال إلى الوصول إلى مضرب الأمير ورفع مسألته إليه فيأمر أحد المنشدين ببريحة والهاتفين بأوامره ممن قد أعد لذلك آن يردفه خلفه على جمل ويطوف به المحلة العجاجة وهو قد ذكر له اسمه واسم جماله واسم البلد الذى هو منه فيرفع عقيرته بذلك معرفا بهذا الضال ومناديا باسم الجمال وبلده إلى أن يقع عليه فيؤديه إليه ولو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه إلا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقا فهذا من بعض عجائب شؤن هذه المحلة وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف ولاهلها من قوة الجدة واليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله والملك بيد الله يؤتيه من يشاء ولهؤلاء النسوة الخواتين فى كل عام إذا لم يحججن بأنفسهن نواضح مسبلة مع الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل فى المواضع المعروف فيها الماء فى الطريق كله وبعرفات وبالمسجد الحرام فى كل يوم وليلة فلهن فى ذلك أجر عظيم وما التوفيق إلا بالله جل جلاله فتسمع المنادى على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملؤنها ويقول المنادى فى إشادته بصوته أبقى الله الملكة خاتون ابنة الملك الذى من أمره كذا ومن شأنه كذا ويحليه بحلاه أعلانا باسمها وإظهاراً لفعلها واستجلابا للدعاء لها من الناس والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وقد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون وأنها عندهم بمنزلة السيدة أو يليق بهذا اللفظ الملوكى النسائى ومن عجيب هذه المحلة أيضا على عظمها وكبرها وكونها وجود دنيا بأسرها أنها إذا حطت رحالها ونزلت منزلها ثم ضرب الامير طبله للانذار بالرحيل ويسمونه الكوس لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها الا كلا ولافلا

يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة إلا والركائب قد أخذت سبيلها كل ذلك
من قوة الاستعداد وشدة الاستظهار على الاسفار والحول والقوة لله وحده
لا إله سواه وإسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجالة بأيديهم فلا تبصر
قشاوة من القشاوات إلا وأمامها مشعل فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة
توضح غسق الظلماء وتباهى بها الأرض أنجم السماء والمرافق الصناعية وغيرها
من المصالح الدينيه والمنافع الحيوانية كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة ووصفها
يطول والاخبار عنها لا تنحصر فلما كان ظهر يوم الإثنين أثر الصلاة أقلعنا
من خليص مرتحلين وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة
ثم ضرب الكوس فأقلعنا وأسرينا إلى ضحى من النهار ثم نزلنا مريحين إلى أول
الظهر من يوم الثلاثاء ثم أقلعنا من منزلنا ذلك إلى واد يعرف بوادى السمك
اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى فنزلناه مع العشاء الآخرة وأصبحنا به
مقيمين يوم الاربعاء لتجديد حمل الماء وهو بهذا الوادى فى مستنقعات وربما
حفر عليه فى الرمل فأقلعنا منه أول ظهر يوم الاربعاء المذكور ثم أجزنا مع
الليل عقبة محجرة كؤوداً ذهب فيها من الجمال كثير ونزلنا فى بسيط من الارض
ونمنا إلى نصف الليل ثم رحلنا فى مهمه أفيح بسيط ممتد مد البصر ورملة منثالة
فشيت الجمال فيها دون مقطرة لانفساح طريقها ثم نزلنا مريحين قائلين يوم
الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين فلما
كان أول الظهر رحلنا إلى مقربة من بدر فنزلنا بائتين ثم قمنا قبل نصف الليل
فوصلنا بدراً وقد ارتفع النهار وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن فى
ربوة مرتفعة ويدخل إليها على بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة وموضع
القليب الذى كان بإزائه الوقعة الإسلامية التى أعزت الدين وأذلت المشركين
هو اليوم نخيل وموضع الشهداء خلفه وجبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة
عن يسار الداخل منها إلى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبيه كثيب رمل
ممتد وهذه التسمية لاشاعة لهج بها أكثر المسلمين وذلك أنهم يزعمون أن أصوات

الطبول تسمع بها كل يوم جمعة كأنها آثار انذارات باقية بما سلف من النصر النبوى فى ذلك الموضع والله أعلم بغيبه وموضع عريش النبى ﷺ يتصل بسفح جبل الطبول المذكور وموضع الوقيعة أمامه وعند نخيل القليب مسجد يقال انه مبرك ناقة النبى ﷺ وصح عندنا على زعمة أحد الاعراب الساكنين ببدر أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور لكن عين لذلك كل يوم اثنين ويوم خميس فعجبنا من زعمه كل العجب ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى وبين بدر والصفراء بريد والطريق إليها فى وادى بين جبال تتصل بها حدائق النخيل والعيون فيه كثيرة وهو طريق حسن وبالصفراء حصن مشيد ويتصل به حصون كثيرة منها حصنان يعرفان بالتامين وحصن يعرف بالحسنية وآخر يعرف بالجديد إلى حصون كثيرة وقرى متصلة

شهر محرم سنة ثمانين وخمسمائة عرفنا الله بركته وبركة سنته وخصنا فيه برحمته وتكفلنا بعصمته

استهل هلاله ليلة السبت بموافقة الرابع عشر لشهر إبريل ونحن مقلعون من بدر إلى الصفراء فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة بدر حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين والحمد لله على ذلك وكان نزولنا بالصفراء أثر صلاة العشاء الآخرة فاصبحنا يوم السبت مستهل الهلال المذكور مقيمين مريحين بها ليتزود الناس منها الماء ويأخذون نفس استراحة إلى الظهر ومنها إلى المدينة المكرمة إن شاء الله ثلاثه أيام فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور وتمادى السير بنا إلى أثر صلاة العشاء الآخرة والطريق فى واد متصل بين جبال فنزلنا ليلة الأحد ثم أقلعنا نصف الليل وتمادى سيرنا إلى ضحى من النهار فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم ويقال ان على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتل الجن بها وتعرف أيضا بالروحاء والبئر المذكور متناهية بعد الرشاء لا يكاد

يلحق قعرها وهى معينة ورحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الأحد وتمادى بنا السير إلى أثر صلاة العشاء الآخرة فنزلنا شعب على رضى الله عنه وأقلعنا منه نصف الليل إلى تربان إلى البيداء ومنها تبصر المدينة المكرمة فنزلنا ضحى يوم الإثنين الثالث محرم المذكور بوادى العقيق فعلى شفيره مسجد ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال ومن ذى الحليفة حرم المدينة إلى مشهد حمزة إلى قباء وأول ما يظهر للعين منارة مسجدها بيضاء مرتفعة ثم رحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الاثنين المذكور وهو السادس عشر لابريل فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء والتربة البيضاء والبقعة المشرفة بمحمد سيد الانبياء ﷺ صلاة تتصل مع الأحيان والاناء وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة فوقفنا بأزائها مسلمين ولترب جنباتها المقدسة مستلمين وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس والمنبر واستلمنا أعواد المنبر القديمة التى كانت موطأ الرسول ﷺ والقطعة الباقية من الجزع الذى حن اليه ﷺ وهى ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر وعن يمينك إذا استقبلت القبلة فيها ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة وكان من الاتفاق السعيد لنا أن وجدنا بعض فسحة فى تلك الحال لاشتغال الناس باقامة مضاربهم وترتيب رحالهم فتمكنا من الغرض المقصود وفزنا بالمشهد المحمود وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين صديق الاسلام وفاروقه وانصرفنا إلى رحالنا مسرورين ولنعمة الله علينا شاكرين ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر إلا وقد قضيناه ولا غرض من أغراضنا المأمولة إلا وبلغناه وتفرغت الخواطر للاياب للوطن نظم الله الشمل وتمم علينا الفضل والحمد لله على ماأولاه وأسداه وأعاده من جميل صنعه وأبداه فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه لا إله سواه

ذكر مسجد رسول الله ﷺ وذكر روضته المقدسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الاربع بلاطات مستديرة به ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق والجهة الجوفية لها أيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات والجهة الغربية المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق وانتظمت من بلاطاتة مما يلي الصحن فى السعة اثنين ونيفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها عجيب لايكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله والصفحات الاربع محرفة من القبلة تحريفاً بديعا لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى صلاته لأنه ينحرف عن القبلة وأخبرنا الشيخ الإمام العالم الورع بقية العلماء وعمدة الفقهاء أبو إبراهيم اسحاق ابن إبراهيم التونسى رضى الله عنه أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اخترع ذلك فى تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلا وأخذت أيضا من الجهة الشرقية سعة بلاطتين فانتظم داخلها من أعمدة الابلطه ستة وسعة الفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبراً وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ومابين الركن الشرقى إلى الركن الجوفى صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ومن الركن الجوفى إلى الغربى صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ومن الركن الغربى إلى القبلى صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً وفى هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها هو قبالة رأس النبى ﷺ وطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه أربعة أشبار وفى الصفحة التى بين الركن الجوفى والركن الغربى موضع عليه ستر مسبل يقال أنه كان مهبط جبريل عليه السلام فجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبراً وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت وينتهى الازار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيراً وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب مقدنصف راشبر مسوداً مشققا مترا كما

كامع طول الأزمنة والأيام والذى يعلوه من الجدار شبابيك عود متصلة بالمسك
الأعلى لان أعلى الروضه المباركة متصل بسمك المسجد وإلى حيز أزار الرخام
تنتهى الأستار وهى لازوردية اللون مختمة بخواتيم بيض مثمنة ومربعة وفى داخل
الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض تحف بها فمنظرها منظر رائق بديع الشكل وفى
أعلاها رسم مائل إلى البياض وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى ﷺ مسمار فضة
هو قبلة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام والى قدميه ﷺ رأس أبى بكر
الصديق رضى الله عنه ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله
عنهما فيقف المسلم مستدير القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف يمينا
إلى وجه أبى بكر ثم إلى وجه عمر رضى الله عنهما وأمام هذه الصفحة المكرمة
نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة وفيها إثنان من ذهب وفى جوفى الروضة
المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب قيل أنه كان بيت فاطمة رضى
الله عنها ويقال هو قبرها والله أعلم بحقيقة ذلك وعن يمين الروضة المكرمة المنبر
الكريم ومنه إليها ثنتان وأربعون خطوة وهو فى الحوض المبارك الذى طوله
أربع عشر خطوة وعرضه ست خطا وهو مرخم كله وارتفاعه شبر ونصف وبينه
وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر وفيها جاء الأثر أنها روضة من
رياض الجنة ثمانى خطوات وفى هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة وحق لهم ذلك
وبازائها لجهة القبلة عمود يقال أنه مطبق على بقية الجزع الذى حن للنبى ﷺ وقطعة
منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم
فيها وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد
وسعته خمسة أشبار وطوله خمسة خطوات وأدراجه ثمانية وله باب على هيئة
الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة وطوله أربعة أشبار ونصف شبر والمنبر مغشى
بعود الأبنوس ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر قد طبق عليه بلوح من
الأبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه فيدخل الناس أيديهم إليه
ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم وعلى رأس رجل المنبر اليمنى حيث

يضع الخطيب يده إذا خطب حلقه فضه مجوفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه صفة لاصغراً لأنها أكبر منها لاعبة تستدير فى موضعها يزعم الناس أنها لعبة الحسن والحسين رضى الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات الله وسلامه عليه وطول المسجد الكريم مائة خطوة وستة وتسعون خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وعدد سواريه مائتان وتسعون وهى أعمدة متصلة بالسمك دون قسى تنعطف عليها فكأنها دعائم قوائم وهى من حجر منحوت قطعاً قطعاً ململة مثقبة توضع أنثى فى ذكر ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن تتصل عموداً قائماً وتكسى بغلالة جيار ويبالغ فى صقلها ودلكها فتظهر كأنها رخام أبيض والبلاط المتصل بالقبلة من الخمسة بلاطات المذكورة تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق والمحراب فيها ويصلى الامام فى الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق وبينها وبين الروضة والقبر المقدس محمل كبير مدهون عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد وبأزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك ويليهما فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة هى على سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض يفضى إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو كان طريق عائشة إليها وبأزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما ولا شك أن الموضع هو موضع الخوخه المفضية لدار إبى بكر التى أمر النبى ﷺ بإبقائها خاصة وأمام الروضة المقدسة أيضاً صندوق كبير هو للشمع والأنوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك وسدنته فتيان أحابيش وصقالب ظراف الهيئات نظاف الملابس والشارت والمؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال رضى الله عنه وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج إليه

فيه وبأزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة وعلى رأس المحراب الذى فى جدار القبلة داخل المقصورة حجر مربع أصفر قدر شبر فى شبر فى ظاهر البريق والبصيص يقال أنه كان مرآة كسرى والله أعلم بذلك وفى أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت فى جداره فيه شبه حق صغير لا يعرف من أى شىء هو ويزعم أيضاً أنه كان كأس كسرى والله أعلم بحقيقة ذلك كله ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع ازاراً مختلف الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلات الأغصان بثمرها والمسجد كله على تلك الصفة لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ومن جهة الجوف أيضاً والغربى والشرقى الناظران إلى الصحن مجردان أبيضان ومقرنصان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الاصبغة إلى ما يطول وصفه وذكره من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة وموضوعها أشرف ومحلها أرفع من كل ما تزين به وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا لم يبق منها مفتحاً سوى أربعة فى الغرب منها اثنان يعرف الواحد بباب الرحمة والثانى بباب الخشية وفى الشرق اثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام والثانى بباب الرخاء ويقابل باب جبريل عليه السلام دار عثمان رضى الله عنه وهى التى استشهد بها ويقابل الروضة المكرمة من هذه الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصلى رحمه الله المشهور خبره وأثره وقد تقدم ذكر مآثره وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح إلى روضته تتنسم منها رحاء وريحانا وفى القبلة باب واحد صغير مغلوق وفى الجوف أربعة مغلقة وفى الغرب خمسة مغلقة أيضاً وفى الشرق خمسة أيضاً مغلقة فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر باباً وللمسجد المبارك ثلاث صوامع إحداهما فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة والاثنتان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع

ذكر المشاهد المكرمة التي ببقيع الغرقد
وصفح جبل أحد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه وهو بقبلى الجبل المذكور والجبل جوفى المدينة وهو على مقدار ثلاثة أميال وعلى قبره رضى الله عنه مسجد مبنى والقبر برحبة جوفى المسجد والشهداء رضى الله عنهم بإزائه والغار الذى أوى إليه النبي ﷺ بإزاء الشهداء أسفل الجبل وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب إلى حمزة ويتبرك الناس بها وبقيع الغرقد شرقى المدينة تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي ﷺ أم الزبير بن العوام رضى الله عنه وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدنى رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي ﷺ وعليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط وهو المعروف بأبى شحمة وهو الذى جلده أبوه الحد فمرض ومات رضى الله عنهما وبإزائه قبر عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وعبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي ﷺ وبإزائهم روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي ﷺ ويليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن على رضى الله عنهما وهى قبة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه ورأس الحسن إلى رجلى العباس رضى الله عنهما وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف ببيت الحزن يقال انه الذى آوت اليه والتزمت فيه الحزن على موت

بنيها المصطفى ﷺ وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم على رضى الله عنها وعن بنيها ومشا هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والانصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب ماضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنها وعن بنيها وقباء قبلى المدينة ومنها اليها نحو الميلين وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة الطريق اليها بين حدائق النخل المتصلة والنخيل محدق المدينة من جهاتها وأعظمها جهة القبلة والشرق وأقلها جهة الغرب والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد وهو مربع مستوى الطول والعرض وفيه مأذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى ﷺ وعليه حلق قصير شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبى ﷺ وفى قبلته محاريب وله باب واحد من جهة الغرب وهو سبعة بلاطات فى الطول ومثلها فى العرض وفى قبلة المسجد دار لبنى النجار وهى دار أبى أيوب الانصارى وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر وبازائها على الشفير حجر متسع شبيه البيلة يتوضأ الناس فيه ويلى دار بنى النجار دار عائشة رضى الله عنها وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم وبازائها بئر أريس حيث تفل النبى ﷺ فعاد ماؤها عذبا ماكان أجاجا وفيها وقع خاتم من يد عثمان رضى الله عنه والحديث مشهور وفى القرية تل مشرف يعرف بعرفات يدخل اليه على دار الصفة حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعرفون بأهل الصفة وسمى ذلك التل عرفات لأنه كان موقف النبى ﷺ يوم عرفة ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لاتحصى وللمدينة المكرمة أربعة أبواب وهى تحت سورين فى كل سور باب يقابله آخر الواحد منها كله حديد ويعرف باسمه باب الحديد ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة وهو مغلق ثم باب البقيع وقد تقدم ذكره وقبل وصولك سور

المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذى منع النبي ﷺ عند حزب الاحزاب وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبي ﷺ وعليها حلق عظيم مستطيل ومنبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل وتحته سقايتان مستطيلتان باستطالة الحلق وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار فحصل الحوض محدقاً بجدارين وهو يمد السقايتين المذكورتين ويهبط اليهما على أدراج عددها الخمسة والعشرين درجاً وماء هذه العين المباركة يعم أهل الأرض فضلا عن أهل المدينة فهى لتطهر الناس واستقائهم وغسل أثوابهم والحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء خاصة صوناً له ومحافظة عليه وبمقربة منه مما يلى المدينة قبة حجر الزيت يقال ان الزيت رشح للنبي ﷺ من ذلك الحجر ولجهة الجوف منه بئر بضاعة وبازائها لجهة اليسار جبل الشيطان حيث صرخ لعنه الله يوم أحد حين قال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزاب وهو خرب قيل ان عمر رضى الله عنه بناه لعزاب المدينة وأمامه لجهة الغرب على البعد بئر رومة التى اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفاً وفى طريق أحد مسجد على رضى الله عنه ومسجد سلمان رضى الله عنه ومسجد الفتح الذى انزلت فيه على النبي ﷺ سورة الفتح وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط اليها على أدراج وماؤها معين وهى بمقربة من الحرم الكريم وبقبلى هذا الحرم المكرم دار أمام دار الهجرة مالك ابن أنس رضى الله عنه ويطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة ومشاهدها على جهة الاقتضاب والاختصار والله ولى التوفيق ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة الداخلة مدخل السمعة والشهرة أن احدى الخواتين المذكورات وهى بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها وذكر أبيها وصلت عشى يوم الخميس السادس لمحرم ورابع يوم وصولنا المدينة إلى مسجد رسول ﷺ راكبة فى قبتها وحولها قباب كرائمها وخدمها والقراء أمامها والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد

يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ومشت إلى أن سلمت على النبي ﷺ والخول أمامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها إشارة بذكرها ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة والناس يتزاحمون عليها والمقامع تدفعهم عنها ثم صلت في الحوض بإزاء المنبر ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال أنه كان مهبط جبريل عليه السلام وأرخى الستر عليها وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة فما زالت في موضعها إلى الليل وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعية الاصفهاني الذي ورث النباهة والوجاهة في العلم كابراً عن كابر لعقد مجلس وعظ تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم فتأخر وصوله إلى هدء من الليل والحرم قد غص بالمنتظرين والخاتون جالسة موضعها وكان سبب تأخره تأخر أمير الحاج لأنه كان على عدة من وصوله إلى أن وصل ووصل الأمير وقد أعد لرئيس العلماء المذكور وهو يعرف بهذا الاسم توارثه عن أب فأب كرسي بإزاء الروضة المقدسة فصعده وحضر قراؤه أمامه فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة وتلاحين مطربه مشجيه وهو يلحظ الروضه المقدسه فيعلن بالبكاء ثم أخذ في خطبه من انشائه سحرية البيان ثم سلك في أساليب من الوعظ باللسانين وأنشد أبياتاً بديعة من قوله منها هذا البيت وكان يردده في كل فصل من ذكره ﷺ ويشير إلى الروضة

هاتيك روضته تفوح نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام وقال عجباً للالكن الأعجم كيف ينطق عند أفصح العرب وتمادى في وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة وتهافتت عليه الأعاجم معلنين بالتوبة وقد طاشت ألبابهم وذهلت عقولهم فيلقون نواصيهم بين يديه فيستدعي جلمين ويجزها ناصية ناصية ويكسو عمامته

المجزوز الناصية فيوضع عليه لحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو جلسائه ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى إلى أن خلع منها عدة وجز نواصى كثيرة ثم ختم مجلسه بأن قال معشر الحاضرين قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل وهذه الليلة بحرم رسوله ﷺ ولابد للواعظ من كدية وأنا أسألكم حاجة أن ضمنتموها لى أرقت لكم ماء وجهى فى ذكرها فأعلن الناس كلهم باسعاف وشهيقهم قد علا فقال حاجتى أن تكشفوا رؤسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبي الكريم فى أن يرضى عنى ويسترضى الله عز وجل لى ثم أخذ فى تعداد ذنوبه والاعتراف بها فأطار الناس عمائمهم وبسطوا أيديهم للنبي ﷺ داعين له باكين متضرعين فما رأيت ليلة أكثر دموعا ولا أعظم خشوعا من تلك الليلة ثم انفض المجلس وانفض الامير وانفضت الخاتون من موضعها وعند وصول صدر الدين المذكور أزيل الستر عنها وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة فى ردائها فعاينا من أمرها فى الشهرة الملوكية عجبا وأمر هذا الرجل صدر الدين عجيب فى قعوده وأبهته وملوكيته وفخامة آلته وبهاء حالته وظاهر مكنته ووفور عدته وكثرة عبيده وخدمته واحتفال حاشيته وغاشيته فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك وله مضرب كالتاج العظيم فى الهواء مفتح على أبواب على هيئة غريبة الوضع بديعة الصنعة والشكل تطل على المحلة من بعد فتبصره سامياً فى الهواء وشأن هذا الرجل العظيم لايستوعبه الوصف شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشراً ويحن للزائر كرامة وبراً على عظيم حرمته وفخامة بنيته وهو قد أعطى البستطين علما وجسما أستجزناه فأجازنا نثراً ونظما وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات وفى يوم الجمعة المذكور وهو السابع من محرم شاهدنا من أمور البدعة أمراً ينادى له الاسلام يالله يا للمسلمين وذلك أن الخطيب وصل للخطبة فصعد منبر النبي ﷺ وهو على ما يذكر على مذهب غير مرضى ضد الشيخ الامام العجمى الملازم صلاة الفريضة فى المسجد المكرم فذلك

على طريقة من الخير والورع لاثقة بإمام مثل ذلك الموضع الكريم فلما أذن المؤذن قام هذا الخطيب المذكور للخطبة وقد تقدمته الرايتان السوداوان وقد ركزتا بجانبي المنبر الكريم فقام بينهما فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ويتخطون الرقاب كدية على الاعجام والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق فمنهم من يطرح الثوب النفيس ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطيها وقد أعدها لذلك ومنهم من يخلع عمامته فينبذها ومنهم من يتجرد عن برده فيلقي به ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح بفضلة من الخام ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينار والدينارين إلى غير ذلك ومن النساء من تطرح خلخالها وتخرج خاتمها وتلقيه إلى ما يطول الوصف له من ذلك والخطيب فى أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس بلحظات يكررها الطمع ويعيدها الرغبة والاستزادة إلى أن كاد الوقت ينقضي والصلاة تفوت وقد ضج من له دين وصحة من الناس وأعلن بالصياح وهو قاعد ينتظر اشتفاف صبابة الكدية وقد أراق عن وجهه ماء الحياء فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة وصلى بالناس وانصرف أهل التحصيل باكين على الدين يائسين من فلاح الدنيا متحققين أشراط الآخرة ولله الأمر من قبل ومن بعد وفى عشى ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة فياله وداعا عجبا ذهلت النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا واستشرت به النفوس التياعا حتى ذابت انصداعا وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين أنه لموقف تنفطر له الأفئدة وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة فوا أسفاه وا أسفاه كل يبوح لديه باشواقه ولا يجد بداً من فراقه فما يستطيع إلى الصبر سبيلا ولا تسمع في هول ذلك المقام إلا رنة وعويلا وكل بلسان الحال ينشد

محبتى تقتضى مقامى وحالتى تقتضى الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزل الكرامة وجعله شفيعا لنا يوم القيامة وأحلنا من فضله فى جواره دار المقامة برحمته إنه غفور رحيم جواد كريم وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الجمعة

وفى ضحوة يوم السبت الثامن لمحرم المذكور والحادى والعشرين من شهر إبريل كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام فنزلنا يوم الاثنين ثالث يوم رحيلنا المذكور بوادى العروس فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه فى الأرض بئرا فينبع منها ماء عذب معين تروى الامة التى لايحصى لها عدد من هذه المحلة مع جمالها التى تنيف على عددها ولله القدوة سبحانه وتعالى وصعدنا من وادى العروس إلى أرض نجد وخلفنا تهامة ورائنا ومشينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولا يبلغ مداها وتنسمنا نسيم نجد وهوائها المضروب به المثل فانتشعت النفوس والأجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا على ماء يعرف بماء العسيلة ثم نزلنا يوم الأربعاء خامس رحيلنا بموضع يعرف بالنقرة وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام وجدنا أحدها مملوء بماء المطر فعم جميع المحلة ولم ينضب على كثرة الاستماحة وصفة مراحل هذا الأمير بالحاج أن يسرى من نصف الليل إلى ضحية ثم ينزل إلى أول الظهر ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ثم يقوم نصف الليل هذا دأبه ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم وسادس يوم رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهى مصانع مملوءة بماء المطر وهذا الموضع هو وسط أرض نجد وما أرى أن فى المعمور أرضاً أفسح بسيطاولاأوسع أنفا ولا أطيب نسيما ولا أصح هواء ولاأمد استواء ولا أصفى جواً ولاأنقى تربة ولا أنعش للنفوس والأبدان ولاأحسن اعتدالا فى كل الأزمان من أرض نجد ووصف محاسنها يطول والقول:

فيها يتسع وفى يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار نزلنا بالحاجر والماء فيه فى مصانع وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر وكنا نتخوف فى هذا الطريق قلة الماء لاسيما مع عظم هذا الجمع الأنامى والأنعامى الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه فأنزل الله من سحب رحمته ماأعاد الغيطان غدرانا وأجرى المسول سيولا وصير الوهاد مملوءة عهاداً فكنا نبصر مذانب الماء سائحة على وجه الأرض فضلا من الله ونعمة ولطفا من الله بعباده ورحمة والحمد لله على ذلك وفى اليوم المذكور أجزنا بالحاجر واديين سيالين وأما البرك والقرارات فلا تحصى وفى يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة وهى موضع معمور وفى بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون والماء فيه فى آبار كثيرة إلا أنها زعاق ومستنقعات وبرك وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن ووقع الناس على قرم وعيمة فبادروا الابتياع لذلك بشفق الخام التى يستصبحونهالمشبارات الأعراب لانهم لا يبايعونهم إلا بها وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق وهو جبل فى بيداء من الارض وفى صفحة الاعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح ثم رحنا من ذلك الموضع وبتنا بوادى الكروش على غير ماء ثم أسرينا منه وأصبحنا على فيد يوم الاحد وهى حصن كبير مبرج مشرف فى بسيط من الارض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان وهو معمور بسكان من الاعراب ينتعشون مع الحاج فى التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق وهناك يترك الحاج بعد زادهم إعداداً للارمال من الزاد عند انصرافهم ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم وهذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة شرفها الله أو أقل سيراً ومنها إلى الكوافة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة طيبة والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع كثيرة ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأهبة إرهابا للمجتمعين به من الاعراب لئلا يداخلهم الطمع فى الحاج فهم يلحظونهم مستشرفين إلى مكانهم لكنهم لايجدون اليهم سبيلا والحمد لله والماء

بهذا الموضع كثير فى آبار تمدها عيون تحت الارض ووجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء من المطر فانتزف للحين وامتلأ أيدى الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة إلى وإلى جانبها كبش أو كبشان بحسب القدرة والوجد فعم جميع المحلة غنم العرب وكان ذلك اليوم عيداً من الاعياد وكذلك عمتهم أيضاً جمالهم لمن أراد الابتياع منهم من الجمالين وسواهم للاستظهار على الطريق ، وأما السمن والعسل واللبن فلم يبق إلا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها إلى ظهر يوم الإثنين بعده ثم أسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم وهو أول يوم من مايه بموضع يعرف بالاجفر وهو مشتهر عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة ثم أسرينا منها ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزرود وهي وهدة فى بسيط من الأرض فيها رمال منهالة وبها حلق كبير داخله دويرات صغار شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات بالقصر والماء بهذا الموضع فى آبار غير عذبة فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين لمحرم والثالث لمايه بموضع يعرف بالثقلبية ولها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه إلا الحلق وبازائه مصنع عظيم كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلاها والمهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات وكان فيه من ماء المطر ماعم جميع المحلة ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساءواتخذوا به سوقاعظيمةحفيلة للجمال والكباش والسمنواللبن وعلف الابل فكان يوم سوق نافقةوبقى من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل التى تعم جميع المحلة ثلاثة أحدها زبالة والثانى واقصة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة وبينهذه المناهل مياه موجودة لكنها لاتعم وهذه الثلاثة المذكورة هى التى تعم الناس والابل وهى التى تردها رفها وفى هذا المنهل الذى ثعلبية شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمراً هائلا لايكاد يشاهد مثله فى تغلب

المدن والحصون بالقتال وحسبك إن مات فى ذلك الموضع ضغطا لشدة الزحام وغطا تحت الماء بالاقدام سبعة رجال بادروا لمورد الماء فحصلوا على مورد الفناء رحمهم الله وغفر لهم وفى ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم وهى مصنع وقد بنى له فى مايعلوه من الأرض مصب يؤدى الماء إليه على بعد وأحكم ذلك احكاما يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاعة ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة شماء وكل مجتاز عليه لابد أن يلقى عليه حجراً ويقال ان أحد الملوك رجمه لأمر استوجب به ذلك والله أعلم وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب وبادروا للحين بما لديهم من مرافق الادم يبيعونها من الحاج وكان هذا المصنع مملوء من ماء المطر فغمر الناس وعمهم والحمد لله وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التى من بغداد إلى مكة فى آثار زبيدة ابنة جعفر ابن أبى جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه انتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت فى هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سلكت هذا الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوقى وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافياً فاراق الناس مياههم وجددوا مياها طيبة واستبشروا بكثرة الماء وجددوا شكراً لله على ذلك وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها لايكاد يقطعه السابح إلا عن جهد ومشقة وكان الماء قد علا فيه أزيد من قامتين فتنعم الناس من مائه سباحة واغتسالا وتنظيف أثواب وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده وزوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة دون ماء فأرسل الله من رحمته ما أترعها ماء معداً لصدر الحاج فضلا ولطفاً بوفده المنقطعين إليه ورحنا من ذلك الموضع المذكور وبتنا بموضع يعرف بالتنانير وكان فيه أيضاً مصنع مملوء ماء وأسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم واجتزنا سحراً (بزبالة) وهى قرية معمورة وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب

ومصنعان للماء وآبار وهى من مناهل الطريق الشهيرة ونزلنا عند ماارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيثمين وفيها مصنعان للماء ولا نكاد نمر بحول الله يوما إلا والماء يوجد فيه والشكر لله على ذلك وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء فسقى الناس بالليل واستقوا وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة وليست بالطويلة الكؤود ولكن ليس بالطريق وعر غيرها فهى شهيرة بهذا السبب ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء وأجزنا مصانع كثيرة وما منها مصنع إلا والى جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب والطريق كلها مصانع ورضى الله عن التى اعتنت بسبيل وفدالله هذا الاعتناء ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعدة بواقصة وهى وهدة من الأرض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير وبأزائه أثر بناء وهى معمورة بالأعراب وهى آخر مناهل الطريق وليس بعدها إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات ومنها إلى الكوفة ثلاثة أيام وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة وهم مستجلبون إليهم الدقيق والخبز والتمر والادام والفواكه الحاضرة فى ذلك الوقت ويهنىء الناس بعضهم بعضاً بالسلامة والحمد لله عز وجل على مامن به من التيسير والتسهيل حمداً يستوجب المزيد ويستصحب من كريم صنعه المعهود وبتنا ليلة الأربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف بلورة وفيها مصنع كبير وجده الناس مملوءاً فجددوا الاستسقاء ورفهوا الابل ثم أسرينا منها وأجزنا سحر يوم الأربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء وفيه أيضاً مصنع ماء وله ستة مخازن وهى صهاريج صغار تؤدى الماء إلى المصانع استقى الناس فيها وسقوا وكثر المصانع حتى لاتكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها والحمد لله على مننه وسابغ نعمته وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون وهى منارة فى بيداء من الأرض لابناء حولها قد قامت فى الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بديعة ومن

غريب أمرها أنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها فتلوح كظهر الشيهم وللناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من اثباته وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج مشيدة وبأزائه مصنع عظيم وجد مملوء ماء والحمد لله على مامن به واجتزنا عشي يوم الخميس المذكور على العذيب وهو واد خصب وعليه بناء وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة وأعلمنا أن بمقربة منه بارقاً ووصلنا منه إلى الرحبة وهي بمقربة منه وفيها بناء وعمارة ويجر الماء فيها من عين نابعة فى أعلى القرية المذكورة وبتنا أمامها بمقدار فرسخ ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجتزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشارع من ماء الفرات وأصبحنا بالنجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء وهو صلب من الأرض منفسح متسع للعين فيه مزاد استحسان وانشراح ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور والحمد لله على ما أنعم به من السلامة

ذكر مدينة الكوفة حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لاتزال تضربها وكفاك بتعاقب الأيام والليالي محيياً ومفنياً وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير فى الجانب القبلي منه خمسة أبلطة وفى سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ولا قسي عليها على الصفة التي ذكرناها فى مسجد رسول الله ﷺ وهي فى نهاية الطول متصلة بسقف المسجد فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها فما أرى فى الأرض مسجداً أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفاً ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة فمنها بيت بأزاء المحراب

عن يمين المستقبل القبلة يقال أنه كان مصلى إبراهيم الخليل ﷺ وعليه ستر أسود صوناً له ومنه يخرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه وعلى مقربة منه مما يلى الجانب الأيمن من القبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير وهو محراب أمير المؤمنين على أبى طالب رضى الله عنه وفى ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فالناس يصلون فيه باكين داعين وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلى المتصل بآخر البلاط الغربى شبيه مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج هو موضع مفار التنور الذى كان آية لنوح عليه السلام وفى ظهره خارج المسجد بيته الذى كان فيه وفى ظهره بيت آخر يقال أنه كان متعبد إدريس ﷺ ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال أنه كان منشأ السفينة ومع آخر هذا الفضاء دار أبى طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال أنه كان بيت ابنة نوح ﷺ وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناه حسبما نقلوه إلينا والله أعلم بصحته ذلك كله وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه فى قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وفى جوفى الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار وفى غربى المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجى ميتاً على مايذكر ويقال أن قبره فيه والله أعلم بصحة ذلك وفى هذا المشهد بناء حفيل على ماذكر لنا لأنا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك لأنا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت وفى غدائه رحلنا ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلى الجانب الشرقى والجانب الشرقى كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر ورحلنا من

ذلك الموضع وبتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة ثم جئناها يوم الأحد المذكور

ذكر مدينة الحلة حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابى مستدير بها وهى على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقى ويمتد بطولها ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية وهى قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا فديارها بين حدائق النخيل وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط تحف من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظما وضخامة ترتبط إلى خشب مثبتة فى كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة أمر الخليفة بعقده على الفرات اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله وكانوا قبل ذلك يعبرون فى المراكب فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة فى مغيبهم ولم يكن عند شخوصهم إلى مكة شرفها الله وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد وهذا النهر كاسمه فرات هو من أعذب المياه وأخفها وهو نهر كبير زخام تصعد فيه السفن وتنحدر والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها فى بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالا ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها فحرثها لاحد لاتساعه وانفساحه فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح وللنفس مزاد انبساط وانفساح والأمن فيها متصل بحمد الله سبحانه وتعالى

شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمنه وبركته

هلاله على الكمال من ليلة الإثنين بموافقة الرابع عشر من مايه استهل هلاله ونحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحلة وفى ضحوة يوم الإثنين المذكور رحلنا وأجزنا جسراً على نهر يسمى النيل وهو فرع متشعب من الفرات وكان

علية ازدحام غرق كثير من الناس والدواب فى الماء فتنحينا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية والحمد لله ومن مدينة الحلة يتسلل الحاج إرسالا وأفواجا أفواجا فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر لا يعرج المستعجل على المعتذر ولا المتقدم على المتأخر فحيثما شاؤا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذى كانت الأفئدة ترجف له بدارا للرحيل واستعجالا للقيام فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس فيقوم عجلا وجلا ثم يتحقق أنه من أضغاث أحلامه فيعود إلى منامه ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها ولتراكموا وقوعا بعض على بعض والأمير طاشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام إلى أن يتقدم جميع الحاج ثم يتوجه إلى حضرة خليفته وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة وطريقته فى الحزم وحسن النظر طريقة سديدة وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة نفعه الله ونفع المسلمين به وفى عصر يوم الإثنين المذكور نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة كثيرة الخصب كبيرة الساحة متدفقة فيها جداول الماء وارفة الظلال بشجرات الفواكه من أحسن القرى وأجملها وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدوبة يصعد إليها وينحدر عنها فتعرف القرية بها وتعرف أيضاً بحصن بشير وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات فى هذا الوقت الذى هو نصف مايه ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثانى لصفر فنزلنا قائلين ضحوته بقرية تعرف بالفراش كثيرة العمارة يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر وقرى هذه الطريق

من الحلة إلى بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع وفى هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار ثم رحلنا منها ونزلنا عشى النهار بقرية تعرف بزريران وهذه القرية من أحسن قرى الأرض وأجملها منظراً وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطاً وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسقى شرقيها والفرات يسقى غربيها وهى كالعروس بينهما والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين ومن شرف هذه القريه أيضاً أن بإزائها لجهة الشرق منها إيوان كسرى وأمامها بيسير مداينه وهذا الإيوان بناء عال فى الهواء شديد البياض لم يبق من قصوره إلا البعض فعايناها على مقدار الميل سامنة مشرفة مشرقة وأما المداين نخراب اجتزنا عليها سحر يوم الأربعاء الثالث لصفر فعاينا من طولها واتساعها مرأى عجيباً ومن فضل هذه القرية أيضاً أن بالشرق منها بمقدار نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسى رضى الله عنه فما اختصت تربتها بهذا الدفين المبارك رضى الله عنه إلا لفضل تربتها والقرية على شط دجلة وهى تعترض بينهما وبين المشهد الكريم المذكور وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور فى القلب ويبعث النفس دائما على الانبساط والأنس فلا تكاد تجد فيها الاجذلان طربا وإن كان نازح الدار مغتربا حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منها فلما نفحتنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها أحسسنا من نفوسنا على حال وحشة الاغتراب دواعى من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهبت بنا محركات من الاطراب اذكرتنا معاهد الأحباب فى ريعان الشباب هذا للغريب النازح الوطن فكيف للوافد فيها على أهل وسكن

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد إلى الأوطان كل غريب

وفى سحر يوم الأربعاء المذكور رحلنا من القرية المذكورة واجتزنا على مداين كسرى حسبما ذكرناه وانتهينا إلى صرصر وهى أخت زريران المذكورة

حسنا أو قريب منها ويمر بجانبها القبلي نهر كبير متفرع من الفرات عليه جسر معقود على مراكب تحف بها من الشط إلى الشط سلاسل حديد عظام على الصفة التي ذكرناها في جسر الحلة فعبرناه وأجزنا القرية ونزلنا قائلين وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ وبهذه القرية سوق حفيلة ومسجد جامع كبير جديد وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسناً وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتهما عن وصفهما وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ومنها انصبابها إلى البحر ومجراهما من الشمال إلى الجنوب وحسبهما ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما النيل ما هو مذكور مشهور ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور وجئنا بغداد قبيل العصر والمدخل إليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها

ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى

هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وهي بالاضافة إلى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظمأ وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ففتن الهوى الا أن يعصم الله منها مخوفة وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الأنفة والاباء ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير

مثواهم كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم يسحبون أذيالهم
إشراً أو بطراً ولا يغيرون فى ذات الله منكراً يظنون أن أسنى الفخار
فى سحب الازار ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور فى النار
يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً وما منهم من يحسن لله قرضاً فلا نفقة فيها إلى من
دينار تقرضه وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه لاتكاد تظفر من خواص أهلها
بالورع العفيف ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الاعلى من ثبت له الويل فى
سورة التطفيف لايبالون فى ذلك بعيب كأنهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب
فالغريب فيهم معدوم الارفاق متضاعف الانفاق لايجد من أهلها إلا من يعامله
بنفاق أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة
على شرط اصطلاح بينهم وانفاق فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها
ومائها ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها أستغفر الله الافقهاءهم المحدثين
ووعاظهم المذكرين لاجرم أن لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه
والتبصير والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير مقامات تستنزل لهم من رحمة الله
تعالى مايحط كثيرا من أوزارهم ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ويمنع
القارعة الصماء أن تحل بديارهم لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد ويرومون
تفجير الجلامد فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعتهم من واعظ يتكلم فيه فالموفق
منهم لايزال فى مجلس ذكر أيامه كلها لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة فأول من
شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه
المدرسة النظامية والمشار إليه بالتقديم فى العلوم الاصولية حضرنا مجلسه بالمدرسة
المذكورة أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر
وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة فتوقوا وشوقوا وأتوا
بتلاحين معجبة . ونغمات محرجة مطربة . ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب
خطبة سكون ووقار وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل
وايراد حديث رسوله ﷺ والتكلم على معانيه ثم رشقته شآبيب المسائل من كل

جانب فأجاب وما قصر وتقدم وما تأخر ودفعت إليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة فى يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينه ولم تقصر عن ارسال عبرتها فيه النفس المستكينه ولا سيما آخر مجلسه فانه سرت حميا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعا وفجرتها دموعا وبادر التائبون إليه سقوطا على يده ووقوعا فكم ناصية جز وكم مفاصل من مفاصيل التائبين طبق بالموعظة وحزا فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة وتتغمد الجناة وتستدام العصمة والنجاة والله تعالى يجازى كل ذى مقام عن مقامه ويتغمد ببركته العلماء الأولياء عباده العاصيين من سخطه وانتقامه برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لارب سواه ولا معبود إلا إياه وشهدنا له مجلسا ثانيا أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمه الشافعية ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس فأخذ الامام المتقدم الذكر فى وعظه مسروراً بحضوره ومتجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندى المتقدم الذكر فى هذا التقييد المشهور المآثر والمكارم المقدم بين الأكابر والأعاظم ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى بأزاء داره على الشط بالجانب الشرقى وفى آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد وفى جوف الفرا كل الصيد آية الزمان وقرة عين الايمان رئيس الحنبلية والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية امام الجماعة وفارس حلبة هذه الصناعة والمشهور له بالكريم فى البلاغة والبراعة مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر والغائص فى بحر فكره على نفاس الدر فأما نظمه فرضى الطباع مهيارى الانطباع وأما نثره فيصدع بسحر البيان

ويعطل المثل بقس وسحبان من أبهر آياته وأكبر معجزاته انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثه آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لايكاد المتقد الخاطر يحصلها عوداً أو يسميها نسقاً فإذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدراً وأفرغ فى أصداف الاسماع من ألفاظه درراً وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقراً وأتى بها على نسق القراءة لها لامقدماً ولا مؤخراً ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسميه ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ويورد الخطبة الغراء بها عجلا (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ان هذا لهو الفضل المبين) فحدث ولاحرج عن البحر وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر ثم أنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً وذابت بها الأنفس احتراقاً إلى أن علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج وأعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح كل يلقى ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيا له ومنهم من يغشى عليه فيرفع فى الاذرع إليه فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة فلولم نركب ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة والحمدلله على أن من بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ويضيق الوجود عن مثله وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير إليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لاإله سواه ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادى عشر لصفر بباب بدر فى ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع المذكور وهو من حرم الخليفة

وخص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ماشاؤا . وأطربوا ماأرادوا . وبادرت العيون بارسال الدموع فلما فرغوا من القراءه وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب إلى أن أكملها وكانت الآية (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السين وحسن أى تحسين فكان يومه فى ذلك أعجب من أمسه ثم أخذ فى الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الاشرف . والجناب الأرأف ثم سلك سبيلة فى الوعظ كل ذلك بديهة لاروية ويصل كلامه بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى فأرسلت وابلها العيون وأبدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين بالتوبة معلنين وطاشت الألباب والعقول وكثر الوله والذهول وصارت النفوس لاتملك تحصيلا ولا تميز معقولا ولا تجد للصبر سبيلا ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق تشعل القلوب وجداً ويعود موضعها النسيبى زهداً وكان آخر ماأنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام

أين فؤادى أذابه الوجد   وأين قلبى فما صحا بعد
ياسعد زدنى جوى بذكرهم   بالله قل لى فديت ياسعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه إلى أن خاف الاخام فابتدر القيام ونزل عن المنبر دهشاً عجلا وقد أطار

القلوب وجلا وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر . فمن معلن بالانتحاب . ومن متعفر فى التراب. فياله من مشهد ماأهول مرآه . وما أسعد من رآه نفعنا الله ببركته . وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته . بمنه وفضله .
وفى أول مجلسه أنشد قصيداً نير القبس . عراقى النفس فى الخليفة أوله

فى شغلٍ من الغرام شاغل   ماهاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة

يا كلمات الله كونى عوذة   من العيون للامام الكامل

ففرغ من انشاذه وقد هز المجلس طربا ثم أخذ فى شأنه وتمادى فى إيراد سحر بيانه وما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ماأعطى هذا الرجل فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لاإله غيره وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواء من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من متكلمى الغرب وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله مجالس من قد ذكرناه فى هذا التقييد فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ فى نفوسنا قدراً ولم نسطب لها ذكراً وأين تقعان مما أريد وشتان بين اليزيدين وهيهات الفتيان كثير والمثل بمالك يسير ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه ويروق استطلاعه وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بأزاء داره على الشط الشرقى فأخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره عجباً صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً وأسال من دمعهم وابلاسكباً ثم جعل يردد فى آخر مجلسه أبيات من النسيب شوقا زهدياً وطرباً إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً وغادر الكل متندما على نفسه منتحباً لهفان ينادى ياحسرتا واحربا والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحا وكل منهم بعد من سكرته ماصحا فسبحان من خلقه عبرة لأولى الألباب وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب لاإله سواه (ثم نرجع إلى ذكر بغداد) هى كما ذكرناه جانبان شرقى وغربى ودجلة بينهما فأما الجانب الغربى فقدعمه الخراب واستولى عليه

وكان المعمور أولا عمارة الجانب الشرقى محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة وفى كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانى منها بجوامع يصلى فيها الجمعة فأكبرها القرية وهى التى نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر فحملته دجلة بمدها السيلى فعاد الناس يعبرون بالزوارق والزوارق فيها لاتحصى كثرة فالناس ليلا ونهاراً من تمادى العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا ونساء والعادة أن يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس والعبور فى الزوارق لاينقطع منها ثم الكرخ وهى مدينة مسورة ثم محلة باب البصرة وهى أيضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيلة ثم الشارع وهى أيضا مدينة فهذا الأربع أكبر المحلات وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ مايحتاجون إليه وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطة وهى بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب فى دجلة يجىء فيه جميع المرافق التى فى الجهات التى يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة الذى ذكرنا محلته نهر آخر منه وينصب أيضاً فى دجلة ومن أسماء المحلات العتابية وبها تصنع الثياب العتابية وهى حرير وقطن مختلفات الالوان ومنها الحربية وهى أعلاها وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد إلى أسماء يطول ذكرها وباحدى هذه المحلات قبر معروف الكرخى وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر فى الاولياء وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى الجانب الغربى أيضاً قبر موسى بن جعفر

رضى الله عنهما إلى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الأولياء والصالحين والسلف الكريم رضى الله عن جميعهم وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بأزاء محلة الرصافة وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط وفى تلك المحلة مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء سامية فى الهواء فيه قبر الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وبه تعرف المحلة وبالقرب من تلك المحلة قبر الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه وفى تلك الجهة أيضاً قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله وقبر الحسين ابن منصور الحلاج وببغداد من قبور الصلحين كثير رضى الله عنهم وبالغربية هى البساتين والحدائق ومنها تجاب الفواكه إلى الشرقية وأما الشرقية فهى اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفا واحتفالا ودور الخليفة مع آخرها وهى تقع منها فى نحو الربع أو أزيد لأن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقلين اعتقالا جميلا لايخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الانيقة وليس له اليوم وزيراً انما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور وله قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار هذا القبه ويدعى له أثر الدعاء للخليفة وهو قل ما يظهر للعامة اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلا ونهاراً وورونق هذا الملك انما هو على الفتيان والاحابش المجابيب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها أبصرناه خارجا أحد الأيام بين يديه وخلفه أمراء الاجناد من الأتراك والديلم وسواهم وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة فى أيدى رجال قد احتفوا به فشاهدنا من امره عجباً فى الدهر وله القصور والمناظر على دجلة وقد يظهر الخليفة فى بعض الأحيان بدجلة راكبا فى زورق وقد يصيد فى بعض الاوقات فى البرية وظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة فلا يزداد أمره مع تلك التعميمة الا اشتهاراً وهو

مع ذلك يحب الظهور للعامة ويؤثر التحبب لهم وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له أبصرنا هذا الخليفة المذكور وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ويتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله إلى السلف فوقه أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم بالجانب الغربي أمام منظرته وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط وهو في فناء من سنه أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه حسن الشكل جميل المنظر أبيض اللون معتدل القامة رائق الرواء سنه الخمس وعشرين سنة لابساً ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الاوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك مما هو كالفنك وأشرف متعمداً بذلك زي الاتراك تعمية لشأنه لكن الشمس لاتخفى وإن سترت وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين وأبصرناه أيضاً عشي يوم الأحد بعده متطلعاً من منظرته المذكورة بالشرق الغربي وكنا نسكن بمقربة منها والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق الوضوء والطهور وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه وكان مدبر أمر أجداده هذا الخليفة وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع أمام مسكنه وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرصافه تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر وأما حماماتها فلا تحصى عدة ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام وأكثرها مطلية بالقار منسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن

شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار فهو يصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء والمدارس بها نحو الثلاثين وهى كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا وهى بقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهى التى ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح وللشرقية أربعة أبواب فأولها وهو فى أعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ثم يليه باب الحلبة ثم باب البصلية هذه الابواب التى هى فى السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة وداخلها فى الاسواق أبواب كثيرة وبالجملة فشأن هذه البلد أعظم من أن يوصف وأين هى مما كانت عليه هى اليوم داخلة تحت قول حبيب

* لا أنت أنت ولا الديار ديار *

واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل أثر صلا العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر وهو الثامن والعشرون لمايه فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما ونحن فى صحبة الخاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر فى هذا التقييد وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وأرض الاعاجم المتصلة بالدروب التى إلى طاعة الامير مسعود والد إحدى الخاتونين المذكورتين وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس وطريقهم على الجانب الشرقى من بغداد وطريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربى منها وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه والله لا يجعلنا تحت قول القائل

* ضاع الرعيل ومن يقوده *

ولها أجناد برسمهما وزادهما الخليفة جنداً يشيعونهما مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد وفى تلك العشية التى رحلنا فيها لجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا وهى قد استقلت فى هودج موضع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة وليناً وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها وأمامها رعيل من فتيانها وجندها وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله رتبة تهز الارض هزاً وتسحب أذيال الدنيا عزاً ويحق أن يخدمها العز ويكون لها هذا الهز فان مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر وصاحب القسطنطينية يؤدى اليه الجزية وهو من العدل فى رعية على سيرة عجيبة ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن فى هذا العام الذى هو عام تسعة وسبعين الخالى عنا استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلداً ولقبه عز الدين واسم أبيه مسعود وهذا الاسم غلب عليه وهو عريق فى المملكة عن جد لجد ومن شرف خاتون هذه واسمها سلجوقة أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين وهى من أعظم بلاد الدنيا فترك البلد لها كرامة لأبيها وأعطاها المفاتيح فبقى ملك بسببها وناهيك من هذا الشأن والملك ملك الحى القيوم يؤتى الملك من يشاء لاإله سواه فكان مبيتنا تلك الليلة باحدى قرى بغداد نزلناها وقد مضى هدء من الليل وبمقربة منها دجيل وهو نهر يتفرع من دجله يسقى تلك القرى كلها وغدونا من ذلك الموضع ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور والقرى متصلة فى طريقنا فاتصل سيرنا إلى أثر صلاة الظهر ونزلنا وأقنا باقى يومنا ليلحقنا من تأخر من الحاج ومن تجار الشام

والموصل ثم رحلنا قبيل نصف الليل وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل وأسرينا الليل كله فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف (بالحربة) من أخصب القرى وأفسحها ورحلنا من ذلك الموضع وأسرينا الليل كله ونزلنا مع الصباح يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف (بالمعشوق) ويقال أنه كان متفرجا لزبيدة ابنة عم الرشيدى وزوجه رحمه الله وعلى قبالة هذا الموضع فى الشط الشرقى مدينة (سر من رأى) وهى اليوم عبرة من رأى أين معتصمها وواثقها ومتوكلها مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلا بعض جهات منها هى اليوم معمورة وقد أطنب المسعودى رحمه الله فى وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها وهى كما وصف وان لم يبق الا الأثر من محاسنها والله وارث الأرض ومن عليها لا إله غيره فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر وهو أول يوم من يونيه فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم .

ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة واسعة الارجاء فسيحة الساحة حفيلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق أهلها أحسن أخلاقا وقسطا فى الموازين من أهل بغداد ودجلة منها فى جوفيها ولها قلعة حصينة على الشط هى قصبتها المنيعة ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه وهى من المدن العتيقة المذكورة ورحلنا عشى اليوم المذكور وأسرينا طول الليل وأصبحنا يوم السبت الموافى عشرين منه بشط دجلة فنزلنا مريحين ومن ذلك الموضع يستصحب الماء ليوم وليلة فاستصحبناه ورحلنا ذلك اليوم ضحوة فأسرينا إلى الليل ونزلنا لأخذ نفس واحة واختلاس سنة نوم فهو منا هنيهة ورحلنا واسأدنا إلى الضباح وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار من يوم الاحد بعده فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة

تعرف بالجديدة وبمقربة منها قرية كبيره اجتزنا عليها تعرف بالعقر وعلى رأسها ربوة مرتفعة كانت حصناً لها وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف خفيل البنيان وثيقة والقرى والعمائر من هذا الموضع إلى الموصل متصلة ومن هنا ينتثر نظام الحاج فى المشى فينبسط كل فى طريقه متقدما ومتأخراً وبطيئاً ومستعجلا آمنا مطمئنا فرحلنا منها قريب العصر وتمادى سيرنا إلى المغرب ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال ماتتعشى الابل ورحلنا قبل نصف الليل وأدلجنا إلى الصباح وفى ضحوة هذا اليوم وهو يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر والرابع ليونيه مررنا بموضع يعرف (بالقيارة) بمقربة من دجلة وبالجانب الشرقى منها وعن يمين الطريق إلى الموصل فيه وهدة من الارض سوداء كانها سحابة قد أنبط الله فيها عيونا كباراً وصغاراً تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كانها الغليان ويصنع له أحواض يجتمع فيها تراه شبه الصلصال منبسط على الارض أسود أملس صقيلا رطبا عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع بأول مباشرة من اللمس وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخانا فقيل لنا أن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتقعده فيقطعونه قطرات ويحملونه وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكة إلى جميع البلاد البحرية والله يخلق مايشاء سبحانه وتعالى جده وجلت قدرته لارب غيره ولا شك أن على هذه الصفة هى العين التى ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة وقد ذكرنا أمرها فى هذا التقييد ومن هذا الموضع إلى الموصل مرحلتان وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين ثم رحنا وسرنا إلى العشى ونزلنا بقرية تعرف (بالعقية) ومنها تصبح الموصل إن شاء الله فأسرينا منها بعد نصف الليل ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر والخامس من يونيه ونزلنا بربضها فى أحد الخانات بمقربة من الشط

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن قد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لعلظ بنيته وسعة وضعه وللمقاتلة فى هذه البيوت حرز وقاية وهى من المرافق الحربية وفى أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله ودجلة شرقى البلد وهى متصلة بالسور وأبراجه فى مائها وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق وأحدث فيه بعض أمراء البلدة وكان يعرف بمجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ما أرى وضع جامع أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش فى الآجر وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ويطيق به شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن ووصفه يطول وإنما وقع الالماع بالبعض جرياً إلى الاختصار وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور وبنى أيضاً داخل البلد وفى سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلى ذلك كله فى أعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له فما أرى فى البلاد قيسارية تعدلها وللمدينة جامعان أحدهما جديد والآخر من عهد بنى أمية وفى صحن هذا الجامع قبة داخلها سارية رخام قائم قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها وفى أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة ويجمع فى هذين الجامعين القديم والحديث ويجمع أيضاً فى جامع

الربض وفى المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة ولها مارستان حاشى الذى ذكرناه فى الربض وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد جرجيس ﷺ وقد بنى فيها مسجد وقبره فى زواية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر يجده المار إلى الجامع من باب الجسر عن يساره فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس والوقوف عنده نفعنا الله بذلك ومما خص الله به هذه البلدة إن فى الشرق منها إذا عبرت دجله على نحو الميل تل التوبة وهو التل الذى وقف به يونس عليه السلام بقومه ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة إليه ويقال أنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ثم صعدوا على التل داعين وفى هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيره ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفى وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصع كله يقال انه كان الموضع الذى وقف فيه يونس ﷺ ومحراب هذا البيت يقال انه كان بيته الذى كان يتعبد فيه ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويعبدون فيه وحول هذا الرباط قرى كثيرة ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نينوى وهى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر وفرج الأبواب فيه بينة وأكوام أبراجه مشرفه بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعه السادس والعشرين لصفر ثم صبحنا العين المباركة وشربنا من مائها وتطهرنا فيها وصلينا فى المسجد المتصل بها والله ينفع بالنيه فى ذلك بمنه وكرمه وأهل هذه البلدة على طريقه حسنه يستعملون أعمال البر فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم فكان مقامنا فى هذه البلدة أربعة أيام ومن أحفل المشاهد الدنيوية المريبة بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثانى يوم وصولنا الموصل للخاتونين أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها

فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغه أهلة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعه الصفات فلا تكاد تبين من القبه موضعاً ومطيتاها تزحفان بها زحفاً وصخب ذلك الحلى يسد المسامع ومطاياها مجلله الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك بمجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره وكان مشهداً أبهت الابصار وأحدث الاعتبار وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار لا شريك له وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه أنها موصفه بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر فمنها أنها أنفقت فى طريقها هذا إلى الحجاز فى صدقات ونفقات فى السبيل مالا عظيما وهى تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبه فى دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها فى نعيم الملك والله يهدى من يشاء من عباده وفى عشى اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة وهو يوم الجمعه السادس والعشرين لصفر المذكور رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معاملة الجمالين على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبه الأشبه منهم ومن شكرنا على طول الصحبه وتماديها من مكة شرفها الله إلى الموصل فأسرينا ليلة السبت إلى بعيد نصف الليل ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء وكان مقيلا مباركا وفى تلك القرية خان كبير جديد وفى محلات الطريق كلها خانات واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة وأسرينا منها وأصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف (بالمويلحة) وأسرينا منها وبتنا بقرية كبيرة تعرف (بجدال) لها حصن عتيق وفى يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق جبل الجودى المذكور فى كتاب الله تعالى الذى استوت عليه سفينة نوح عليه

السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا فى السحر الأعلى من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر فكان مبيتنا بقرية من قرى (نصيبين) ومنها إليها مرحلة ويعرف الموضع المذكور بالكلالى

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة الثانى عشر من يونيو ونحن بالقرية المذكورة فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ووصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم المذكور

ذكر مدينة نصيبين حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ظاهرها شباب وباطنها هرم جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق تنتظم بحافتيه وتفىء ظلالها الوارفة عليه فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول

طابت نصيبين لى يوماً فطبت لها يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضى الشمائل أندلسى الخمائل يرف غضارة ونضارة ويتألق عليه رونق الحضارة وداخلها شعث البادية بادعليه فلا مطمح للبصر إليه لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال وهذا النهر ينسرب إليها من عين معينة منبعها بجبل قريب منها تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ويتخالل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج فى بعض ديارها ويصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحه وينصب فى صهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى منه ويفضى إلى سقايتين حول الجامع وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلى وفيها مدرستان ومارستان واحد وصاحبها

معين الدين أخو معز الدين صاحب الموصل أبناء بابك ولمعين الدين أيضاً مدينة (سنجار) وهى عن يمين الطريق إلى الموصل ويسكن فى إحدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الأسود الجسد الأبيض الكبد أحد الأولياء الذين نور الله بصائرهم بالإيمان وجعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان الشهير المقامات الموصوف بالكرامات نضو التبتل والزهادة ومن اخلقت جدته العبادة قد اكتفى بنسج يده ولا يدخر من قوت يومه لغده أسعدنا الله بلقائه وأصحبنا من بركة دعائه عشى يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته وشرفنا بمصافحته والله ينفعنا بدعائه انه سميع مجيب لا إله سواه فكان نزولنا بها فى خان خارجها وبتنا بها ليلة الأربعاء الثانى من ربيع الأول ورحلنا صبيحته فى قافية كبيرة من البغال والحمير حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد وبلاد بكر وما يليها وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال فتمادى سيرنا إلى أول الظهر ونحن على أهبة وحذر من إغارة الاكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيصر يقطعون السبيل ويسعون فساداً فى الأرض وسكناهم فى جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم فهم ربما وصلوا فى بعض الأحيان إلى باب نصيبين ولا دافع لهم ولا مانع إلا الله عز وجل فقلنا يوم الأربعاء المذكور ورأينا ذلك اليوم عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل مدينة (دارى العتيقة) وهى بيضاء كبيرة لها قلعة مشرف ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة (ماردين) وهى فى سفح جبل فى قنته قلعة لها كبيرة وهى من قلاع الدنيا الشهيرة وكانتا المدينتين معمورة

ذكر مدينة دنيصر حرسها الله

هى فى بسيط من الارض فسيح وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقى وهى مائلة الطبع إلى البادية ولا سور لها وهى مشحونة بشراً ولها

الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة وهى بخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التى تلى طاعه الأمير مسعود وما يليها ولها المحراث الواسع ولها مرافق كثيرة فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها ويتصل بها حمام والبساتين حولها فهى مدرسة ومأنسة وصاحب هذه البلدة قطب الدين وهو أيضاً صاحب مدينة (دارى) ومَدينة (ماردين) (ورأس العين) وهو قريب لابنى يابك وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة وصفات لذى التحصيل غير طائلة قد تساوى فيها السوقة والملوك واشترك فيها الغنى والصعلوك ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق أو اتصف بصفة هو بها خليق إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن المشتهر بالفضل والعدل فهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وما سوى ذلك فى سواه فزعازع ريح وشهادات يردها التجريح ودعوى نسبة للدين برحت به أى تبريح

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

(ونرجع) إلى حديث المراحل قربها الله فكان مقامنا بدنصير إلى أن صلينا الجمعة وهو اليوم الرابع لربيع الأول تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها لان يها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها لان الطريق كلها يميناً وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ويسمون هذه السوق المجتمع إليها من الجهات البازار وأيام كل سوق معلومة ورحلنا أثر صلاة الجمعة فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن تعرف بتل العقاب هى للنصارى المعاهدين الذميين ذكرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسناً ونضرة تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه وخطها متسع والبساتين قد انتظمته وشاهدنا بها من الخنانيص أمثال الغنم كثرة وأنساً بأهلها ثم وصلنا عشى النهار إلى قرية أخرى تعرف بالجسر هى الآن لناس من المعاهدين وهم فرقة من فرق الروم فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس

لربيع المذكور ثم أسحرنا منها ووصلنا مدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين حرسها الله تعالى

هذا الاسم من أصدق الصفات وموضع هذه أشرف الموضوعات وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيوناً وأجراها ماء معينا فتقسمت مذانب وانسابت جداول تنبسط فى مروج خضر فكأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافيتها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها وأعظم هذه العيون عينان إحداهما فوق الأخرى فالعليا منهما نابعة فوق الأرض فى صم الحجارة كأنها فى جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ثم يخرج ويسيل نهراً كبيراً كأكبر مايكون من الأنهار وينتهى إلى العين الأخرى ويلتقى بمائها وهذه العين الثانية عجيب من عجائب مخلوقات الله عز وجل وذلك أنها نابعة تحت الأرض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات أو أزيد ويتسع منبعها حتى يصير صهريجاً فى ذلك العمق ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض فربما يروم السابح القوى السباحة الشديد الغوص فى أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قعره فيمجه الماء بقوة انبعاثه من منبعه فلا يتناهى فى غوصه إلى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئا شاهدنا ذلك عياناً وماؤها أصفى من الزلال وأعذب من السلسبيل يشف عما حواه فلو طرح الدينار فيه فى الليلة الظلماء لما أخفاه ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك وينقسم ماء هذه العين نهرين أحدهما آخذ يمينا والآخر يساراً فالأيمن يشق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين وهى تسمى الرباط أيضاً والأيسر ينسرب على جانب الخانقة وتفضى منه جداول إلى مطاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الاخرى العليا وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع بيوت ارحى تتصل على شط موضوع ومحط النهر كأنه سد

ومن مجتمع هاتين العينين متنشأ نهر الخابور وبمقربة من هذه الخانقة بحيث تناظرها (مدرسة) بازائها حمام وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل وما أرى كان فى موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة لانها فى جزيرة خضراء والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب والمدخل إليها من جانب واحد وأمامها وورائها بستان وبازائها دولاب يلقى الماء إلى بساتين مرتفعة عن مصب النهر وشأن هذا الموضع كله عجيب جداً فغاية حسن القرى بشرقى الاندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا أو تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة فى جميع مخلوقاته وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء لاسور يحصنها ولا دور أنيقة البناء تحسنها قد ضحيت فى صحراؤها كانها عوذة لبطحاؤها وهى مع ذلك كاملة مرافق المدن ولها جامعان حديث وقديم فالقديم بموضع هذه العيون وتتفجر أمامه عين معينة هى بدون اللتين ذكرناهما وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذان بتداعيه والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس فى سفرنا كله مثلها فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور وهو السادس عشر ليونيه رحلنا منها رغبة فى الآساد وبرد الليل وتفاديا من حر هجيرة التأويب لأن منها إلى حران مسيرة يومين لاعمارة فيها سيرنا فتمادى إلى الصباح ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب وأرحنا قليلا ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الاحد وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة يعرف ببرج حواء فبتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة وأسرينا إلى الصباح فوصلنا مدينة حران مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور والثامن عشر ليونيه والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران كلاها الله تعالى

بلد لاحسن لديه ولا ظل يتوسط برديه قد اشتق من اسمه هواؤه فلا يألف

البرد ماؤه ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه لاتجد فيه مقيلا ولا تنفس منه إلا نفساً ثقيلا قد نبذ بالعراء ووضع فى وسط السحراء فعدم رونق الحضارة وتعرف أعطافه من ملابس النصارى أستغفر الله كفى بهذا البلد شرفا وفضلا انها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم ﷺ وله بقبليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليها ومتعبداً لهما ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقراً للصالحين المتزهدين ومثابة للسائحين المتبتلين لقينا من أفرادهم الشيخ أبا البركات حيان ابن عبد العزيز حذاء مسجده المنسوب إليه وهو يسكن منه فى زاوية بناها فى قبلته وتتصل بها فى آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها وأشبه طريقة أبيه فما ظلم وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم فوصلنا إلى الشيخ وهو قد نيف على الثمانين فصافحنا ودعا لنا وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور فملنا إليه ولقيناه ودعا لنا ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة ولقينا أيضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة فلقينا رجلا من الزهاد الافراد فدعا لنا وسألنا وودعناه وانصرفنا وبالبلد سلمة آخر يعرف بالمكشوف الرأس لايغطى رأسه تواضعاً لله عز وجل حتى عرف بذلك ووصلنا إلى منزله فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون محبون للغرباء مؤثرون للفقراء وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذه السبيل من حب الغرباء واكرام الفقراء وأهل قراها كذلك فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً لهم فى ذلك مقاصد فى الكرم مأثورة وشأن أهل هذه الجهات فى هذا السبيل عجيب والله ينفعهم بما هم عليه وأما عبادهم وزهادهم والسائحون فى الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم بمنه وكرمه ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام عجيبه الترتيب مسقفة كلها بالخشب فلا يزال أهلها فى ظل ممدود فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة

مصنوعة من الجص هى كالمفرق لتلك السكك ويتصل بهذه الاسواق جامعها المكرم وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن وله صحن كبير فيه ثلاثة قباب مرتفعة على سوارى رخام وتحت كل قبة بئر عذبة وفى الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار وفى وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبراً وهذه القبة من بنيان الروم وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد فقال انه كان مخزناً لعدتهم الحربية والله أعلم والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا وخشبه عظام طوال لسعة البلاط وسعته خمس عشر خطوة وهو خمسة أبلطة وما رأينا جامعاً أوسع حنايا منه وجداره المتصل بالصحن الذى عليه المدخل اليه مفتح كله أبوابا عددهم تسعة عشر بابا تسعة يميناً وتسعة شمالا والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله بهى المنظر جميل الوضع كأنه باب من أبواب المدن الكبار ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرأى عجيباً قل ما يوجد فى المدن مثل انتظامه ولهذه البلدة مدرسة ومارستان وهى بلدة كبيرة وسورها متين حصين مبنى بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على بعض فى نهاية من القوة وكذلك بنيان الجامع المكرم ولها قلعة حصينة مما يلى الجهة الشرقية منها منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ومنقطعة أيضاً عن سورها بحفير عظيم يستدير بها قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة فجاء فى نهاية الوثاقة والقوة وسور القلعة وثيق الحصانة ولهذه البلدة نهير مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها بين سورها وجبانتها ومصبه من عين هى على بعد من البلد والبلد كثير الخلق واسع الرزق حاصل البركة كثير المساجد جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين وطاعته إلى صلاح الدين وهذه البلاد كلها من الموصل إلى نصيبين إلى الفرات المعروفة بدار ربيعة وحده من نصيبين إلى الفرات مع ما يلى الجنوب من الطريق وديار بكر التى تليها فى

الجانب الجوفى كآمد ومبافارقين وغيرها مما يطول ذكره ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين فهم إلى طاعته وإن كانوا مستبدين وفضله يبقى عليهم ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور وأقمنا مريحين يوم الإثنين ويوم الثلاثا بعده وأثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس الذى فاتنا لقاؤه يوم الإثنين فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين وسمت المحبين مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر فآنسنا ودعا لنا وودعناه وانصرفنا حامدين لله عز وجل على مامن به علينا من لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين وفى ليلة الأربعاء التاسع لربيع المذكور كان رحيلنا بعد تهويم ساعة فأسرينا إلى الصباح ونزلنا مريحن بموضع يعرف بتل عبدة وهو موضع عمارة وهذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة وفيه أثر بناء قديم وبهذا الموضع ماء جار وكان رحيلنا منه عند المغرب وأسرينا الليل كله واجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء فيها خان كبير جديد وهو نصف الطريق من حران إلى الفرات ويقابلها على اليمين من الطريق فى استقبالك الفرات إلى الشام مدينة سروج التى شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبى زيد إليها وفيها البساتين والمياه المطردة حسبما وصفها به فى مقاماته وكان وصولنا إلى الفرات ضحوة النهار وعبرنا فى الزواريق المقلة المعده للعبور إلى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ماتكمل القافلة بالعبور وإذا عبرت الفرات حصلت فى حد الشام وسرت فى طاعة صلاح الدين إلى دمشق والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر وعن يسار الطريق فى استقبالك الفرات إلى الشام مدينة الرقة وهى على الفرات وتليها رحبه مالك بن طوق وتعرف برحبه الشام وهى من المدن الشهيرة ثم رحنا منها عند مضى ثلث الليل الاول وأسرينا ووصلنا مدينه منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادى عشر لربيع المذكور والثانى والعشرين ليونيه

ذكر مدينة منبج حرسها الله تعالى

بلدة فسيحة الارجاء صحيحه الهواء يحف بها سور عتيق ممتد الغايه والانتهاء جوها صقيل ومجتلاها جميل ونسيمها أرج النشر عليل نهارها يندى ظله وليلها كما قيل فيه سحر كله تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها وخصص الله داخلها بآبار معينة شهدية العذوبة سلسبيلة المذاق تكون فى كل دار منها البئر والبئران وأرضها أرض كريمة تستنبط مياهاً كلها وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالى أسواقها مسقفة وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن من هذه الجهات لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب حتى أخذ منها الخراب كانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ولها قلعة حصينة فى جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها ومدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية وأهلها أهل فضل وخير سنيون شافعيون وهى مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفه والعقائد الفاسدة كما تجده فى الأكثر من هذه البلاد فمعاملتهم صحيحة وأحوالهم مستقيمة وجادتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة فكان نزولنا خارجها فى أحد بساتينها وأقمنا يوماً مريحين ثم رحلنا نصف الليل ووصلنا بزاعة ضحوة يوم السبت الثانى عشر لربيع المذكور

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى بها سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عودة منبوذة لعرائها ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها

خضرة ونضارة وتريك برونقها الانبق حسن الحضارة ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب هى باب بين بزاعة وحاب وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لا يحصى عددهم إلا الله فطار شرارهم وقطع هـذه السبيل فسادهم وإضرارهم حتى داخلت أهل هـذه البلاد العصبية وحركتهم الآنفة والحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم وعجلوا بقطع دابرهم وكومت بهذه البطحاء جماجمهم وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم وأحاق بهم مكرهم والحمد لله رب العالمين وسكانها اليوم قوم سنيون فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ورحلنا فى الليل وأسرينا إلى الصباح ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه

ذكر مدينة حلب حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها فى كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير محلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير فى القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها عتيقة فى الأزل حديثة وإن لم تزل قد طاولت الايام والاعوام وشيعت الخواص والعوام هذه منازلها وديارها فأين سكانها قديماً وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها أجل فنى جميعهم ولم يأن بعد فناؤها فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها هذه حلب كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان ونسخت ظرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بزينة الغوال ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروساً

بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وتتطرف جنبات الحوادث إليها حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا إله سواه سبحانه جلت قدرته وقد خرج بنا الكلام عن مقصده فلنعد إلى ما كنا بصدده فنقول إن من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديماً فى الزمان الأول ربوة يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم بغنيمات له فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها فلذلك سميت حلب والله أعلم وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة القلاع أن الماء بها نابع وقد صنع عليه جبانة فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر والطعام يصير فيها الدهر كله وليس فى شروط الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذى ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه وشأن هذه القلعة فى الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهى إلى وصفه وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالى المنيفة والقصاب المشرفة قد تفتحت كلها طيقاناً وكل برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة الملوكية وأما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب فسكانها فى ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائى الرياضية وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبواباً قصرية الحسن إلى

الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً فيستوقف الابصار حسن منظرها وفى صحنه بئران معينان والبلاط القبلى لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح وقد استغفرت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره فما أرى فى بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة فيها فى الحسن روضة تجاور أخرى وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتاً وغرفاً لها طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ولها مارستان وأمرها فى الاحتفال عظيم فهى بلدة تليق بالخلافة وحسنها كله داخل لا خارج لها إلا نهير يجرى من جوفيها إلى قبليها ويشق ربضها المستدير بها فان لها ربضاً كبير فيه من الخانات مالا يحصى عدده وبهذا النهر الارجاء وهى متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله وكيف ماكان الامر فيه داخلا وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها والوصف فيه يطول فكان نزولنا بربضة فى خان يعرف بخان أبى الشكر فأقمنا به أربعة أيام ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور والثامن والعشرين ليونيه ووصلنا (قنسرين) قبيل العصر فأرحنا بها قليلا ثم انتقلنا إلى قرية تعرف (بتل تاجر) فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة

الثامن عشر منه وقنسرين هذه هى البلدة الشهيرة فى الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالأمس فلم يبق إلا آثارها الدراسة ورسومها الطامسة ولكن قراها عامرة منتظمة لانها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولا وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ولذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان تأنساً بشبه الوطن وتعللا به مثل مافعل فى أكثر بلاها حسب ماهو معروف ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين فى خان كبير يعرف بخان التركمان الوثيق الحصانة وخانات هذا الطريق كانها القلاع امتناعا وحصانة وأبوابها حديد وهى من الوثاقة فى غاية ثم رحلنا من هذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمنى فى خان وثيق على الصفة المذكورة ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور وهو آخر يوم من يونيه ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين يوم الجمعة المذكور بلاد (المعرة) وهى سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهى من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا وورائها جبل (لبنان) وهو سامى الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر إلى البحر وفى صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية فرقة مرقت من الاسلام وادعت الإلهية فى أحد الأنام قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيلات موه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها فاتخذوه إلهاً يعبدون ويبذلون الانفس دونه وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى ويستعجل فى مرضاته الردى والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء بقدرته نعوذ به سبحانه من الفتنة فى الدين ونسأله العصمة من ضلال الملحدين لا رب غيره ولا معبود سواه وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لان ورائه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم أعادها للمسلمين وفى صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الاكراد هو للافرنج ويغيرون منه على حماة وحمص وهو بمرأى

العين منهما فكان وصولنا إلى مدينة حماة فى الضحى الاعلى من يوم السبت المذكور فنزلنا بربضها فى أحد خاناته

ذكر مدينة حماة حماها الله تعالى

مدينة شهيرة فى البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء أقطارها مضمومة وديارها مركومة لايهش البصر إليها عند الاطلال عليها كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها حتى إذا جست خلالها ونقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيرا تتسع فى تدفقه أساليبه وتتناظر بشطيه دواليبه قد انتظمت طرتيه بستانين تتهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذاراً فصفحتيه ينسرب فى ظلالها وينساب على سمت اعتدالها وبأحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتا عدة يخترق الماء أحد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها وعلى شطه الثانى المتصل بالمدينة أسفل جامع صغير قد فتح جداره الشرقى عليه طيقانا تجتلى منها منظراً ترتاح النفس إليه وتقيد الابصار لديه وبأزاء ممر النهر بجوفى المدينة قلعة حلبية الوضع وإن كانت دونها فى الحصانة والمنع سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها فهى لاتخاف الصدى ولاتهيب مرام العدى وموضع هذه المدينة فى وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلى والقلعة فى الجانب الآخر فى ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو والامان والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذى يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلى ويطيف بها وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى صور وعلى النهر جسر كبير معقود بضم الحجارة يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها وربضها كبير فيه الخانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ

الدخول المدينة وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى هى الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بأزاء الجامع الصغير وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث وفى منظره انشراح للنفس وانفساح والبساتين متصلة على شطى النهر وهو يسمى العاصى لأن ظاهره انحداره من سفل إلى علو ومجراه من الجنوب إلى الشمال وهو يجتاز على قبلى حمص وبعقربة منها فكان مقامنا بحماة إلى عشى يوم السبت المذكور ثم رحلنا منها وأسرينا الليل كله وأجزنا فى نصفه هذا النهر العاصى المذكور على جسر كبير معقود من الحجارة وعليه مدينة (رستن) التى خربها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآثارها عظيمة ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمة مكنوزة والله أعلم بذلك فوصلنا إلى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفى عشرين لربيع (الاول) وهو أول يوليه فنزلنا بظاهرها بخان السبيل

ذكر مدينة حمص حرسها الله تعالى

هى فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة فى بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهى تشتكى ظمأها وتستقى على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصى وهو منها بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلى العين خضرتها وتستغرب نضرتها ومنبعه فى مغارة بصفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل (بعلبك) أعادها الله وهى عن يمين الطريق إلى دمشق وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه وبعدهم فى ذلك أهل حلب فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه فإن الهواء النجدى فى الصحة شقيقه وقسيمه وبقبلى

هذه المدينة قلعة حصينة منيعة عاصية غير مطيعة قد تميزت وانحازت بموضعها عنها وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه هو سيف الله المسلول ومعه قبر أبيه عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر رضى الله عنهم وأسوار هذة المدينة فى غاية العتاقه والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود وأبوابها أبواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والأناقة تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء خلقة الارجاء ملفقة البناء لا اشراق لآفاقها ولا رونق لأسواقها كاسدة لا عهد لها بنفاقها وما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة وهو معقل العدو فهو منه تتراءى ناره ويحرق إذا يطير شراره ويتعهد إذا شاء كل يوم مغارة وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال وقد أنكر ذلك حمص كلها مارستان وكفاك تبييناً شهادة أهلها فيها وبها مدرسة واحدة وتجد فى هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (اشبيلية) من بلاد الأندلس يقع للحين فى نفسك خياله وبهذا الاسم سميت فى القديم وهى العلة التى أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته فله لمحة من احدى جهاته أقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الإثنين بعده وهو الثانى ليوليه إلى أول الظهر ورحلنا منها وتمادى سيرنا إلى العشى ونزلنا بقرية خربة تعرف (بالمشعر) فعشينا بها الدواب ثم رحلنا عند المغرب وأسرينا طول ليلتنا وتمادى سيرنا إلى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف (بالقارة) ليس فيها من المسلمين أحد وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد فى وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البعد فهو لا يزال ملآن فأرحنا بالخان المذكور إلى الظهر ثم رحلنا منه إلى قرية تعرف (بالنبك) بها ماء جار ومحرث متسع فنزلنا بها للتعشية ثم رحلنا منه بعد اختلاس تهويمة خفيفه وأسرينا الليل كله فوصلنا إلى (خان السلطان) مع الصباح وهو خان بناه صلاح الدين

صاحب الشام وهو فى نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد على سبيلهم فى بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم فى تشييدها وفى هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية فى وسط الخان كأنها صهريج ولها منها منافس ينصب منها الماء فى سقاية صغيرة مسدرة حول الصهريج ثم يغوص فى سرب فى الأرض والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة منها هذه الخانات المذكورة فأقمنا يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر ثم رحلنا وجزنا (بثنية العقاب) ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها وعند هذه الثنية مفرق طريقين أحدهما التى جئنا منها والثانية آخذة شرقا فى البرية على السماوة إلى العراق وهى طريق قصد لكنها لاتدخل إلا فى الشتاء فانحدرنا منها بين جبال فى بطن واد إلى البسيط ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير فيه خان كبير والنهر جار أمامه ثم رحلنا منه مع الصبح وسرنا فى بساتين متصلة لايوصف حسنها ووصلنا دمشق فى الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه والحمد لله رب العالمين

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء بموافقه الحادى عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين فيها بدار الحديث غربى جامعها المكرم

ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى

جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهى خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزين وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما وسلم منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب

الأراقم بكل سبيل ورياض يحي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها العصم الصلاب

(أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موضع لحظتها بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين وعنها إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيها وإن كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها

ذكر جامعها المكرم شرفه الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسناً واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه أنه لاتنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثنى عشر ألفاً من الصناع من بلاده وتقدم إليه بالوعيد فى ذلك أن توقف عنه فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما فى ذلك مما هو مذكور فى كتب التواريخ فشرع فى بنائه وبلغت العناية فى التأنق فيه وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفسا وخلطت بها أنواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصاً وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلى الاسدى فى جزء وصفه فى ذكر بنائه مائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار فكان مبلغ الجميع إحدى عشر ألف ألف دينار ومئتا ألف دينار والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى وأدخلها فيه

لأنه كان قسمين قسما للمسلمين وهو الشرقى وقسما للنصارى وهو الغربى لأن ابا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى إلى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عنوة من الجانب الشرقى وانتهى إلى النصف الثانى وهو الشرقى فاحتازه المسلمون وصيروه مسجد وبقى النصف المصارع عليه وهو الغربى كنيسة بأيدى النصارى إلى أن عوضهم منه الوليد فأبوا ذلك فانتزعه منهم قهراً وطلع لهدمه بنفسه وكانوا يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يجن فبادر الوليد وقال أنا أول من يجن فى الله وبدأ الهدم بيده فبادر المسلمون وأكملوا هدمه واستعد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته وأخرجوا العهد الذى بأيديهم من الصحابة رضى الله عنهم فى إبقائه عليهم فهم بصرفه إليهم فأشفق المسلمون من ذلك ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه ويقال أن أول من وضع جداره القبلى هو النبى عليه الصلاة والسلام وكذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه والله أعلم بذلك لاإله سواه وقرأنا فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى أنه قال إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة

ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسيانه

ذرعه فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهما ثلاثمائة ذراع وذرعه فى السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعاً وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ غير أن الطول فى مسجد رسول الله ﷺ من القبلة إلى الشمال وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها أربع وخمسون سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها فى الجدار الذى يلى الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم

وصورت محاريب وأشكالا غريبة قائمة فى البلاط الأوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التى تلى المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً وطولها عشرون شبراً وبين كل رجل ورجل فى الطول سبع عشرة خطوة وفى العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية سعته عشر خطاً وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربع عشر رجلا من الجص وسائرها سوار فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلى والشمالى مائة ذراع وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص وأعظم مافى هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية فى الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب إلى الصحن وتحته ثلاث قبات قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعا ومرأى هائلا يشبهه الناس بنسر طائر كان القبة رأسه والغارب جؤجؤة ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثانى عن شمال جناحاه وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه ومن أى جهة استقبلت البلد ترى القبه فى الهواء منيفه على كل علو كأنها معلقه من الجو والجامع المكرم مائل إلى الجهه الشماليه من البلد وعدد شمسياته الزجاجيه المذهبه الملونة أربع وسبعون منها فى القبه التى تحت قبه الرصاص عشر وفى القبه المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسيه وفى طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون وفى القبه المتصلة بجدار الصحن ست وفى ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسيه وفى الجامع المكرم ثلاث مقصورات مقصورة الصحابة رضى الله عنهم وهى أول مقصورة وضعت فى الاسلام وضعها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما وبأزائه محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية رضى الله عنه إلى المقصورة

منه إلى المحراب وبأزاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبى الدرداء رضى الله عنه وخلفها كانت دار معاوية رضى الله عنه وهى اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلى ولا سماط أحسن منظراً منه ولا أكبر طولا وعرضاً وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخيل برسمه وهى اليوم مسكونة وفيها مواضع للكادين وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبراً وعرضها نصف الطول ويليها لجهة الغرب فى وسط الجامع المقصورة التى أحدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة إلى الجامع حسبما تقدم ذكره وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الخط الاسلامى من الكنيسة وكان الجدار حيث أعيد المحراب فى المقصورة المحدثة فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابة طرفاً فى الجانب الشرقى وأحدثت المقصورة الأخرى وسطاً حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية وبالجانب الغربى بأزاء الجدار مقصورة أخرى هى برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبأزائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقى زاوية أخرى على هذه الصفة هى كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية وهى لاصقة بالجدار الشرقى وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهى من جملة مرافق الطلبة (وفى) الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً متصلة بطول الجدار قد علتها قسى جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها وفيه مجتمع أهل البلد وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ لا يزالون

على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشى فيخيل لمبصر ذلك إنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم لا يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين وللجامع ثلاث صوامع واحدة فى الجانب الغربى وهى كالبرج المشيد تحتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير والبيت الأعلى منها كان معتكف أبى حامد الغزالى رحمه الله ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد من أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم وهو قريب لبنى سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها وثانية بالجانب الغربى على هذه الصفة وثالثة بالجانب الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفيين وفى الصحن ثلاث قبات إحداهما فى الجانب الغربى منه وهى أكبرها وهى قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة كأنها الروضة حسناً وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة يقال أنها كانت مخزناً لمال الجامع وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية فى السنة وهى خمسة عشر ألف درهم مؤمنية أو نحوها وقبة أخرى صغيرة فى وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير وفى وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ويسمونه قفص الماء والقبة الثالثة فى الجانب الشرقى قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها وفى الجانب الشمالى من الصحن باب كبير يفضى إلى مسجد كبير فى وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجرى الماء فيه دائماً من صفحة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه إليها ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ويصلى فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكى القرطبي ويتزاحم الناس

على الصلاة فيه خلفه التماساً لبركته واستماعا لحسن صوته وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى إلى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعاً وأجملها بناء يذكر الشيعة أنه مشهد لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه وهذا من أغرب مختلقاتهم ومن العجيب أنه يقابله فى الجهة الغربية فى زاوية البلاط الشمالى من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربى مجلل بستر فى أعلاه وامامه ستر أيضاً منسدل يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضى الله عنها وانها كانت تسمع الحديث فيه وعائشة رضى الله عنها فى دخول دمشق كعلى رضى الله عنه لكن لهم فى على رضى الله عنه مندوحة من القول وذلك أنهم يزعمون أنه رؤى فى المنام مصلياً فى ذلك الموضع فبنت الشيعة فيه مسجداً وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها فلا مندوحة فيه وانما ذكرناه لشهرته فى الجامع وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلا كله بالفصوص المذهبة مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة فأدركه الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه فأسلم مافيه اليوم قبلته مع الثلاث قبات المتصلة بها ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كله وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات فتل الاسورة كانها مخروطة لم ير شيء أجمل منها وبعضها حمر كانها مرجان فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع مايتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه إلى كل لون منها حتى ترتمى الأبصار منه شعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلى كله عظيم لايلحق وصفه ولا تبلغ العبادة بعض مايتصوره الخاطر منه والله يعمره بشهادة الإسلام كلمته بمنه وفى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه وهو المصحف الذى وجه به إلى الشام وتفتح الخزانة كل يوم أثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه وله أربعة أبواب (باب) قبلى ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة

عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم وله مرأى رائع ومنه يفضى إلى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهى كانت دار معاوية رضى الله عنه وتعرف بالخضراء (وباب) شرقى وهو أعظم الأبواب ويعرف بباب جيرون وباب غربى ويعرف بباب البريد (وباب) شمالى ويعرف بباب الناطفيين وللشرقى والغربى والشمالى أيضا من هذه الأبوب دهاليز متسعة يفضى كل دهاليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة لها ستة أعمدة طوال وفى وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما ثم نقل إلى القاهرة وبأزاءه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبذلك المشهد ماء جار وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهايز وهو كالخندق العظيم يتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سمواً قد حفته أعمدة كالجزوع طولا وكالاطواد ضخامة وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم وعليها شوارع أخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهايز وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت وفى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف عليها تعتيب وفى وسط الحوض الرخامى أنبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة لم .... وحوله أنابيب صغار ترمى الماء إلى علو فيخرج عنها كقضبان اللجين فكانها أغصان تلك الدوحه المائية ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط ضجتان من صفر من فمى بازيين مصورين من

صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثانى تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين يلوح من الصفر لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود إلى حالها الأول ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها وهى التى يسميها الناس المنجانه ودهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه وفى أعلاه باب عظيم يصعد إليه على أدراج وله أعمدة سامية فى الهواء وتحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يميناً وسقاية يساراً لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب محدقة بالأعواد المشرجبة هى محاضر لمعلمى الصبيان وعن يمين الخارج فى الدهليز خانقة مبنية للصوفية فى وسطها صهريج ويقال أنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا والصهريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه ولها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسير لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خرما أحسن

تخريم يسرجن ليلة النصف من شعبان فلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان واحتفال أهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم أثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائماً ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة انسان وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء وفيه حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين فيها اجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هى بين المصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس أبصرنا بها فقيهاً من أهل اشبيلية يعرف بالمرادى وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة فأهل الجدة من آبائها ينزهون أبناءهم أخذها وسائرهم يأخذونها وهذا من المفاخر الإسلامية وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ويعلمون الخط فى الاشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب لهم فى ذلك سيرة حسنة ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشغل بغيره فهو يستفرغ جهده فى التعليم والصبى فى التعلم كذلك ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات فى كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار الكبير محدقة بالبيوت

الخلائية والماء يجرى فى كل بيت منها وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله واحدى هذه السقايات فى دهليز باب جيرون وهى أكبرها وفيها من البيوت نيف على الثلاثين وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية والواحد بعيد من الآخر ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبراً والماء نابع فيهما والثانية فى دهليز باب الناطفيين بأزاء المعلمين والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم والبلد كله سقايات قل ما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية والمرافق به أكثر من أن توصف والله يبقيه دار اسلام بقدرته

ذكر مشاهده المكرمة وآثاره المعظمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن ذكرياء عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم فى البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية رضى الله عنهم وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة وفوقه قنديل كأنه من بللور مجوف كأنه القدح الكبير لايدرى أمن زجاج عراقى أم صورى هو أم من غير ذلك ومولد إبراهيم ﷺ وعلى نبينا الكريم وهو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة وهى من أجمل القرى وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم لأنه مصعد الانبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم وهو فى الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة وعليه صومعة عالية ومن ذلك المغار رأى ﷺ الكوكب ثم القمر ثم الشمس حسبما ذكره الله تعالى فى كتابه عز وجل وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم ابن هبة الله بن عساكر الدمشقى فى تاريخه فى أخبار دمشق وهو نيف على مائة مجلد وذكر أيضا أن بين باب الفراديس وهو أحد أبواب البلد وفى الجهة الشمالية

من الجامع المبارك على مقربة منه إلى جبل قاسيون مدفن سبعين ألف نبي وقيل سبعون ألف شهيد وان الانبياء المدفونين به سبعمائة نبي والله أعلم وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وبركتها شهيرة وفى طرفها مما يلي البساتين وهدة من الأرض متصلة بالجبانة ذكر أنها مدفن سبعين نبيا وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد والقبور محيطة بها وهي لاتخلو من الماء حتى عادت قرارة له كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها وبجبل قاسيون أيضا لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك مغارة تعرف بمغارة الدم لأن فوقها فى الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم صلى الله عليه وسلم تتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة وقد أبقى الله منه فى الجبل آثاراً حمرا فى الحجارة تحك فتستحيل وهي كالطريق فى الجبل وتنقطع عند المغارة وليس يوجد فى النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها فكان يقال أنها لون حجارة الجبل وانما هي من الموضع الذى جر منه القاتل لاخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة وهي من آيات الله تعالى وآياته لا تحصى وقرأنا فى تاريخ ابن المعلى الاسدى أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام وعليها مسجد قد أتقن بناؤه ويصعد إليه على أدراج وهو كالغرفة المستديرة وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها وبه بيوت ومرافق للسكنى وهو يفتح كل يوم خميس والسرج من الشمع والفتائل تقد فى المغارة وهي متسعة وفى أعلى الجبل كهف منسوب لآدم ﷺ وعليه بناء وهو موضع مبارك وتحته فى حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ذكر أن فيها سبعين نبياً ماتوا جوعاً وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يد إلى يد حتى لحقتهم المنية صلوات الله عليهم وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبنى وأبصرنا فيه سرجاً تقد نهاراً ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباعاً حتى إن البلد تكاد الأوقات تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث بناءه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها

وبساكنيها والملتزمين لها وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة ومن النساء الخواتين لهاذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أومدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لهامن مالها الأوقاف ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك لهم فى هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل وبآخر هذا الجبل المذكور وفى رأس البسيط البستانى الغربى من هذا البلد الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله تعالى مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليها وهى من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا واشراقا واتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع هى كالقصر المشيد ويصعد إليها على أدراج والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة فى وسطها وهى كالبيت الصغير وبأذائها بيت يقال أنه مصلى الخضر ﷺ فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ولا سيما المأوى المبارك وله باب حديد صغير ينغلق دونه والمسجد يطيف بها ولها شوارع دائرة وفيها سقاية لم ير أحسن منها قد سبق إليها الماء من علو وماؤها ينصب على شاذروان فى الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه لم ير أحسن من منظره وخلف ذلك مطاهر يجرى الماء فى كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا وهو يشق تحت الربوة وقد نقر له فى الحجر الصلد أسفلها حتى اتفتح له متسرب واسع كالغار وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة فى النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها وهى مخاطرة كبيرة ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساع مسرح للابصار وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح فى طرق شتى فتحار الأبصار فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف فى غلو مدحه وشأنها فى موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير ويتصل بها أسفل منها بمقربة من المسافة

قرية كبيرة تعرف بالنيرب قد غطتها البساتين فلا تظهر منها الا ماسما بناؤه وبها جامع لم ير أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى الماء فيها ويطيف بها وفوقها لجهة القبله قرية كبيرة هى من أحسن القرى تعرف بالمزة وبها جامع كبير وسقاية معينة وبقرية النيرب حمام وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات وفى الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية يريدون الآلهة وكانت فيها كنيسة هى الآن مسجد مبارك وكان آزر أبو إبراهيم ينحت فيها الآلهة ويصورها فيجىء الخليل إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها وهى اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة وهو من المشاهد الكريمة وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع وهى معينة التقسيم لوظائفها فمنها ماهو معين باسم النفقة فى الادم للبائتين فيها من الزوار ومنها ماهو بعين للاكسية برسم التغطية بالليل ومنها ماهو معين للطعام إلى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الامامة والمؤذن الملتزم خدمتها ولهم على ذلك كله مرتب معلوم فى كل شهر وهى خطة من أعظم الخطط والأمين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم يعرف بأبى الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة وله فى الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة وهو متسم بالخير ومرتسم به وهو متعلق بسبب من أسباب البر فى إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات يسبب لهم وجوه المعايش من امامة فى مسجد أوسكنى بمدرسة تجرى عليها فيها النفقة أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه أوحضور فى قراءة سبع أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ويجرى عليه مايقوم به من أوقافه إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية وعلى هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه فالغريب المحتاج هنا

إذا كان على طريقة الخير مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ممن عهد الخدمة والمهنة يتسبب له أيضاً أسباب غريبة من خدمة أما بستان يكون ناطوراً فيه أو حمام يكون عينا على خدمة وحافظاً لاثواب داخليه أو طاحونة يكون أميناً عليها أو كفالة سلطان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى الأمانة وطار لهم فيها ذكر وأهلها لا يأتمنون البلديين وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء وله الحمد والشكر على مايولى عباده وإن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان يقبله ويكرمه ويرتبه ويجرى عليه بحسب قدره ومنصبه قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثا وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه والحديث ذو شجون والله كفيل بحسن العون لا رب سواه، وبغربى البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء فيها كثير من الصحابة والتابعين الأئمة الصالحين رضى الله عنهم فالمشهور بها من قبور الصحابة رضى الله عنهم قبر أبى الدرداء وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهم موضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه فى هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم منهم فضالة ابن عبيد وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه وقبره مسنم فى الموضع المذكور وقرأت فى فضائل دمشق أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة بدمشق وقبر واثلة بن الأسقع من أهل الصفة وفى الجهة التى (تلى) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب هذا قبر أوس بن أوس الثقفى وحول هذا الموضع المذكور على مقربة منه قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضى الله عنه والدعاء فى هذا الموضع المبارك مستجاب قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم.

إلى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ممن قد ذهب اسمه وغير ذكره ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضى الله عنهم رجالا ونساء وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم ولها الأوقاف الواسعة ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه قد بنى عليه مسجد حفيل رائق البناء وبأزائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة وللمسجد كله ستور معلقة فى جوانب صغار وكبار وفى المحراب حجر عظيم قد شق بنصفين والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية يزعم الشيعة أنه انشق لعلى رضى الله عنه إما بضربة سيفه أو بأمر من الأمور الالهية على يديه ولم يذكر عن على رضى الله عنه أنه دخل قط هذا البلد اللهم إلا أن زعموا أنه كان فى النوم فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لا تصح لهم جهة اليقظة وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله تعالى عنه عن قولهم ومنهم الغرابية وهم يقولون إن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى ﷺ من الغراب بالغراب وينسبون إلى الروح الأمين عليه السلام قولا تعالى الله عنه علواً كبيراً إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء قد أضلهم الله وأضل بهم كثيراً من خلقه نسأل الله العصمة فى الدين ونعوذ به من زيغ الملحدين وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه السراويل فيلحقوه بهم ولا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به ولهم فى ذلك مذاهب عجيبة وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم وشأنهم عجيب فى الأنفة والائتلاف ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد ابن عبادة رئيس الخزرج صاحب رسول الله ﷺ وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقى البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء

والقبر فى وسطه وعند رأسه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله ﷺ ومن مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب رضى الله عنهما ويقال لها زينب الصغرى وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبى صلى الله عليه وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها والله أعلم بذلك ومشهدها الكريم بقرية قبلى البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ وعليه مسجد كبير وخارجه مساكن وله أوقاف وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم مشينا اليه وبتنا به وتبركنا برؤيته نفعنا الله بذلك وبالجبانة التى بغربى البلد من قبور أهل البيت كثير رضى الله عنهم منها قبران عليهما مسجد يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال انه لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ومن المشاهد أيضاً قبر بجامع النيرب فى بيت بالجهة الشرقية منه يقال انه لأم مريم رضى الله عنها وبقرية دارية قبر أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه وعليه قبة هى علامة القبر وبها أيضاً قبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال وهى لجهة الغرب منه ومن المشاهد الكريمة التى لم نعاينها ووصفت لنا قبر شيث ونوح عليهما السلام وهما بالبقاع وهى على يومين من البلد وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعاً وفى قبر نوح ثلاثين وبأزاء قبر نوح قبر ابنة له وعلى هذه القبور بناء ولها أوقاف كثيرة ولها قيم يلتزمها ومن المشاهد المباركة أيضاً بالجبانة الغربية بمقربة من باب الجابية قبر أويس القرنى رضى الله عنه وقبور خلفاء بنى أمية رحمهم الله يقال انها بأزاء باب الصغير بمقربة باب الجبانة المذكورة وعليها اليوم بناء يسكن فيه والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الاقدام وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبلة على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض

الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فيقول ههنا قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم والكثيب الاحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع وهو بين غالية وغولية كما ورد فى الأثر وهما موضعان وشأن هذا المسجد فى البركة عظيم ويقال ان النور ما خلا قط من هذا الموضع الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب وله أوقاف كثيرة فأما الاقدام فنى حجارة فى الطريق اليه معلم عليها تجد أثر القدم فى كل حجر وعدد الاقدام تسع ويقال إنها أثر قدم موسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة ذلك لاإله سواه

شهر جمادى الأولى عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمى

ذكر جميل من أحوال البلد عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب (باب) شرقى وهو شرقى وفيه منارة بيضاء يقال أنه عيسى عليه السلام ينزل فيها كما جاء فى الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق ويلى هذا الباب (باب) توما وهو أيضا فى حيز الشرق ثم (باب) السلامة ثم (باب) الفراديس وهو شمالى ثم (باب) الفرج ثم (باب) النصر وهو غربى ثم (باب) الجابية كذلك ثم (باب) الصغير وهو بين الغرب والقبلة والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع مايتصل بها من القبلة يسيراً والارباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول وسككه ضيقة مظلمة وبناءه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ولذلك مايسرع الحريق إليه وهو كله ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ماتحتوى ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج لاداخل وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها وهى حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الافكار وتستوقف الأبصار ومرآها عجيب وهى بأيدى الروم ولا اعتراض

عليهم فيها وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديمان وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينار وله قومة بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك والأطباء يبكرون إليه فى كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد مايصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال فى الجديد كثر وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم فى سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع به ومن أعجب ماحدثت به من ذلك أن رجلا كان يعلم القرآن وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال واسمه نصر الله وكان المعلم يهيم به فزاد كلفه حتى اختبل وأدى إلى المارستان واشتهرت علته وفضيحته بالصبى وربما كان يدخله أبوه إليه فقيل له أخرج وعد لما كنت عليه من القرآن فقال متماجناً تماجن المجانين وأى قراءة بقيت لى مابقى فى حفظى من القرآن شىء سوى إذا جاء نصر الله فضحك منه ومن قوله ونسأل الله له العافية ولكل مسلم فلم يزل كذلك حتى توفى سمح الله له وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله وبها قبره نوره الله وهى قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر فكل من يقصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله وأما الرباطات التى يسمونها الخوانق فكثيرة وهى برسم الصوفية وهى قصور مزخرفة يطرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يبصر وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الكفرة فى أسباب المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان فالسعداء الموفقون

منهم قد حصل لهم بفضله تعالى نعيم الدنيا والآخرة وهم على طريقة شريفة وسنته فى المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا ومن أعظم ماشاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء فى أعلاه مساكن لم يراجل اشرافا منها وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتصل به وكان منتزها لأحد ملوك الاتراك فيقال أنه كان فيه إحدى الليالى على راحة فاجتاز به قوم من الصوفية فهريق عليهم من النبيذ الذى كانوا يشربونه فى ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم فطال العجب من السماحة بمثله وبقى أثر الفضل فيه مخلداً لنور الدين رحمه الله ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة وكان من الملوك الزهاد وتوفى فى شوال سنة تسع وستين وخمسمائة واستولى بعده على الأمر صلاح الدين وهو على طريقة من الفضل شهيرة وشأنه فى الملوك كبير وله الأثر الباقى شرفه من إزالة المكوس بطريق الحجاز ودفعه عوضاً عنها لصاحب الحجاز وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة إلى أن محا الله رسمها على يدى هذا الملك العادل أصلحه الله ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين وأخبرنى أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه وهو أبو الحسن على بن سردال الجيانى المعروف بالأسود أن هذا الوقف المغربى يغل اذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار فى العام وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير نفعه الله بما أسلف من الخير وهيأ دياراً موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً وهذه البلاد المشرقية كلها على

هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أجود فمن شاء الفلاح
من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب فى طلب العلم فيجد الأمور
المعينات كثيرة فاولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الاعوان وأهمها فاذا
كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز
والتسويف فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه وإنما المخاطب كل ذى همة يحول
طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى فهذا المشرق بابه مفتوح
لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والأولاد
ويقرع سن الندم على زمن التضييع والله يوفق ويرشد لا إله سواه قد نصحت ان الفيت
سامعا وناديت أن أسمعت مجيباً ومن يهد الله فهو المهتدى جلت قدرته وتعالى جده ولو
لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء وإيثار الفقراء
ولا سيما أهل باديتها فانك تجد من بدار إلى بر الضيف عجبا كفى بذلك شرفاً لها
وربما يعرض أحدهم كثرته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكى الرجل ويقول
لو علم الله فى خيراً لأكل الفقير طعامى لهم فى ذلك سر شريف ومن عجيب أمرهم
تعظيمهم للحاج على قرب مسافة الحج منهم وتيسير ذلك لهم واستطاعتهم لسبيله
فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم تبركا بهم ومن أغرب ما حدثناه
من ذلك أن الحاج الدمشقى مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى
دمشق فى هذا العام الذى هو عام ثمانين ضرع الناس لتلقيهم الجم الغفير نساء
ورجالا يصافحونهم ويتمسحون بهم وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها.
وأخرجوا إليهم الأطعمة فأخبرنى من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم
الخبز فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لاكله تبركا بأكل الحاج
له ودفعن له عوضا منه دراهم إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا فى
المغرب فى ذلك وصنع بناء فى بغداد عند تلقى الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه
ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقاصد التقييد وإنما وقع الإلماع
بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد

يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقلما يخلوا من التبتيل والزهادة وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم شاهدنا فى هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم وهى من الامنة على غاية وتجار النصارى أيضاً يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس فى عافية والدنيا لمن غلب هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالامن لا يفارقهم فى جميع الاحوال سلماً أو حربا وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يستوفى

الحديث عنه والله يعلى كلمة الإسلام بمنه ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان، منحازة فى الجهة الغربية من البلد وهى بأزاء باب الفرج من أبواب البلد وبها جامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها خارج البلد فى جهة الغرب ميدانان كأنهما مبسوطان خزاً لشدة خضرتهما وعليهما حلق والنهر بينهما وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما وهما من أبدع المناظر يخرج السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ويسابق بين الخيل فيهما ولا مجال للعين كمجالهما فيهما وفى كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفى أرياضها وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجرى الماء فيها كلها وليس فى هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وفى الذى ذكرنا من ذلك كفاية والله يبقيها دار إسلام بمنه وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ولا سيما قيسارياتها وهى مرتفعات كأنها الفناديق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور وكل قيسارية منفردة بصيغتها وإغلاقها الجديدة ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقى وفيه بيت صغير جداً قد اتخذ مصلى وفى قبلته حجر يقال أن إبراهيم ﷺ كان يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز التى هى اليوم خانقة للصوفية وهى فى الدهليز الذى فى الباب الشمالى المعروف بباب الناطفيين وقد تقدم التنبيه عليه قبل هذا

حديث عجيب وذلك أن الذى اشتراها وبناها وجعل لها الأوقاف الواسعة وأمر بأن يدفن فيها وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة وعين من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحوارى وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب رجل من العجم يعرف بالسميساطى وسميساط بلدة من بلاد العجم وكان موصوفاً بالورع والزهد وأصل يساره وتموله فيما ذكر لنا أنه ألفى يوما من الايام بالدهليز المذكور أزاء الدار المذكورة رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه غير

ملتفت إليه ولا معتنى به فتأجر فيه والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل فحانت وفاة الرجل فاستدعى ممرضه السميساطى المذكور فقال له أنت قد أحسنت إلى وخدمتني ولطفت فى تمريضى وأشفقت لحالى وغربتى فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بي زائداً إلى فعل الله عز وجل عنى فى الآجل إن شاء الله وذلك أنى كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ومعروفا بزمام الدار وكانت لى حظوة ومكانة فعتب على فى بعض الامر فخرجت طريداً فانتهيت إلى هذه البلدة فأصابني من أمر الله ما أصابني فسبيك الله لى رحمة فأنا أقلدك أمانة وأعهد اليك فيها عهداً اذا أنا مت وغسلتنى فانهض على بركة الله تعالى إلى بغداد وتلطف فى السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة فإذا أرشدت اليها فاصرف الحيلة فى اكترائها وأرجوا أن الله تعالى يعينك على ذلك وإذا سكنتها فاعمد إلى موضع سماه له فيها وذكر له أمارة عليه فاحفر فيه مقداراً وانزع اللوح الذى تجده معترضاً تحت الأرض وخذ الذى تجده مدفوناً تحت الأرض وصرفه فى منافعك وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير مباركا لك فى ذلك ان شاء الله ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله وتوجه الموصى اليه بعده إلى بغداد فيسر الله له فى اكتراء الدار وانتهى إلى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لاقيمة لها عظيمة الشأن كبيرة القدر فدسها فى أحمال متاع ابتاعها وخرج إلى دمشق من بغداد فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبناها خانقة للصوفية واحتفل فيها وابتاع لها الاوقاف ضياعاً ورباعا وجعلها برسم الصوفية وأوصى بأن يدفن فيها وان يختم القرآن على قبره كل جمعة وعين لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقا كثيراً فتغص الخانقة بالقراءة كل جمعة فإذا ختم القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة المذكورة وبقى للمتوفى جميل الاثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه والكوثرية التى ذكرناها أيضا بالجامع المكرم المقروءة كل يوم بعد العصر المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضا ان أحد ذوى اليسار توفى

وأوصى بأن يدس قبره فى الجامع المكرم وأوقف وقفا يغل مائة وخمسين دينارا فى السنة برسم من لا يحفظ القرآن ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة فينقسم له أربعون دينارا فى كل ثلاثة أشهر من السنة ويذكر ان أحد الملوك السالفين توفى أيضا وأوصى بأن يجعل قبره فى قبلة الجامع المكرم بحيث لا يظهر وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الالف دينار وأربعمائة دينار فى السنة وزائدا لقراء سبع القرآن كل يوم وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم أثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ويقال ان فى ذلك الموضع هو القبر المذكور وقراء السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلا مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقى والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام نفع الله بها راسميها وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل وللفقراء الملتزمين الجلوس فى الجانب الشرقى من الجامع المكرم الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه وقف وضعه بعض المتأخرين الموفقين برسمهم إلى مايطول ذكره من المآثر الأخروية الصدقية التى كفل الله بها غرباء هذه الجهات

ومن عادات أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول انهم فى كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم أثر صلاة العصر يقف بهم أئمتهم كاشفى رؤسهم داعين إلى ربهم التماسا لبركة الساعة التى يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله عز وجل وبحجاج بيته الحرام متوسلين إلى أن يسقط قرص الشمس ويقدروا نفر الحاج فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات وداعين إلى الله عز وجل فى أن يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول فى فعلهم ذلك ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن وهياكلها الهائلة البنيان لمعجزة الصنعة والإتقان

المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان الصعود إلى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد القائمة وسط الجامع المكرم والدخول في جوفها وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها صعدنا اليه في جملة من الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة في القديم وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله ألواح رصاص منتظمة كما قدتقدم الذكر لذلك وطول كل لوح أربعة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة حتى انتهينا إلى القبة المذكورة فصعدنا اليها على سلم منصوب وريح الميد تكاد تطير بنا فخبونا في الممشى المطيف بها وهو من رصاص وسعته ستة أشبار فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه فأسرعنا الولوج في جوف القبة على أحد شراجيبها المفتحة في الرصاص فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول وتقف دون إدراك هيبة وصفه الأفهام وجلنا في فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في المحاضر وهذه القبة مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام موثقة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة وهو ما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيباً وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين بديعة القرنصة يرتمي الأبصار شعاع ذهبها وتتحير الألباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتماً مطروحا جوف القبة لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة وقد شدت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام

موثقة الأوساط بنطق الحديد وعددها ثمان وأربعون ضلعاً بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار قد انعطفت انعطافا عجيباً واجتمعت أطرافها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة وهى مائتا شبر وستون شبراً والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها وإنما هذا الذى ذكرناه نبذة يستدل بها على ما ورائها وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر الذى تحت هاتين القبتين مدخل عظيم هو سقف المقصورة بينه وبينها سماء جص مزينة وقد انتظم فيه من الخشب ما لا يحصى عدده وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض وتركبت تركيباً هائلا منظره وقد أدخلت فى الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين وفى ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة لا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأنى لما ليس موجوداً فى طبائعهم البشرية ومظهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه لا إله سواه والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية واستدارت الشمسيات باستدارتها والقبتان فى رأى العين واحدة وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة فى جوف الاخرى والظاهر منها قبة الرصاص ومن جملة عجائب ما عايناه فى هاتين القبتين إننا لم نجد فيهما عنكبوتاً ناسجاً على بعد العهد من التفقد لها من أحد والتعاهد لتنظيف مساحتها والعنكبوت فى أمثالها موجود كثير وقد كان حقق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف وقد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقييد فانصرفنا منحدرين وقد قضينا عجباً عجاباً من هذا المنظر العظيم شأنه المعجز وصنعه المترفع عن الادراك وصفه ويقال انه ما على ظهور المعمور أعجب منظراً ولا أبعد سمواً ولا أغرب بنياناً من هذه القبة إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس فانها يذكر أنها أبعد فى الارتفاع والسمو من هذه وجملة الأمر

أن منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستقدار فيها عند معانيها بالصعود اليها والولوج داخلها من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا والقدرة لله الواحد القهار لا إله سواه ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد فى جنائزهم رتبة عجيبة وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرؤون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها فتتلقى الآذان بأدمع الأجفان وجنائزهم يصلى عليها فى الجامع قبالة المقصورة فلابد لكل جنازة من الجامع فاذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته فإن الحالة المميزة له فى ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربى من الصحن بأزاء باب البريد فيصلون أفراداً أفراداً ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمى البلدة وأعيانهم ويحلونهم بخططهم الهائلة التى قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة إلى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه إلى مالا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة وتتبعها ولا سيا فى الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتى الفريقين إلى مالانهاية له من هذه الألفاظ المحالية فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة صاحبا أذياله من الكبر ثانياً عطفة وقذاله فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحد واحد بحسب رتبهم فى المعرفة فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحذر وأنشد فى المعنى ماحضر من الاشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة وإذا لقى أحداً

منهم آخر مسلما يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام فيتعاطون المحال تعاطيا والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربما طالت بهم الحالة فى ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوى بينهم هويا وهذه الحالة من الانعكاف الركوعى فى السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الامام فياعجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الجمال لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه واستعملوا تكفير الذمى المنهى فى الشرع عنه لهم فى هذا الشأن طرائق عجيبة فى الباطل فياللعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا إلى هذه الغاية فى الألفاظ بينهم فيما إذا يخاطبون سلاطنيهم ويعاملونهم لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤس ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤس فسبحان خالق أطواراً لا شريك له ولا معبود سواه ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها انهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الاخرى ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العتاة مهانة واستكانة كأنهم قد سيموا تعنيفا وأوثقوا تكتيفا وهم يعتقدون تلك الهيئة تميزاً لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفا ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا فى الاعضاء وراحة من الاعياء والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنا أستغفر الله منهم فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الايمان وتستوهب لهم من الله الغفران لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ فى المصافحة فهم يستعملونها أثر الصلوات ولاسيما أثر صلاة الصبح وصلاة العصر وإذا سلم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره فيتفرقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند الاهلة ويدعوا بعضهم لبعض ويتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه

واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله وتلك أيضا طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودات ومصالحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة وقد تقدم الذكر أيضا فى غير موضع من هذا الكتاب عن أحسن سيرة السلطان بهذه الجهات صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب وماله من المآثر المأثورة فى الدنيا والدين ومثابرته على جهاد أعداء الله لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة الإسلام والشام أكثره بيد الافرنج فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات فهو لا يأوى لراحة ولا يخلد إلى دعة ولا يزال سرجه مجلسه انا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك وقد تقدم الذكر أيضاً له وهو عليه محاصر حتى الآن والله تعالى يعينه على فتحه وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه فى حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه رأينا اثباتها هنا احداها أن الحلم من سجاياه فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه أما أنا فلأن أخطىء فى العفو أحب إلى من أن أصيب فى العقوبة وهذا فى الحلم منزع أحنفى وقال أيضا وقد تنوشدت بحضرته الاشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ولو استفرغت له جميع ما فى خزاتى لما كان عوضاً مما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه إياى وهذا فى الكرم مذهب رشيدى أو جعفرى وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة مستعدياً على جمال ذكر أنه باعه جملا معيباً أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه فقال السلطان ماعسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة وانما أنا عبد الشرع وشحنته والشحنة عندهم صاحب الشرطة فالحق لك يقضى أو عليك وهذا فى العدل مقصد عمرى وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين بمنه

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد التاسع من شهر سبتمبر العجمي ونحن بدمشق حرسها الله على قدم الرحلة إلى عكة فتحها الله والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته وتكفلنا بكلاءته وعصمنا بعزته وقدرته انه سبحانه الحنان المنان ولى الطول والاحسان لارب غيره وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور وهو الثالث عشر من شهر سبتمبر المذكور فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة ومن أعجب مايحدث به فى الدنيا ان قوافل المسلمين تخرج إلى بلادا لافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك المتقدم الذكر فى هذا التاريخ قصد إليه الافرنج فى جميعهم وقد تألبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين فصمد إليهم وأقلع عن الحصن بحملته وسبقهم إلى موضع الماء فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب فيه أكثر دوابهم وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة إلى بلادهم ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن فأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه فاهتبل صلاح الدين فى بلادهم الغرة وانتهز الفرصة وقصد قصرها عن الطريق القاصد فدهم مدينة نابلوس وهجمنا بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها وأخذ إليها حصونا وضياعاً وامتلأت أيدى المسلمين سبياً لايحصى عدد من الأفرنج ومن فرقة اليهود تعرف بالسمرة منسوب إلى السامرى وانبسط فيهم القتل الذريع وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها إلى مااكتفت من الامتعة والذخائر والاسباب والاثاث إلى النعم والكراع وإلى غير ذلك وكان فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدى المسلمين على جميع مااحتازته وسلم لهم

ذلك فاحتازت كل يد ماحوت وامتلأت غنى ويساراً وعنى الجيش على رسوم تلك الجهات التى مر عليها من بلاد الفرنج وآبو غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب وتخلصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها فى البلاد وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه وكان مبلغ السبي آلاف لم تتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الاقرب ليوم انفصالنا وأعلمنا انه يجم عسكره قليلا ويعود إلى الحصن المذكور فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريه وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة وبعده إلى قرية تعرف ببيت جن هى بين جبال ثم رحلنا اليها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا فى نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدريج أعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان فسألنا عن ذلك فقيل لنا هى حد بين الامن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الافرنج وهم الحواسة والقطاع من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله لهم فى ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباط الافرنجية وأغربها

ذكر مدينة بانياس حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجاء وكانت بيد الافرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هو بين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجرى بينهم فيها فرحلنا عنها عشى يوم

السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الافرنج المذكور فكان مبيتنا بها ثم رحنا منها يوم الأحد سحراً واجتزنا فى طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر وأكثر شجره الرند بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى تلتقى حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطيل لو ولجته العساكر لغابت فيه لامنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة هى أم الملك الخنزير صاحب عكة دمرها الله فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجارة فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطا وأكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم سببها ان طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤسهم فكل مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم وقال الافرنج ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم ورحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفية نعوذ بالله من الفتنة وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً

ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدى الافرنج من اطلاق بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم على ضد أحوالهم من الترفية والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله فالى الله المشتكى من هذه الحال وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء فى الكتاب العزيز (ان هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً فى غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم فعممهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هذه الدعوة وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لسبتمبر مدينة عكة دمرها الله وحملنا إلى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانه من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل ما يجيء عندهم راجع إلى الضمان وضمان هذا الديوان بمال عظيم فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا فى أعلاه وطلب رجل من لاسلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بأزاء البحر وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة

ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها

هى قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات فى البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الاقدام تستمر كفراً وطغيانا وتفور خنازير وصلباناً زفرة قذرة مملوءة كلها رجساً وعذره انتزعها الافرنج من أيدى المسلمين فى العشر الاول من المائة السادسة فبكى لها الاسلام ملء جفونه وكانت أحد شجونه فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقس وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدى المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء منهم فيه الاقامة فريضة الصلاة وعند محاربة قبر صالح النبي ﷺ وعلى جميع الانبياء فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس وفى شرقى البلدة العين المعروفة بعين البقر وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم ﷺ والمهبط لهذه العين على أدراج وطية وعليها مسجد بقى محرابه على حاله ووضع الافرنج فى شرقية محرابا لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو بأيدى النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين فكان مقامنا بها يومين ثم توجهنا إلى صور يوم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكور والموفى عشرين لسبتمبر المذكور على البر واجتزانا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهى مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف باسكندرونة وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه إلى بجاية طمعاً فى الركوب فيه فحللناها عشى يوم الخميس المذكور لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا فنزلنا بها فى خان معد لنزول المسلمين

ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة قد

أعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانيهم هى أنظف من عكة سككا وشوارع وأهلها ألين فى الكفر طبائع وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع فخلائقهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن وعكة أكبر وأطغى وأكفر وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما فى البر والآخر فى البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة فالذى فى البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذى فى البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس فى البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع ولعكة مثلها فى الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسى خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل فكان مقامنا بها أحد عشر يوما دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الأحد الثانى والعشرين لجمادى المذكور وهو آخر يوم من سبتمبر وذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الايام عند مينائها وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها وهى فى أبهى زى وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهى رافلة فى حليها وحللها تمشى فترا فترا مشى الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة

المناظر وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن فى أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم المسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرف المستعاذ بالله من الفتنة فيه ثم عدنا إلى عكة فى البحر وحللناها صبيحة يوم الإثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة وأول يوم من شهر كتوبر واكترينا فى مركب كبير نروم الاقلاع إلى مسينة من بلاد جزيرة صقلية والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل بعزته وقدرته وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدى المسلمين ولهم فيها مساجد أخر فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وأنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم فى المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضى الله قضاءه فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام فكان ذلك وتفرقوا فى بلاد المسلمين ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم فى ذلك بشروط شرطوها والله غالب على أمره سبحانه جلت قدرته ونفذ فى البرية مشيئته وليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين لمشقات وأهوال يعانيها فى بلادهم منها الذلة والمسكنة الذمية ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره وأعلى خطره لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع

المحرمات إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده فالحذر الحذر من دخول بلادهم والله تعالى المسئول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم فهو سبحانه ولي ذلك ولا رب غيره ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الاشفاق عنهم شيئاً ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الأفرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل الثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته فأمر بصرفهم وإخراج عوض منهم من المغاربة وقال هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطفاني وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجي ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الامناء من المقارضين فالقوافل صادرة ووارد ببضائعهما وشأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل فلا يكاد مغربي يخلص من الاسر إلا على أيديهما فهما

طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالها ويبذلان اجتهادهما فى تخليص عباد الله المسلمين من أيدى أعداء الله الكافرين والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين ومن سوء الاتفاقات المستعاذ بالله من شرها أنه صحبنا فى طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربى من بونة عمل بجاية كان أسيراً فتخلص على يدى أبى الدر المذكور وبقى فى جملة صبيانه فوصل فى قافلته إلى عكة وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير من أخلاقهم فما زال الشيطان يستهويه ويغريه إلى أن نبذ دين الاسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا إلى عكة وأعلمنا بخبره وهو بها قد بطس ورجس وقد عقد الزنار واستعجل النار وحقت عليه كلمة العذاب وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية وأن يتوفانا مسلمين بفضله ورحمته وهذا الخنزير صاحب عكة المسمى عندهم بالملك محجوب لا يظهر قد ابتلاه الله بالجذام فعجل له سوء الإنتقام قد شغلته بلواه فى صباه عن نعيم دنياه فهو فيها يشقى ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وحاجبه وصاحب الحائل عوضه خاله القومس وهو صاحب المجبى وإليه ترتفع الأموال والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن فى الأفرنجية اللعينة للقومس اللعين صاحب طرابلس وطبرية وهو ذو قدر ومنزلة عند الأفرنج وهو المؤهل للملك والمرشح له وهو موصوف بالدهاء والمكر وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنتى عشرة سنة أو أزيد ثم تخلص بمال عظيم بذله فى نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها وبحيرة طبرية مشهورة وهى ماء عذب وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة وطولها نحو ستة فراسخ والأقوال فيها تختلف وهذا القول أقربها إلى الصحة لأنا لم نعاينها وعرضها أيضاً مختلف سعة وضيقاً وفيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء صلوات الله عليهم كشعيب وسليمان ويهوذا وروبيل وابنة شعيب زوج الكليم موسى وغيرهم صلوت

الله وسلامه عليهم أجمعين وجبل الطور منها قريب وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام وهو بين المغرب والقبلة من عكة إلى جهة الأسكندرية والله يعيده إلى أيدى المسلمين ويطهره من أيدى المشركين بعزته وقدرته وهاتان المدينتان عكة وصور لابساتين حولها وإنما هما فى بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التى بالقرب منهما ولهما عمالة متسعة والجبال التى تقرب منهما معمورة بالضياع ومنها تجبى الثمرات إليهما وهما فى غر البلاد ولعكة فى الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه وإليه ركوب البلد كل بكرة وعشية وبه يجتمع العسكر دمره الله الصور عند بابها البرى عين معينة ينحدر إليها على أدراج والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها والله تعالى يعيد إليها وإلى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه وفى يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة والسادس لاكتوبر صعدنا إلى المركب وهو سفينة من السفن الكبار بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين وهم حجاج بيت المقدس عالم لايحصى ينتهى إلى أزيد من ألفى انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنه وكرمه ولا معبود سواه ونحن به منتظرون موافقة الريح وكال الوثق بمشيئة الله عز وجل

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كال وسعة والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته وتمادى مقامنا فيه مدة اثنى عشر يوماً لعدم استقامة الريح وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها إلا فى

فصلى الربيع والخريف والسفر لا يكون إلا فيهما والتجار لاينزلون إلى عكة بالبضائع إلا فى هذين الفصلين والسفر فى الفصل الربيعى من نصف ابريل فيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه وأكثر وأقل بحسب مايقضى الله تعالى به والسفر فى الفصل الخريفى من نصف اكتوبر وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية وانما هى عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربية أكثرها دواما فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق فسبحان المبدع فى حكمته المعجز فى قدرته لاإله سواه وكنا طول هذه المدة التى أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت فى البر ونتفقد المركب فى الاحيان فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور والثامن عشر لاكتوبر أقلع المركب وكنا على عادتنا فى البر بائتين ولم يحسن النهار المروم بأهبة السفر فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب فى أعداد الماء والزاد وان لا يفارق الانسان رحله فاصبحنا والمركب لاعين له ولا أثر فاكترينا للحين زورقا كبيرا له أربعة مجازيف وأقلعنا نتبعه وكانت مخاطرة عصم الله منها فأدركنا المركب مع العشى فحمدنا الله عز وجل على مامن به وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا فى هذا السفر الطويل وآخره والحمد لله يوم فرجنا ولله الحمد والشكر على كل حال واتصل جرينا والريح الموافقة تاخذ وتدع نحو خمسة أيام ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب فأخذ رئيسه ومديره الرومى الجنوى وكان بصيراً بصنعته حاذقا فى شغل الرياسة البحرية يراوغها تارة يمينا وتارة شمالا طمعا أن لايرجع على عقبه والبحر فى أثناء ذلك وهو ساكن فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور والسابع والعشرين لاكتوبر ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصارى المعروف بالاردمون وألقت نصفها فى البحر مع مااتصل

بها من الشراع وعصم الله من وقوعها فى المركب لأنها كانت تشبه السوارى عظما وضخامة فتبادر البحريون إليها وحط شراع الصارى الكبير وعطل المركب من من جريه وصيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها وحصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله تعالى وشرعوا فى رفع الشراع الكبير وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدلون وبتنا بليلة شهباء إلى أن وضح الصباح وقد من الله عز وجل بالسلامة وشرع البحريون فى إصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم والريح الغربية على أول لجاجها ونحن بين اليأس والرجاء نتردد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وخفى لطفه ومعهود فضله سبحانه هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته لا إله سواه وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيما فاتراً عليلا فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها وقوتها فكانت نفساً خافتا ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم فبقينا لاعبين على صحفة ماء تخاله العين سبيكة لجين كأنا نجول بين سمائين وهذا الهواء الذى يسميه البحريون الغليني وفى ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور وهو أول يوم من نوفمبر العجمى كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له فى اسراج الشمع وكاد لا يخلو أحد منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى من شمعة فى يده وتقدم قسيسهم للصلاة فى المركب بهم ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهو كله أعلاه وأسفله سرجا متقدة وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن واتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع والعشرين منه فتحركت ريح شمالية فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس والحمد لله

شهر شعبان المكرم عرفنا الله خيره وبركته

غم هلاله علينا فأكلنا عدة أيام رجب فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نوفمبر وقد تم لنا على ظهر البحر من يوم اقلاعنا من عكة اثنان وعشرون يوما حتى عدمنا الانس واستشعرنا القنط واليأس وصنع الله عز وجل مأمول ولطفه الخفى بنا كفيل بمنه وكرمه وقل الزاد بأيدى الناس لكن هم من هذا المركب بمنة الله تعالى فى مدينة جامعة للمرافق فكل مايحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والادم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمترى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلانيا مطبوخا والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره عاينا جميع ذلك يباع وفى خلال هذه الايام كلها لم يظهر لنا بر والله يأتى بالفرج القريب ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله فقذفا فى البحر ومن البلغريين اثنان أيضاً ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد فى البحر حياً فاحتملته الموج أسرع من خطفة البرق وورث هؤلاء الاموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب لأنها سنة عندهم فى كل من يموت فى البحر ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه فطال عجبنا من ذلك وفى سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ والثالث عشر من نوفمبر ظهرت لنا جبال فى البحر وقد اشتدت الريح الغربية وتوالى اعصارها وكانت تتقلب بالقبول والدبور فألجأتنا إلى أحد تلك الجبال فارستنا عنده وسألنا عن الموضع فأعلمنا انه من الجزائر الرومانية وهذه الجزائر نيف على الثلاثمائة وخمسين جزيرة وهى إلى عمل صاحب القسطنطينية والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين لأنهم لاصلح بينهم فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدر يوم الاربعاء بعده ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار فى الخبز واللحم بعد أمان أخذوه ثم أقلعنا يوم الاربعاء المذكور وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوماً وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة أقريطش وهذه الجزيرة

أيضاً العمل صاحب القسطنطينية وطولها نيف على الثلثمائة ميل وقد تقدم ذكرها فى سفرنا البحرى إلى الإسكندريه فبقينا نجرى بطولها وهى مناعلى اليمين والبحر فى أثناء ذلك كله هائل والريح لاتوافق ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل ونرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنوفمبر انقطع عنابر الجزيرة المذكورة ونحن نجرى بريح شمالية موافقة فزأرت وعصفت فطار لها المركب بجناحى شراعه والبحر بهاقد جن واستشر لجاجه وقذفت بالزبد أمواجه فتخال غوارقه المتموجة جبالا مثلجة ومع تلك استشعرت النفوس الانس وغلب رجاؤها اليأس وقد كنا مدة الستة والعشرين يوما المذكورة التى لم يظهر لنا فيها بر نرجم الظنون ونغازل المنون حذراً من نفاد الزاد والماء والحصول بين المهلكين الجوع والظمأ فمن قائل يقول أنا قد ملنا فى جرينا إلى بر الغرب وهو بر افريقية وآخر يزعم إنا قد ملنا إلى بر الارض الكبيرة بر القسطنطينية وما يليها ومنهم من يقول إلى اللاذقية جهة الشام ومنهم من يقول إلى دمياط بر الاسكندرية وكنا نحذر أن تلجئنا الريح إلى أحد جزائر الرومانية الخالية فنشتو فيها أو تضطرنا الحال إلى المعمور منها وليس فى هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار حتى أتى الله بالفرج وأذهب البأس واليأس ومكن فى النفوس الايناس بعد مكابد الامرين ومقاساة البرحين فلله در القائل

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقلية ان شاء الله وفى النصف من ليلة الاحد الحادى عشر منه انقلبت الريح غربية وكشف النوء من الغرب وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال وأصبحنا يوم الاحد المذكور والهول يزيد والبحر قد هاج هائجه وماج مائجه فرمى بموج كالجبال يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج ارتفاعاً يرمى فى

وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب فلما جن الليل اشتد تلاطمه وصكت الآذان غماغمه واستشرى عصوف الريح فحطت الشرع واقتصر على الدلالين الصغار دون انصاف الصوارى ووقع اليأس من الدنيا وودعنا الحياة بسلام وجاءنا الموج من كل مكان وظننا أنا قد أحيط بنا فيالها ليلة يشيب لها سود الذوائب مذكورة فى ليالى الشوائب مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب ونحن منها فى مثل ليل صول طولا فأصبحنا ولم نكد فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا وجباله قد قامت أمامنا وكنا قد خلفناه عن يميننا فاسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه فسقط فى أيدينا وخالفنا المجرى المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يمينا فى استقبال صقلية فأستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر وقلنا

سيكون الذى قضى سخط العبد أو رضى

وفى أثناء ذلك انبسطت الشمس ولان البحر قليلا وصممنا نروم أخذ مرسى فى البر المذكور إلى أن يقضى الله قضاءه وينفذ حكمه ولكل سفر أوان وسفر البحر إنما هو فى أبانه والمعهود من زمانه لا أن يعتسف فى فصول أشهر الشتاء اعتسافا له والأمر لله من قبل ومن بعد فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر وإن كان المحذور لايغنى عن المقدور شيئا وحسبنا الله ونعم الوكيل ثم ان الريح ساعدت عند اسقبالنا البر بعض مساعدة فانصرفنا عنه وتركنا يمينا وعدنا إلى قريب من المجرى المقصود وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه وقدتم لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوما والشرع مصلبة وهو عندهم أعدل جرى لأنه لايكون إلا بالريح التى تتلق مؤخر المركب فى مجراه فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال وساعدت الريح ففرحنا وسررنا وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا فاستبشرنا بها وعلمنا انا على مجرى مقصود ولله الحمد والشكر على كل حال من الاحوال ثم انقلبت الريح غربية وهبت عاصفاً فألجأتنا اضطراراً بعض ليلة الاربعاء ويوم الاربعاء إلى مرسى من مراسى جزائر الرومانية

وهو رأس الجزيرة ومنه إلى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا عشر ميلا فاصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثانى والعشرين لنوفمبر فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة وتوافت بعدنا إلى ذلك المرسى خمسة مراكب منها اثنان كانا قد أقلع من بر الإسكندرية عن عهد نحو خمسين يوماً فأسقطتهما الريح فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام وجدد الناس به الماء والزاد لأن العمارة كانت منا قريباً فنزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم والزيت وما كان عندهم من الادم ولم يكن خبزهم براً خالصاً انما كان خليط بالشعير وكان يضرب للسواد فتهافت الناس عليه على غلائه ولم يكن بالرخيص فى سومه وشكروا الله على ما من به عليهم وفى هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوماً والحمد لله على كل حال ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية وعادت أشد ما يكون هبوباً فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين والحمد لله على جميل صنعه وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور والسادس والعشرين لنوفمبر بريح طيبة موافقة فاستبشرنا بها واستطاعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضائه لا رب سواه وتمادى سيرنا إلى يوم الخميس الثانى والعشرين لشعبان والتاسع والعشرين لنوفمبر ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف وزجتها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف فأرسلت حاصباً من البرد صبته علينا فى المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوس ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا اليأس من مكمنه فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا برصقلية لا ئحاً أمامنا فيالها بشرى ومسرة لو لم يعد حسرة فى كره فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من ديسمبر ونحن على إدراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجل كتاب وميقات وكم أمل تعترض دونه الآفات فما كان إلا كلا ولا حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الاعقاب وحالت بين الابصار والارتقاب ومازالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف فحطت الشرع عن صواريها واستسلمت النفوس لباريها وكنا بين

السفينة ومجريها وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظلم وعباب الموج يتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته فنبذت نفوسنا كل أمنية وتأهبت للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يالها من أحوال ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر واسفر وجه الجو وأصبحنا يوم الاحد ثانى ديسمبر والخامس والعشرين لشعبان وقد بدل لنا من الخوف الامان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الاكفان وساعدت الريح بعض مساعدة فعدنا نطلب من البر أثراً بعد عين ونرجم الظنون بين متى وأين والله عز وجل لطيف بعباده وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده لا رب سواه

شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة والقبول
فيه بمنه وكرمه لا رب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر ديسمبر ونحن بازاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددين وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب سرنا بها سيراً رويداً حتى وصلنا هذا الموضع من أزاء الأرض الكبيرة المذكورة وأبصرنا فيها ضياءاً وعمارة كثيرة أعلمنا أنها من قلورية وهى من بلاد صاحب صقلية لأن بلاده فى الأرض الكبيرة يتصل نحو شهرين وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده وحسبك انا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا ونبله بيسير من الماء فنتبلغ به وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص فما ظنك بمدة شهرين على

ظهر البحر فى مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما وسائر الناس لعشرين يوما ولخمسة عشر يوماً ومن العجب فى الاتفاقات فى الاسفار البحرية انا استطلعنا على ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر هلال رجب وهلال شعبان وهلال رمضان هذا وفى يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار وهو جبل البركان المشهور بصقلية فاشتبشرنا بذلك والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه ويوزعنا فى كل حال شكر ما أولاه بمنه وكرمه ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان عشى يوم السبت ثانى الشهر المذكور اشتد هبوبها فزجت المركب تزجيه سريعة فلم يكن الا كلا ولا حتى أدتنا إلى أول المضيق والليل قد جن وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أميال وأضيق موضع فيه ثلاثه أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ويغلى غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه وشقه صعب على المراكب فاستمر مركبنا فى سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا وبر الأرض الكبيرة عن يميننا وبر صلقية عن يسارنا فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك وقد شارفنا مدينة مسينة من الجزيرة المذكورة دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين وهو ضارب فيه فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين فلم ينحط شراع الصارى المعروف بالاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به فلما أعياهم مزقه الرئيس بالسكين قطعا قطعا طمعا فى توقيفه وفى أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر والتقاء بسكانيه وهى أرجلاه اللتان يصرف بهما وقامت الصيحة الهائلة فى المركب فجاءت الطامة الكبرى والصدعة التى لم نطق لها جبراً والقارعة الصماء التى لم تدع لنا صبرا والتدم النصارى التداما واستسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما ولم يجدوا سوى جبل الرجاء استمساكا واعتصاما وتطاورت الريح والأمواج صفح المركب حتى تكسرت رجله الواحدة فألقى الريس

مرسى من مراسيه طمعاً فى تمسكه به فلم يغن شيئاً فقطع حبله وتركه فى البحر فلما تحققنا أنها هى قمنا فشددنا للموت حيازيمنا وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح وقد علا الصياح من أطفال الروم ونسائهم وألقى الجميع عن يد الإذعان وقد حيل بين الصبر والنزوان ونحن قيام نبصر البر قريباً ونتردد بين أن نلقى بأنفسنا إليه سبحاً أو ننتظر لعل الفرج من الله يطلع صبحاً فأحضرنا نية الثبات والبحريون قد ضموا العشارى لإخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم فساروا به إلى البر دفعة واحدة ثم لم يطيقوا رده وقذفته الموج مكسراً على ظهر البر فتمكن حينئذ اليأس من النفوس وفى أثناء مكايدة هذه الأحوال أسفر الصبح فجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فإذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من نصف الميل وقد حيل بيننا وبينها فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره وقلنا رب مجلوب إليه حتفه فى عتبة داره ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة فى المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه فى جملة من رجاله مطلعاً لتلك الحال وبادرنا إلى النزول فى الزواريق والأمواج لشدتها لا يمكنها الوصول إلى المركب فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم ونجونا إلى البر منجى أبى نصر عن قدر وتلف للناس بعض أسبابهم فتسلوا عن الغنيمة بالإياب ومن العجب على ما أخبرنا به أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه فى نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعى من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام وقيل الحمد لله رب العالمين وفرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلت الأمواج جذاذاً ورمت به إلى البر أفلاذ أفعاد عبرة للناظرين وآية للمتوسمين ووقع العجب من سلامتنا منه وجددنا شكر الله عز وجل على ما من به من لطيف صنعه وجميل قضائه وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا فى الأرض الكبيرة أو إحدى جزائر الروم المعمورة فكنا لو سلمنا نستعبد للأبد والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة

وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة إنه على ذلك قدير وبعوائد الفضل والخير جدير لا إله سواه ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ولطفه بنا فى هذه الحادثة كون هذا الملك الرومى حاضراً فيها ولولا ذلك لانتهب جميع ما فى المركب انتهابا وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين لأن العادة جرت لهم بذلك وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد بسبب أسطوله الذى ينشئه رحمة لنا والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا لا إله سواه

ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفار ومقصد جوارى البحر من جميع الاقطار كثيرة الارفاق برخاء الاسعار مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار مشحونة بعبدة الصلبان تغص بقاطنيها وتكاد تضيق ذراعاً بساكنيها مملوءة نتناً ورجساً موحشة لا توجد الغريب انسا أسواقها نافقة حفيلة وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة . لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان . وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان . مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخناديقها والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنوا فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها إلى البر خشبية ينصرف عليها فالحمال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزواريق فى وسقها ولا فى تفريغها إلا ما كان مرسيا على البعد منها يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها وذلك لافراط عمق البحر فيها وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال ويقابلها منه بلدة تعرف (برية) وهى عمالة كبيرة وهذه المدينه مسينة رأس جزيرة صقلية وهى كثيرة المدن والعمائر والضياع وتسميتها تطول وطول هذه الجزيرة صقلية سبعة أيام وعرضها مسيرة خمسة أيام وبها جبل البركان المذكور وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس

فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها لكنها معمورة بعيدة الصلبان يعشون فى مناكبها ويرتعون فى اكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم إتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والأجاص وغيرها من الفواكه وليس فى مسينة هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك مايستوحش بها المسلم الغريب وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها بيلارمة وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم فى الأرياض كثير وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التى هى مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها وبعدها مسينة وبالمدينة إن شاء الله يكون مقامنا ومنها نؤمل سفرنا إلى حيث يقضى الله عز وجل من بلاد المغرب إن شاء الله وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لهاته متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين وله جملة فى من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون غاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ومامنهم إلا من له الحاشية والخول والاتباع ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقه ولا سيما بحضرة ملكه المذكورة وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر وهو كثير الاتخاذ الفتيان والجوارى وليس فى ملوك النصارى أشرف فى الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم

أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جداً وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه وسنه نحو الثلاثين سنة كفى الله المسلمين عاديته وبسطته ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه وأما جواريه وحظاياه فى قصره فسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك ان الافرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة وأعلمنا أنه كان فى هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم لتذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به تسكيناً لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ما منهم الا من يصوم الاشهر تطوعا وتأجراً ويتصدق تقربا إلى الله وتزلفا ويفتك الاسرى ويربى الاصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم وكبرائهم بعد تقدمه رغبة منه الينا فى ذلك فاحتفل فى كرامتنا وبرنا وأخرج الينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرق المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ورغب فى ان لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك وقال لنا أنتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له رابحون إن شاء الله فى متجركم

ونحن كاتمون ايماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا معتقلون فى ملكة كافر بالله قد وضع فى أعناقنا ربقة الرق فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج واستهداء أدعيتهم والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للايمان وذخيرة للاكفان فتفطرت قلوبنا له اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه وأبلغ فى مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ولهم فى فعل الجميل اختبار مأثورة وفى افتكاك الاسرى صنائع عند الله مشكورة وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز وجل فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهادها دائم والله ينعهم ويجمل خلاصهم بمنه ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة (البحر) تحتوى من الاساطيل على مالا يحصى عدد مراكبه وله بالمدينة مثل ذلك فكان نزولنا فى أحد الفناديق وأقمنا بها تسعة أيام فلما كان ليلة الثلاثاء الثانى عشر للشهر المبارك المذكور والثامن عشر لديسمبر ركبنا فى زورق متوجهين إلى المدينة المتقدم ذكرها وصرنا قريباً من الساحل بحيث نبصره رأى العين وأرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق أهنأ تزجية وسرنا نسرح اللحظ فى عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل فى قنن الجبال مشرفة وأبصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها تخرج منهما النار دائما وأبصرنا الدخان صاعداً منهما ويظهر بالليل ناراً حمراء ذات ألسن تصعد فى الجو وهو البركان المشهور خبره وأعلمنا ان خروجها من منافس فى الجبلين المذكورين يصعد منها نفس نارى بقوة شديدة تكون عنه النار وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقى به فى الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل

النار فشأنه أيضاً عجيب وذلك ان ناراً تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العرم فلا تمر بشيء إلا أحرقته حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثبجة على صفحة حتى تغوص فيه فسبحان المبدع فى عجائب مخلوقاته لا إله سواه إلى أن حللنا عشى يوم الأربعاء فعد يوم الثلاثاء المؤرخ مرسى مدينة شفلوى وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى

ذكر مدينه شفلوى من جزيرة صقليه أعادها الله

هى مدينة ساحلية كثيرة الخصب الواسعة المرافق منتظمة أشجار الأعناب وغيرها مرتبة الأسواق تسكنها طائفة من المسلمين وعليها قنة جبل واسعة مستديرة فيها قلعة لم ير أمتع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين نصرهم الله وكان اقلاعنا منها نصف الليل فجئنا مدينة (ترمة) ضحوة يوم الخميس بسير رويد وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا فانتقلنا فيها من ذلك الزورق إلى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين (الذين) صحبونا فيه من أهلها

ذكر مدينه ثرمه من الجزيرة المذكورة فتحها الله

هى أحسن وضعا من الذى تقدم ذكرها وهى حصينة تركب البحر وتشرف عليه وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد ولها قلعة سامية منيعة وفى أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب وسعة الأرزاق فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور ونحن قد أرسينا فى واد بأسفلها ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه وبتنا بها ليلة الجمعة ثم انقلب الهواء غربياً فلم نجد للاقلاع سبيلا وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفه عند النصارى ببلادثرمة خمسة وعشرون ميلا فخشينا طول المقام وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل فى قطع المسافة فى يومين وقد تلبث الزواريق فى قطعها على ما أعلمنا

به العشرين يوما والثلاثين يوما ونيفاً على ذلك فأصبحنا يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير فى البر على أقدامنا فنفذنا لطيتنا وتحملنا بعض أسبابنا وخلفنا بعض الأصحاب على الاصباب الباقية فى الزورق وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل عصم الله جميع أمة محمد ﷺ من الفتنة بهم بعزته ومنه فانتهينا إلى قصر سعدوهو على فرسخ من المدينة وقدأخذمنا الاعياء فملنا إليه وبتنا فيه وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان وبازائه عين تعرف بعين المجنونة وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالى مشرفة وبيوت منتظمة وهو مرافق السكنى وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من أنواع الصفر والزجاج وامامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر وفى أسفل القصر بئر عذبة فبتنا فى هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه وسمعنا الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه واكرامنا القوم الساكنون فيه وله إمام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى هذا الشهر المبارك وبمقربة من هذا القصر بنحو الميل إلى جهة المدينة قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر وداخله سقاية تفور بماء عذب وأبصرنا للنصارى فى هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى ولهم فى مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة فجئنا لندخل فنعنا وحملنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجى أراح الله المسلمين من ملكته وأدينا إلى المستخلف من قبله ليسألنا على مقصدنا وكذلك فعلهم بكل

غريب فسلك بنا رحاب وأبواب وساحات ملوكية وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لأهل الخدمة ماراع أبصارنا وأذهل أفكارنا وتذكرنا قول الله عز وجل (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) وأبصرنا فيما أبصرناه مجلساً فى ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان وانتظمت جوانبها بلاطات والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها فعجبنا من طوله وأشراف مناظره فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه وأهل الخدمة والعمالة أمامه فخرج إلينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيض ذا أبهة فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربى لين فأعلمناه فأظهر الاشفاق علينا وأمر بانصرافنا بعد ان أحفى فى السلام والدعاء فعجبنا من شأنه وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه فلم يكن عندنا مانعلمه به وقد تقيد خبرها بعد هذا وكان من أغرب ماشاهدناه من الأمور الفتانة أن أحد من كان قاعداً عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور تحفظوا بما عندكم ياحجاج من العمال المسكين لئلا يقعوا عليكم وظن أن عندنا تجارة تقتضى التمكيس فاستجاب له أحد النصارى فقال ماأعجب أمرك يدخلون حرم الملك ويخافون من شيء ما كنت اودلهم إلا آلافاً من الرباعيات ابهضوا بسلام لاخوف عليكم فقضينا عجباً مما شاهدناه وسمعناه وخرجنا إلى أحد الفنادق فنزلنا فيه وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك والثانى والعشرين لديسمبر وفى خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء فأعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة

ذكر المدينة التي هى حضرة صقلية أعادها الله

هى بهذه الجزائر أما الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فماشئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عتيقه أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الابصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان يشقها نهر معين ويطرد فى جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الافرنجى أباده الله تنتظم بلبتها قصور انتظام العقود فى نحور الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب فكم له فيها لاعمرت به من مقاصير ومصانع ومناظر ومطالع وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ورفه بالاقطاعات الواسعة رهبتها وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان فيعيدها دار إيمان وينقلها من الخوف للامان بعزته إنه على ماشاء قدير وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بآذان مسموع ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيده فى هذا الشهر المبارك وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم تلافاهم الله بصنع جميل بمنه ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة والشىء قد تشبه بشىء من أحد جهاته أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هى فى وسط المدينة الحديثة وعلى هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة لها مناظر فى الجو مظلمة تحار الابصار

فى حسنها ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفر أن بها كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكى أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم وقد احتفلوا لها رجالا ونساء فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قدرصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبابمن الزجاج فتخطف الأبصار بساطع شعاعها وتحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها وأعلمنا أن بانيها الذى تنسب إليه أنفق فيهاقناطير من الذهب وكان وزيراً لجدهذا الملك المشرك ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى وهى من أعجب ما يبصر من البنيان شرفها الله عن قريب بالآذان بلطفه وكريم صنعه وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفنا اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أوكنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر

إن من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جآزراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدى إلى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى تفنيدانه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ونزلنا بها فى أحد فناديقها التى يسكنها المسلمون وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثانى والعشرين لهذا الشهر المبارك والثامن والعشرين لشهر دسمبر إلى مدينة (اطرابنش) بسبب مركبين بها أحدهما يتوجه إلى الأندلس والثانى إلى سبتة وكنا أقلعنا إلى الإسكندرية فيه وفيهما حجاج وتجار من المسلمين فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة وأبصرنا محارث ومزارع

لم نر مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً فشبهناها بقنبانية قرطبة أو هذه أطيب وأمتن وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلقمة وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق كلها مسلمون وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك والتاسع والعشرين لدسمبر فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة وقد فجرها الله ينابيع من الأرض وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها فأجزنا منها واحدة على الطريق فنزلنا إليها عن الدواب وأرحنا الأبدان بالاستحمام فيها ووصلنا إلى أطرابنش عصر ذلك اليوم فنزلنا فيها فى دار اكتريناها

ذكر مدينة اطرابنش من جزيرة صقلية أعادها الله

هى مدينة صغيرة الساحة غير كبيرة المساحة مصورة بيضاء كالحمامة مرساها من أحسن المراسى وأوفقها للمراكب ولذلك من يقصدالروم كثيراً البهاء ولاسيما المقلعون إلى بر العدوة فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفاً إلا ريثما لا تهب الريح الموافقة فمجراها فى ذلك مجرى المجاز الغريب وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع ما يحتاج إليه من مرافق المدن لكنها فى لهوات البحر لاحاطته بها من ثلاث جهات واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة والبحر فاغرفاه لها من سائر الجهات فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها وإن تراخى مدى أيامها ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى وهى مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لأنها على محرث عظيم وسكانها المسلمون والنصارى ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس وبركنها من جهة الشرق مائلا إلى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع فى أعلاه قنة تنقطع عنه وفيها معقل للروم وبينه وبين الجبل قنطرة ويتصل به فى الجبل للروم بلد كبير ويقال أن حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة جعلها الله سبياً للمسلمين وبهذا الجبل

الكروم والمزارع وأعلمنا أن به نحو أربعمائة عين متفجرة وهو يعرف بجبل حامد والصعود إليه هين من إحد جهاته وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة إن شاء الله ولا سبيل أن يتركوا مسلماً يصعد إليه ولذلك ما أعدوا فيه ذلك المعقل الحصين فلو حسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه وقطعوا القنطرة واعترض بينهم وبين الذى فى أعلاه متصل به خندق كبير وشأن هذا البلد عجيب فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره وطرابنش فى هذا البسيط ولا ماء لها إلا من بئر على البعد منها وفى ديارها آبار قصيرة الارشية ماؤها كلها شريب لا يساغ والفين المركبين اللذين يرومان الاقلاع إلى المغرب بها ونحن إن شاء الله نؤمل ركوب أحدهما وهو القاصد إلى بر الأندلس والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه وفى غربى هذه البلدة اطرابنش المذكورة ثلاث جزائر فى البحر على نحو فرسخين منها وهى صغار متجاورة إحداها تعرف بمليطمة والأخرى بيابسة والثالثة تعرف بالراهب نسبت إلى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن وهى مكمن للعدو والجزيرتان لا عمارة فيهما ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور

شهر شوال عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من يناير بشهادة تثبتت عند حاكم اطرابنش المذكورة بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها فعيد الناس على الكمال بحسب يوم الخميس المذكور وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب إلى وطنه وخرج إلى أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه إن شاء الله إلى بر الأندلس ونظرنا فى الزاد والله المتكفل بالتيسير والتسهيل ووصل أمر من ملك

صقلية بعقله المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الاسطول الذى يعمره ويعده فليس لمركب سبيل للسفر إلى أن يسافر الاسطول المذكور خيب الله سعيه ولا تمم قصده فبادر الروم الجنويون أصحاب المركبين المذكورين إلى الصعود فيهما تحصناً من الوالى ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه فأقاموا بمراكبهم ينتظرون هواء يقلعون به وفى هذا التاريخ المذكور وصلنا أخبار موحشة من الغرب منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية والله لا يحقق ذلك ويجعل العاقبة والهدنة للمسلمين بمنه وكرمه والناس بهذه المدينة يرجمون الظنون فى مقصد هذا الاسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره وعدد أجفانه فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ويقال أكثر من ذلك ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام والله يقطع به ويجعل الدائرة عليه فمنهم من يزعم ان مقصده الإسكندرية حرسها الله وعصمها ومنهم من يقول ان مقصده ميورقة حرسها الله ومنهم من يزعم أن مقصده افريقية حماها الله ناكثاً لعهده فى السلم بسبب الانباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب وهذا أبعد الظنون من الامكان لأنه مظهر للوفاء بالعهد والله يعين عليه ولا يعينه ومنهم من يرى أن احتفاله انما هو لقصد القسطنطينية العظمى بسبب ماورد من قبلها من النبأ العظيم الشأن المهدى للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى ﷺ بصدق البرهان وذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفى وترك بعده لزوجه ولها ابن صغير فقام ابن عم له فى الملك وقتل الزوج المذكورة وتقف الابن المذكور ثم ان ابناً للثائر المذكور عطفته الرحمة على الابن المعتقل فأطلق سبيله وكان أبوه قد أمره بقتله فرمت به الاقدار إلى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه فوردها على حالة ابتذال ومهنة استعمال خادما لأحد الرهبان مسدلا على شارته الملوكية ستراً من الامتهان ففشى الامر وذاع السر ولم يغن عنه ذلك الستر فاستحضر عن أمر الملك الصقلى غليام المذكور قبل واستنطق واستفهم فزعم أنه عبد لذلك الراهب وخديمه ثم ان طائفة من الروم

الجنويين المسافرين إلى القسطنطينية اثبتوا صفته وحققوا انه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لاحت منه منها فيما ذكر لنا ان الملك غليام خرج فى يوم زينة له وقد اصطف الناس للسلام عليه وأحضروا الفتى المذكور فى جملة الخاصة فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطلوعه عليهم الا ذلك الفتى فانه لم يزد على الايماء فى السلام فعلم ان الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة فاعتنى به الملك غليام وأكرم مثواه وأزكى عيون الاحتراس عليه خوفاً من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه وكانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لاتنكح فى الاقارب فحمله الحب المصمى والهوى المصمى المعمى والسعادة التى تفضى بصاحبها إلى العاقبة الحسنى وترمى على أخذها والتوجه بها إلى الأمير مسعود صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية وقد تقدم ذكر غنائه فى الاسلام فيما مضى من هذا التقييد وحسبك ان صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدى الجزية إليه ويصالحه على ما يجاوره من البلاد فاسلم مع ابنة عمه على يده وسيق له صليب ذهب قد أحمى عليه فى النار فوضعه تحت قدمه وهى عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية والوفاء بذمة دين الإسلام وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه وأخذ جيوش المسلمين معه إلى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من أهلها نحو الخمسين ألفاً من الروم وأعانه الأغريقيون على فعله وهم فرقه من فرق أهل الكتاب وكلامهم بالعربية وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة وهم لايرون أكل لحم الخنزير فشفوا نفوسهم من أعاديهم وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض واستولى المسلمون على القسطنطينية ونقلت أموالها كلها وهو مالا يأخذه الاحصاء إلى الأمير مسعود وجعل من المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس واتصلت بلادهم بها وهذا الفتح إذا صح من أكبر شروط الساعة والله أعلم بغيبه ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى محققين لاشك عندهم فيه أنبأت به مراكب الروم التى وصلت من القسطنطينية وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا يوم

أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة عما عندنا من خبر القسطنطينية فلم يكن عندنا علم ولا تعرفنا معنى السؤال عنها إلا بعد ذلك وتحققوه أيضاً من جهة ملكها هذا الصبي وما كان من أتباع الثائر عليه إياه عيونا تروم اغتياله فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه لايكاد يصل لحظ العيون إليه وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا محتدم جمر الشباب صقيل رونق الملك عليه ناظر فى علم اللسان العربى وغيره بارع فى الأدب الملوكى ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته فالملك الصقلى مايذكر يرمم توجيه الاسطول المذكور إلى القسطنطينيه أنفة لهذا الصبي المذكور وما جرى عليه وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد فالله عز وجل ينكثه خاسراً على عقبه ويعرفه شؤم مذهبه ويجعل قواصف الرياح خاسفة به إنه على مايشاء قدير وهذا الخبر القسطنطينى حققه الله من أعظم عجائب الدنيا وكوائنها المرتقبة ولله القدرة فى أحكامه وأقداره

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ونحن بمدينة اطرابنش المتقدم ذكرها منتظرين انسلاخ فصل الشتاء واقلاع المركب الجنوى الذى أملنا ركوبه إلى الاندلس ان شاء الله عز وجل والله سبحانه ييمن مقصدنا وييسر نا مرامنا بمنه وكرمه وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا مايؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل الجزيرة مع عباد الصليب بهادمرهم الله وماهم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك إلى طوارىء دواعى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم وربما تسبب إلى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوهم إلى فراق دينه فنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى هى حضرة ملكهم الطاغية ويعرف بابن زرعة ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس فى دين النصرانية ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون

فى الاحكام النصرانية وربما طرأ حكم إسلامى فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين وكان له مسجد بإزاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فأعلمنا أنه يكتم إيمانه فلعله داخل تحت الاستثناء فى قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم ابن حمود المعرف بابن الحجر وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن كابر وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح مريد للخير محب فى أهله كثير الصنائع الاخروية من افتكاك الاسارى وبث الصدقات فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج إلى مآثر جمة ومناقب كريمة فارتجت هذه المدينة لوصوله وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال فاتفق فى هذه الايام رضى الطاغية عنه وأمره بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية فنفذلها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا فاجتمعنا به فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم مايبكي العيون دماً ويذيب القلوب ألماً فمن ذلك أنه قال كنت أودلو أباع أنا وأهل بيتى فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدى بنا إلى الحصول فى بلاد المسلمين فتأمل حالا يؤدى بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه إلى أن يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل الجزيره وواجب على كل مسلم الدعاء لهم فى كل موقف يقف بين يدى الله عز وجل وفارقنا باكيا مبكياً واستمال نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ورزانة

حصانه وشمول مبرته وتكرمه وحسن خلقه وخلقيته وكنا قد أبصرناله ولاخوته ولأهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة الأنيقة وشأنهم بالجملة كبير لاسيما هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنه ومن أعظم مامنى به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه آنفة تؤديه إلى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب للابن سبيلا ولا الام للبنت سبيلا فتخيل حال من منى بمثل هذا فى أهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم فهم الدهر كله فى مدارات الأهل والولد خوف هذه الحالة وأهل النضرة فى العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ماتفق على أهل الجزيرة أقريطش من المسلمين فى المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حال بعد حال حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم وفر منهم من قضى الله بنجاته وحقت كلمة العذاب على الكافرين والله غالب على أمره لاإله سواه ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى أبادهم الله إنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيره مسلم إلا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به تكفل الله بعصمته جميعهم ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه ومن أعجب ماشهدناه من أحوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا إن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغباً فى أن يقبل منه بنتاً بكراً صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين فطاب الاب والاخوة نفسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم إذ زالت هذه العقلة المقيدة عنهم فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خيرى الدنيا والاخرة

وطال عجبنا من حال تؤدى بانساب إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب واسلامها إلى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها كما أنا استقرينا حال الصبية صانها الله ورضاها بفراق من رغبة فى الاسلام واستمساكا بعروته الوثقى والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها ويجعل الصنع لها بمنه واستشعارها الاب فيما هم به من ذلك فقالت له إن أمسكتنى فأنت مسؤل عنى وكانت هذه الصبية دون أم ولها إخوان وأخت صغيرة أشقاء لها.

شهر ذى الحجة عرفنا الله يمنه وبركته

غم هلاله علينا لتوالى الأنواء فأكملنا أيام شهر ذى القعدة بحسابه من ليلة الاربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة طامعين فى قرب السفر مبشرين بطيب الهواء والله ييسر مرامنا ويتكفل بسلامتنا بعزته واتفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيراً فعلم أنه من ليلة الثلاثاء فانتقل حساب الشهر إليها وفى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور والثالث عشر من مارس وهو يوم عرفه عرفنا الله ببركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات كان صعودنا إلى المركب بمنه الله ورزقنا السلامة فيه مبيتين للسفر قرب الله علينا مسافته فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة عيد الاضحى نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين عصم الله الجميع ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه إنه سبحانه كفيل بذلك ورمنا الاقلاع فلم توافق الريح فلم نزل نتردد من المركب إلى البر ونبيت للسفر كل ليلة اثنى عشر يوما إلى أن أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى الحجة المذكور والخامس والعشرين لمارس فأقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر فوصلنا إلى جزيرة الراهب وقد تقدم ذكرها فى هذا التقتيد وبينها وبين اطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا فتغير الريح علينا فملنا إلى مرساها فكان من الاتفاق

العجب أن ألفينا فيها مركب مركون الجنوى المقلع من الاسكندرية بنحو مائتى رجل ونيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين كنا فارقناهم بمكة قدسها الله فى ذى الحجة من سنة تسع ولم نسمع لهم خبراً منذ فارقناهم ولا سمعوا لنا وكان أصحابنا من أهل غرناطة منهم الفقيه أبو جعفر بن سعيد صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها فلحين ما علموا بنا تطلعوا إلينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه رافعين أصواتهم ببشرى السلامة واللقاء مسرورين بالاجتماع باكين من الفرح دهشين ذاهلين لوقوع المسرة من نفوسهم ونحن لهم على مثل تلك الحال فكان يوما مشهوراً اتخذناه عقب العيد عيداً جديداً ونزل الاصحاب بعضهم إلى بعض وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها وجعلنا هذا الاجتماع عنواناً كريماً لما نؤمله من انتظام الشمل بالاوطان إن شاء الله عز وجل وأهب الله علينا ريحاً طيبة فى سحر تلك الليلة وهى ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقلعنا بها ونحن فى أربعة مراكب كلها تؤمل جزيرة الاندلس بحول الله تعالى وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب تزجية حثيثة ونحن من الشوق إلى الاندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح فى حث الرياح وانزعاجها والله يمن بالتسهيل والتعجيل ثم انقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين فضربت فى وجوهنا فأنكصتنا على الاعقاب فرجعنا عوداً على بدأ إلى مرسى جزيرة الراهب فوصلنا إليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور ثم أقلعنا منه عشى يوم الجمعة بعده منفردين دون المراكب المذكورة فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب الجرى فأصبحنا يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر ونحن على طرف جزيرة سردانية وقد قطعناها جرياً وطولها أزيد من مائتى ميل فاستبشرنا وسررنا وقدر للمركب فى يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل فكان أمراً مستغرباً ثم إن الريح الموافقة ركدت عنا وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه وهو أول إبريل إلى جهة بر أفريقية فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بخالطة وهى جزيرة غير معمورة ويقال أنها كانت معمورة فى القديم وهو مقصد العدو

ومنها وبين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا وهو منا رأى العين فأقمنا بهابعد أهوال لقيناها في دخول مرساها عصم الله منها وتوالت الايواء علينا فيها ونحن ننتظر فرجاً من الله تعالى وكان مقامنا فيها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم

شهر محرم سنة إحدى وثمانين عرفنا الله بركتها بمنه

غم هلاله علينا فحسبنا على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر إبريل عرفنا الله بركة هـذه السنة ويمنها ورزقنا خيرها ووقانا شرها ومن علينا بنظم الشمل فيها إنه سميع مجيب وفي ليلة الجمعة الثاني منه أهب الله علينا ريحاً شرقية أقلعنا بها وهو لين رخاء إلى أن استشرى فعاد ريحاً شديدة جرى بها المركب أقوى جرى وأعد له وما زلنا منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقي شوقاً إلى ريحه فلا يهب منه نسيم حتى خلناه لعدمه عنقاء مغربا إلى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه فأجراه لنا الآن في شهر نيسان عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه وصحبتنا هذه الريح الشرقية نحو يومين سرنا فيهماسيراً حثيثا وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة فأقمنا بها نضرب البحر طولا وعرضا ولا يترائى لنا بر حتى ساءت ظنوننا وتوهمنااسقاط الرياح لنا إلى جهة بر (برشلونة) دمرها الله إلى أن أذن الله بالفرج فأبصرنابر جزيرة يابسة ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور ونحن لا نكاد نتبينه لبعد خيالا خفيا فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل بعد مكابدة اختلاف الرياح في دخوله فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال وكان ارساؤنا بأزاء جزيرة (فرمنتيرة) وهي منقطعة على جزيرة يابسة وبينهما مقدار أربعة أميال أو خمسة وفيها قرى كثيرة معمورة فأقمنا بمرساها ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ والعجوز وفي تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الأندلس وأقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون فحدقت الابصار لهذا البر سروراً بمرآه واستبشرت الانفس بالدنو منه وأصبحنا يوم الاحد الحادي عشر

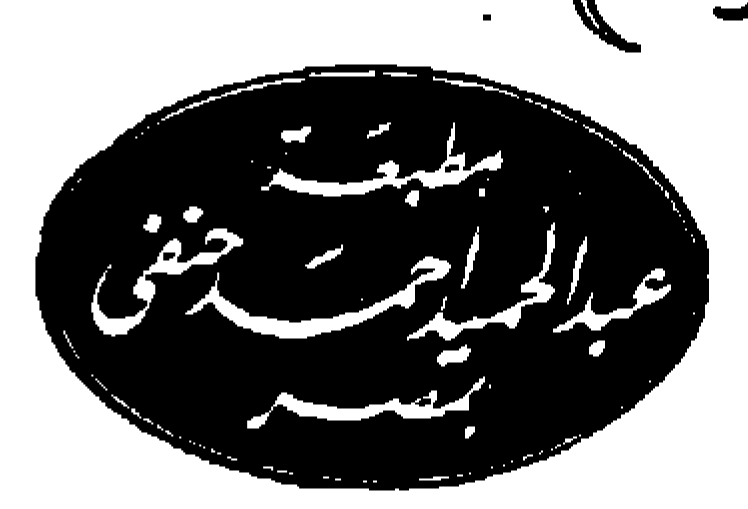
من الشهر بالمرسى المذكور والريح غربية ونحن ننظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة نشراً بين يدى رحمته إن شاء الله وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه أقلعنا على اليمن والبركة بريح شرقية لينة المهب لها نفس خافت داعين الله عز وجل فى إحياء ذمائها وتقوية إجرائها وجبال دانية أمامنا رأى العين والله يتمم فضله علينا ويكمل صنعه بعزته لنا وتمادت وانتشرت بفضل الله تعالى فنزلنا بقرطاجنة عشى يوم الخميس الخامس عشر منه شاكرين لله على ما من به من السلامة والعافية والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ثم أقلعنا منها أثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا فى فحص قرطاجنة بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج ثم منه يوم السبت إلى مرسية ومنها فى اليوم بعينه إلى لبرالة ثم منها يوم الأحد إلى الورقة ثم منها يوم الإثنين إلى المنصورة ثم منها يوم الثلاثاء إلى قنالش بسطة ثم منها يوم الاربعاء إلى وادى آش ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحرم والخامس والعشرين لابريل إلى المنزل بغرناطة

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه .. والتيسير والتسهيل الذى والاه .. وصلواته على سيد المرسلين والآخرين محمد رسوله الكريم ومصطفاه . وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهداه وسلم وشرف وكرم فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونيفاً والحمد لله رب العالمين

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

﴿ تم الكتاب والحمد لله أولا وآخراً ﴾



فهرست رحلة ابن جبير الأندلسى

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تم الفهرس)


Bibliotheca Alexandrina
06222593